

صلاح الدين

ومكائيل الحشاشين

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة السادسة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تتضمن انتقال مصر من الدولة الفاطمية الى الدولة الايوبية
في اواخر القرن السادس للهجرة على يد السلطان صلاح الدين وما
تخلل ذلك من المساعي . ويدخل فيه وصف طائفة
الاسماعيلية المعروفة بجماعة الحشاشين وما اشتهر
عنها من عرائب القتل والقتل

تأليف

حزقي زيدان

منشء الهلال

الطبعة الثانية

مطبعة الهلال شارع بومار بمصر

سنة ١٩٣٠

المقدمة

هذه هي الحلقة السادسة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام
(غير رواية الانقلاب العثماني) وقد اختلفت فيها المظاهر والصور
الاخلاقية والاجتماعية عما كانت في العصر الماضي لاختلاف الاشخاص
القائمين بها عن أهل تلك العصر

واطال هذه الرواية من الاكراد ورعيهم السلطان صلاح الدين
المسيهور. وهي تتضمن سعيه في استحراح مصر من الدولة العبيدية أو
الفاطمية باسم السلطان نور الدين ركني صاحب السام. لكنه ارادها
لنفسه واسرنا الى ما اقتضاه ذلك من المساعي وما تخلله من الحوادث العريية
ومن جعلتها أعمال الحساسين أو الاسماعيليه الذين تكاثروا في ذلك العصر
برئاسة امامهم السيح راسد الدين سنان. وكان لهم شأن في قتل كثير
من الملوك والامراء غيلة مما ادهش العالم

وبدلا الجهد في درس احوال تلك الطائفة وتمثيلها للقارىء كما يستفاد
من محل ما كتبه عنها المؤرخون وهم على تناقص واختلاف ليس هنا محل
تحقيقها. واما جمعنا في هذه الرواية أعرب ما يروى عنها من المعجرات
ونحن الآن في الحلقة ١٦ من هذه السلسلة وادا اصعنا اليها ما سر
من رواياتنا المستقلة الاخرى مما يدخل في تاريخ الاسلام — يعني
استمداد المماليك والملوك السارد واسير المتهدي والانقلاب العثماني —
مع عدد رواياتنا التاريخية الاسلامية ٢٠ روايه ١٦ منها في تاريخ الاسلام
من ظهوره الى اواخر القرن السادس للهجرة وأربع في تاريخه من واسط
القرن الحادي عشر الى اعلان الدستور العثماني. فادا وقعنا الى اصدار
الحلقات الموصلة من هاتين المديتين تمب الساسه. وكانت من حيرة
ما تمضى به اوقات المراجعين، وفائدة والله الموفق

الفصل الاول

فذلكة تاريخية

انتهت رواية « فتاة القبروا » بدخول مصر في حوزة الفاطميين أو العبيد سنة ٣٥٨ هـ على يد القائد حوهر وباب دولة الاختيد وخرح مصر ذلك من حوزة الدولة العباسية لأنها كانت في رمن الطولوبين والاختيدين مع استقلال هاتين الدولتين بالحكومة تحت رعاه الخليفة العباسي في بغداد وهو يتنتم على الامارة وبعث اليهم بالخامع او بكتاب التولية (الفرمان) نحو ما يفعل السلطان العثماني بامراء مصر لهذا العهد. ولكن ادارة الحكومة الداخلية وسائر أعمالها كان يحريها الامر الطولوبى أو الاختيدى مستقلاً بدون مراعاة بغداد . وهو شبه ما يعبر عنه كتاب هذا العصر بالاستقلال الاداري على تفاوت بدرجات ذلك الاستقلال

فما دخلت مصر في حوزة الفاطميين بعرب حالها السياسية واصبحت دولة مستقلة بنفسها استقلالاً تاماً لا تراخ احداً ولا تعترف بسيادته احد عمر الخليفة الفاطمي المقيم في القاهرة

وهي اول مرة استقلت بها مصر بالسيادة السياسية بعد الاسلام . وقيمت الخلافة العباسية في بغداد كما كانت وظهرت الخلافة الاموية بالاندلس في بني مروان فاصححت الممالك الاسلامية يتدارعها ثلاثة حلفاء كل منهم يزعم لنفسه الحق بالخلافة الحقيقية وسكرها على الآ حرس وكان الصراع على أشده بين خليفة بغداد وخليفة القاهرة . وبهذا احنلاف في الذهب اصلاً لان الخلافة العباسية كانت سنية والفاطمية شيعية . وهو في أصله تنازع سياسي ادخلوا فيه الدين وسبله لتأيد دعواهم

والدولة الفاطمية اول دولة شيعية تسمى ملوكها بالخلفاء . وعاصمته دولة اخري شيعية في العراق وفارس نعى الدولة البويهية لكنهم لم يسموا انفسهم خلفاء ولا ادعوا سباً قرشياً يؤهلهم لذلك . وحافظوا على الخلافة العباسية مع اعتقادهم أن احبابها اغصبوها من مستخفيها - وانما استبقوها ليحكموا بها العامة . واثار بعضهم على معر الدولة البويهية بعد قيام الدولة الفاطمية أن نقل الخلافة الى الفاطميين أو الى غيرهم من العلويين فاعترض عليه بعض خاصته قائلاً « ليس هذا رأى فانك اليوم مع حليفة تعتقد أنت واصحابك أنه ليس من أهل الخلافة لو امرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى اجلست بعض العلويين حليفة كان معك من يعتمد انت واصحابك صحة خلافته فلو امرهم بقتلك لقتلوك » فرجع معر الدولة عن عزمه (١)

استقرت الخلافة الفاطمية بمصر والخلفاء العباسيون في بغداد واتباعهم السنيون في الحجاز العالم بكروا على الفاطميين صحة اتسابهم الى فاطمة الزهراء وهم لا يزالون . وانما كان بهم تأييد سلطانهم بالسيف والدهاء ولا سيما في اوائل دولتهم . فان المعز لدين الله لما بنى له حوهر مدينة القاهرة ودعاه اليها خرج الناس للعائنه واجتمع به أناس من الاسراف وفيهم عبد الله بن طماطبا المشهور فتقدم الى الخليفة المعز وقال له « الى من ينتسب مولانا » فقال له « سيعقد مجلساً محمداً فيه وسره عليكم اسماً » ولما استقر المعز في القصر جمع الناس في مجلس عام وحاس لهم وقال « هل همى من رؤسائكم احد » قالوا « لم يبق معتر » فسل نصف شيعه وقال « هذا سني » وسر عليهم دهما كثيراً وقال « هذا حشي » فقالوا جميعاً « سمعنا وأطعنا »

فتوالى على مصر من الفاطميين أحد عشر خليفة حكموا نيفاً ومثني عام (من سنة ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) اولهم المعز لدين الله وآخهم العاضد لدين الله . مرت الدولة في اثنائها في ثلاثة ادوار . كانت في اول امرها قائمة بالعرب والبربر وهم الذين فتحوا مصر مع جوهر فكان النفوذ مسركا بين هذين العنصرين . ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك^(١) كما انتقل النفوذ في الدولة العباسية من العرب والفرس الى الاتراك

وكان السبب في نكاثرات الاتراك بمصر انه لما مات الخليفة الحاكم بامر الله وخلفه ابنه الطاهر لاعداد دين الله سنة ٤١١ هـ اكثرت من الالهو والقصف ومال الى الاتراك والمشاركة فاحتط حانب البربر وما زال ودرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الطاهر كانت امه سوداء فاستكثر في حود انبها من العبداء حلدتها حتى بلغوا الف عبد اسود . وكان انبها بسكثر من الاتراك فاصح الحد طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ فآل النافس الى حرب تعنت بها مصر واصطر الخليفة الى استنصار صاحب السام فاتاه امير الحيوس بدر الحماي من سوريا وهو ارمى الاصل فقتل اهل الدولة واقام بمصر حيداً من الارمن والأتراك وصار من حيثئد معظم الحيوس منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من حملة الرعية ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد ان كانوا وجوهاً واكابر اهلها

وكان السلاحمة في اثناء ذلك قد غلبوا على العراق وفارس ودهمت دولة آل بويه وضعف امر السعة هناك وولى السلاحمة ممالكهم وفوادهم (الاناسكة) على الولايات واستعمل كل منهم بولايتة ومنهم نور الدين راكمي في السام . وكان في حملة فواد نور الدين جماعة من نسحمان الاكراد منهم

نجم الدين ايوب وأخوه أسد الدين سر كويه وفد بالعام ٥٢٥ هـ بمزانه ربيعة . وكانت خلافة مصر قد افضت سنة ٥٥٦ هـ الى المعاصد لدين الله بن يوسف وكان ضعيف الرأي وفد غاب وراؤه على دوله ونافسوا على الاستئثار بالنفوذ وطال نفاستهم حتى أخبروا الملاد والخليفة لا يستطيع عملاً

وكان في حملة المنافسين ورير اسمه ساور غلب امره فذهب الى نور الدين رنكي واستنجد به على رجل آخر كان ينافسه في الوزارة فاعتم نور الدين تلك الفرصة للتمص على مصر واتحد به ناسد الدين سر كويه في حشد من الممالك فردّ الوزارة الى ساور وصار هذا يدفع نات حراج مصر الى نور الدين

وكانت الحروب الصليبية في تلك الاثناء قد احتدمت فواد دخول نور الدين في شؤون مصر وبائنه فيها سر كويه ومعه ابن أخيه يوسف بن نجم الدين وهو صلاح الدين الايوبي السهير . ومات سر كويه بمصر سنة ٥٦٤ هـ خلفه صلاح الدين في منصب النيابة وسمي وريراً فاتحد صلاح الدين ذلك وسيلة للاستقلال بسلطنة مصر لنفسه — وهم ما يطالب بسلطه في انحاء هذه الرواية

الفصل الثاني

مرك الخليفة المعاصد

اهص يا اخي .. اما كفالك نوما ؟ والقاهرة صحت والناس يبراكسون ؟
قم وانج بحارك
الى اس ؟ ولماذا ، هل احرقوا القاهرة كما احرقوا القسطنطين ؟ ام هناك سرينه حديدية عاليا ترك مواقف القاهرة وأتيت بحارى الى هذا

الموقف خارج باب الفتوح لا تخلص من تعدياتهم وتعديات هؤلاء الأتراك والاكراد ..

اسكت يا عمر ان هؤلاء الاكراد كل الخير منهم .. هل نسيت ما كنا نفاقيه من العذاب وبليهم ، حتى ان احدا لم يكن يتحرك ما لم يصروا عليه ضريبة . ومن كان يحس ان يذكر انا بكر او عمر رضي الله عنهما ؟ صدقت . ان والديّ ندما على تسميتي بهذا الاسم .. وماذا جرى الان يا عم حسن ؟ هل تقدر ان تتحرك ؟ ها انت تقول لي قم ابع بجمارك اقول لك ذلك لان الخليفة العاصد لدين الله خارج من قصره في موكه وستتبعه طائفة من الأتراك وغيرهم وربما سطا احدثهم على حمارك ويركبه .. وربما احده لنفسه

الخليفة خارج من قصره ، واين مح وقصره ؟ اما خارج القاهرة انه آت الى هنا وسيخرج من باب الفتوح هذا من هذا الباب ؟ الى اين ؟ انه خارج لاستقبال مح الدين أيوب الخليفة خارج من القاهرة لاستقبال نجم الدين ؟ ومن هونجم الدين هذا

هو والد الورير صلاح الدين يوسف جاء من الشام لمرارة ابنه الله الله ناديا — الخليفة امير المؤمنين ابن بنت الرسول وظل الله على الارض يخرج من قصره الى خارج بلده لملافاة والد وريره — متى كان الخلفاء العاطميون يفعلون ذلك يا عم حسن ؟ تعبرت الاحوال يا صاحبي .. ان الخليفة لم يبق له من الخلافة الا الاسم . وصار المقود الى هذا الكردي .. مسكين العاصد

مسكين ليه ؟ بل نحن المساكين ويمكن هذا الكردي يكون
احسن منه

الكردي احسن من الخليفة ؟ لا

وما الذي بصيما من هؤلاء الحكام ، انهم يختصمون على الاستمداد فينا
ومادا يهمني ان كان حاكي كرديا او عربيا او هديا اما يهمني ان لا يظلمني ..
مش كدا ؟

اسكت انهم قادمون ألا تسمع الاواق والصنوح ؟ ابج بجارك حته
في مكان وتعال

ها انا داهب وسارجع اليك على محل لأرى موك الخليفة .. ان
دلك حسرة في قلبي مد ولدت طالما سمعت بهذا الموك وما يحف به
من العرسان وما يلبسه الخليفة من الجواهر والحريز و ...
انا في انتظارك . اسنعيجل نا عمر

لا .. لا .. الاحسن بان تتمعي انت لمصع الحمار في هذا البيت
ونصعد على سطحه فكون أقدر على المشاهدة واعد عن الخطر

طيب .. هيا بنا

نحن الان على هذا السطح مسرفون على الموك
انهم قادمين من القصر وبعد قليل يصلون الى باب الفوح هذا
فراهم وهم خارجون .. ألا اسمع الصوصاء وقرقة اللحم
نعم اسمع واحاف أن نكون علما حطر
لا ما فيس حطر .. أراك تحاف من حيالك

لا تؤاخذني نا عم حسن ان الملدوع يحاف من حره الحمل . وهؤلاء
لحمود لم يجرحوا بمل هذه الحركة ألا تعدوا علينا وأحدوا دوانا ..

اتي الموك ابظر نظرة عامة اليه في الشارع الداخلي قبل حروحه

انى ارى الاعلام تحمى والخيول تصهل والزماج تتلألأ والسيوف بلع
والشارع يموج بمن فيه كالنيل فى فيضانه . يا حفيظ ! اشكرك يا عم حسن
على هذه الفرجة . . قل لي الان وفد احدا يرحون من باب الفتوح من
هو الخليفة منهم هل هو هذا الراك على هذا الفرس الاتهب وعلبه
الياب القصيبة ؟

يظهر انك لم تشاهد احداً من رجال الدولة فى حياتك . . ان الذين
يتقدمون موكب الخليفة كثيرون . وهل تظن الخليفة يلبس الفصب ؟ انه
لباس بعض اتباعه . اما الذين تراهم فى مقدمه الموكب فهم الامراء واولادهم
واحلاط من العسكر وراءهم ارباب القصب ثم ارباب الاطواق الى الاسادين
المحكين وهم اكبر رجال الدولة . انظر الى الستهم الماحرة الي تأخذ بالانصار
والى سروح حيولهم المفضصة ومن فى ركاهم من الخدم الاتراك وغيرهم
ان ذلك كله ليس شيئاً بالظر الى موكب الخليفة . انظر . . انظر . . هذا
هو موكب الخليفة عند تلك المطله

ان المظلة تعطيه فلا اراه جيداً . وانما ارى فرسه وما يحدق بها من
الاعلام والفرسان بحاضه من هم ؟

لا تستعجل فى الاسفهام ان الموكب يسير ببطء وانا سارح لك كل
شيء - هل ترى فرس الخليفة ؟ تأملها جيداً ان سرحها من الديساج
الاحمر مصوع بالذهب وممرل فيه المياء ولو تأملت مقدم السرج لرأيت
عليه احجاراً كريمة . وفي علق الفرس قلائد الذهب ولو استطعت النظر
الى قوائم الفرس لرأيت حولها الحلالل الذهب . ويقدرول كل فرس بما
عليها من العدة نالف ديار (١) وافراس الورراء والامراء ابصاً فى مثل هذا
الترتيب وهى كلها فى الاصل هدية من الخليفة يهبها لامرائه فى الاعياد

هيناً لك ناعم حسن لا بد انك ذقت الركوب على هذه الافراس
وأنت من علماء القصر الكبير

ذقت يا بني أشياء كثيرة كدت اسأها الآن . ورأيت مجوهرات
ومصوغات تبهر العقل . فكيف بما يلبسه الخليفة ؛ انظر الى هذه المطلة
فإنها تشبه الهرم بسكلها وهي من الديباج الاررق السماوي وثوب الخليفة
تخمنها في هذا اللون أيضاً . ولو كانت حمراء لكان ثوبه أحمر . وانظر الى
الاهلة الذهب التي تدلى من حواتي المطلة وكيف ان اضلاع المطلة او
قوائمها ملبسة بالذهب . وفي فمها رمانة ذهب كبيرة فوقها رمانة ذهب
صغيرة مرصعة بالجوهر — انظر الى لمعانها فانه يحطف المصير

صحيح . ولكنني لا ارى حامل المطلة . وكيف يستطيع حملها
وهي ثييلة ؟

ان حاملها راك فرسه بجانب فرس الخليفة . والمطلة قنطرة يركبها
ذلك الفارس في قروب فرسه وهو في اناء الركوب ان يراف موقوف
الخليفة من جهة الشمس بحيث لا تقع اسعها عليه
وماذا يحدث اذا وقعت الاسعة عليه ؟ هاها . . اني ارى رأس
الخليفة فان صاحب المطلة انحرف عنه . . يا سلام ما هذا الذي على رأسه

الفصل الثالث

العاصد وصلاح الدين

يمهل لآتم حديثي . انظر الى هذه العمامة على رأس الخليفة فإها اسماء
وتسكبا اهلجي . وفي اعلاها فوق الحبة حله شكل الهلال من نابرب
احمر ليس له مثال في الدنيا وفي وسط الهلال جوهرية عظيمة . . .

لها اليتيمة لا يعرف لها قيمة . ويقال ان وزنها ٧ دراهم ووزن الهلال كله
١١ مثقالاً وبدائرة اليتيمة قصبة زمرد دبابي له قدر عظيم

يا حفيظ ! باحفظ ! أيكون مثل هذه الحواهر عند هذا الرجل بلا
فائدة والناس في مملكته يتضورون جوعاً وهو يأخذ اموالهم طاماً ؟ آه
يا عم حسن قد وجعي قلبي من هذا المطر

اسكت يا سبيح ان النعم من عند الله يؤتيها من يشاء .. واعمالك لو عرفت
ما في قلب هذا الحامية لم تحسده على هذه الحواهر .. ما لنا ولهذا الآن ..
اسمع .. ألا ترى الفارس الى سار الحليفة وفي يده مدبل ايص ؟
نعم أراه ماذا يوحد في هذا المدبل ؟

في هذا المدبل الدواه الثمينة التي هي من أعاجيب الزمان فانها من
الذهب وحايثها مرحان . انظر الى الجانب الآخر من الحليفة بر فارساً
آخر يحمل سيماً حليته من الذهب مرصعة بالجوهر وهو معمد لا يطهر الا
رأسه وحامله يقال له « حامل السيف » وهو من اصحاب الرتب العاليه .
وانظر الى حوالي فرس الحليفة فانك تجد عسراب من الصبيان وعليهم
الماديل الطمقات وفي اوساطهم السيوف وأوساطهم متدودة بمدايل وفي
ايديهم الخراب مشهورة وهم بجاني الحليفة كالحماحين . وبينيها مسحة امام
وحه المرس ليس فيها أحد . وبالتقرب من عتق العرس صقليان بحملان
المدبتين وهما مرفوعتان كاللحلة لدب . اسقط من طائر او عبره
اني أرى فارساً خجماً يذهب ويحىء الى يسار المووك وبأمر ونهى

من هو ؟

هذا والى الماهرة يحافظ على رتنب المووك ايسل مروره ومع
الازدحام .. انظر الى الدين هم وراء دابة الحليفة .. هناك جماعة من
الصبيان يقال لهم صبيان الركاب يحملون الصمام المصفوان المدهمة مدل

السيوف المجدبة وبايديهم الدنانيس الكيمخت الاحمر والاسود ورؤوسها مدورة مصرسة . وبعضهم يحملون عمد الحديد وس ايديهم لواء الحمد المختص بالخليفة وحوله ٢١ راية على كل منها كتابة بالحرر تخالف ألوانها وهذا نص الكتاتنة « نصر من الله وفتح قريب » ألم تقرأه ؟

فضحك عمر وقال « من أين لي ذلك ؟ ان أهلى لم يصعوني في الارهر لان التعليم فيه على مذهب الشيعة وأهلى سنيون »

فقطع العم حسن كلامه وقال « فالان صرت تعذر تعلم لان صلاح الدين جعل التعليم فيه عاماً لكل المذاهب . . »

قال عمر لقد أحر عليّ هذه النعمة وهل بعد الاربعين من العمر تعليم . . . فلنترك ذلك لاولادنا . من هذا الذي أراه ؟ ان موكب لا يعمل عن موكب الخليفة في سيء وارى عليه لباساً اخر من لباسه

هذا هو يا صاحبي صلاح الدين الوري وهذا البوب الذي عليه هو جلعنة السلطنة خلعها عليه هذا الخليفة نفسه مد تلاب سبوان . وهي كما ترى عمامه بيضاء من نسج تيس . لها طرف مذهب وتحتها ثوب ديمى بطرار ذهب . وكذلك الحمة التي عليه فان طرارها من الذهب وفوق ذلك طيلسان مطرر بالذهب . وانظر في عنقه هل ترى العقد ؟ انه من الحوهر يساوي عشرة آلاف دينار . والى حاسه سيف محلى بحمسه آلاف دينار وتحتة حجرة (فرس) قيمتها ثمانية آلاف دينار . وعليها سرح مذهب وسر سار ذهب محوهر وفي رأسها مائتا حبه حوهر وانظر الى فوائها فان حولها أربعة عمود حوهر وعلى رأسها قصبة بذهب وفيها شدة بياض باعلام نص (١)

هذا هو صلاح الدين . . ان، مطره يدعو الى الهيبة أكثر من مطر الخليفة . انظر الى هيئته وكيف أن السجاعة طاهرة في وجهه ولا يراه انسان الا احترامه

وخافه . والحفي يقال ان الامور الآن في يديه وهو الامر الناهي كما قلت لك وانظر الى الرجال المحيطين بموكبه وفيهم قوم يقال لهم صبيان الرد من أقرباء الاجناد يختارهم لنفسه وهم مثاث يمشون الى الخابيين وبينهم فسحة امامه مثل فسحة الخليفة . ووراءه الطبول والصنوج والصفافير ألا تسمع صوتها يدوى به العز ووراء موكب الورير يأتي حامل الرمح تأمله فانه رمح لطيف في علاف مطوم من اللؤلؤ وله سنان مختصر بحلية من الذهب . ومعه درقة بكوامح يقولون انها درقه حمرة بن عبد المطالب رضي الله عنه

كان عمر الحمأر يسمع كلام صديقه العم حسن وقد أحاطته الدهسة فلما سمع قوله درقة حمرة نعت وقال « درقه حمرة حمرة بن عبد المطالب عم النبي صلعم »

قال « نعم هكذا يقولون . وقد آن لي ان احتصر لك بالوصف لان الموكب لا يزال طويلاً . فانظر الى ما وراء موكب الورير انك تجد فرقاً من الاجناد المختلفة رمرة رمرة في عدة واحدة تزيد على أربعة آلاف . ثم اصحاب الزايات ووراءهم طوائف من المعسكر على اختلاف احناسهم الاتراك والاكراد والديلم وغيرهم

فقال عمر « قف بالله فليلاً واحترني عن فارس اراه راکماً بجانب صلاح الدين وعليه ثياب فاحرة »

قال انه من بعض خاصته ولكمه فارس يحبه صلاح الدين كثيراً ولا صبر له على فراقه واسمه عماد الدين

فمعت الحمأر عند ذلك وقال « ما بال هؤلاء لا يسمون اسماً الا منسوباً الى الدين هؤلاء ثلاثة ذكرت لي اسماءهم هم نور الدين وصلاح الدين ونجم الدين وهذا عماد الدين

فقال العم حسن تلك عادتهم في التسمية - ها قد امهي الموكب

وقصصت عليك خبره فاذن بانصرافي

فقال « مع السلامة كثر الله خبرك » وانصرفا

هذا هو موكب الحليفة العاصد وصفناه باحصار دغما للمل الفارسي فان

الكلام فيه يطول

سار الموكب على هذه الصورة بعد خروجه من باب الفتوح والباس
في أثره ركوباً أو مشاة وآخرون وقوف على اسطحة المنازل يسرفون على
ذلك الموكب وقد تصاعد العمار حتى حجب وجه السماء وغشى الرؤوس
والمماك . ولم تنق فتاة ولا علام الا خرج الى السارع أو صعد الى
السطح والسماء يستعرون خروج الحليفة لاستئصال ذلك الكردي
والعارفون لا يرون فيه عرانة اصعب امر الحلافه

الفصل الثالث

فاعه الذهب

ما زال الموكب سائراً على هذه الصورة حتى وصل الى مسجد التمر
(في آخر الحسنية) وابتدأت التناثر باقترب نجم الدين فالتفوا به هناك .
وحالاً مقابلاً ترحل نجم الدين احتراماً للحليفة وكذلك فعل رجاله الذين
معه وفيهم احوه سمس الدين . وترحل صلاح الدين وقيل يدي والده
فصله والده ولما رأى ذلك الموكب وما على امه من الخلع لم يملك عن
الكاء من المرح وسكر الله على نعمه . وكان نجم الدين عافلاً ما برأ
فتراعى على يد الحليفة يمشيها وظهر امسانه من ذلك الاكرام والحلمة يمشي به
باطلف اسكبه لم يتحول عن فرسه

وبعد السلام والاكرام عاد الموكب محالاه نحو المعصرين وركب نجم

وكان حديثها في أمة لا يهمها رجال العاصد يعني اللغة الكردية . وكان أكثر الحديث عن نور الدين صاحب الشام وعن العاضد صاحب مصر لما الخليفة العاضد فلو دنوت منه تحت المظلة وتفرست في عينيه لرأيت الدمع يتزقزق فيها . ولو حسست قلبه لسمعت خفقانه الشديد من الأسف والعمل لاضطراره إلى الخروج في هذا الموكب لتكريم رجل يخافه على حياته كما يخافه على منصبه . ولكنه لم يرداً من مسابرة فكظم غيظه وخرج لاستقبال والده . وذلك اتقل على قلبه من الجوع والعري . ولعله ينبغي أن يكون من بعض العامة ولا يتحمل ذلك الصيم

ووصل الموكب قبيل العروب إلى القصر الكبير الشرقي من قصور القاهرة . وهو مجموع قصور ربما زاد عددها على بضعه عتس قصر منها قصر الرمرد وقصر المطهر وقصر الأقبال وقصر البحر وقصر الحرير وقصر السوك ودار الوراثة ودار الصيافة ودار الصرب وحرارة السود وحرارة الكتبت وحجر الصبيان الحجرية وغيرها . وتسمى كلها معاً القصر الكبير الشرقي . كما تسمى قصور عند الحميد في الاستانة قصر يلدر وهو مجموع قصور وموضع القصر الكبير الشرقي الآن في سرق القاهرة القديمة وتما إليها في ما بين الأهر و باب الفتوح ويدخل في ذلك خان الخليلي وبت اقاصي والحماليه والباسين . وقد سمي هذا القصر بالترقي تمييزاً له عن قصر آخر عرني اصغر منه كان عرني القصر الشرقي وبينهما ساحة يقال لها الميدان بين القصرين . ووراء القصر العربي نحو العرب متبره كبير يقال له النستان السكافوري يحده من العرب خايج القاهرة وعلى هذا الخليج كانت منزهات الخلفاء الفاطميين

وكان في حملة امنية القصر الكبير السرقى بناء يسمونه قصر الذهب

كان الخليفة يجلس فيه للباس في يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع -
فوق الموكب عنده

وترجل الخليفة ودخل القاعة المعدة للاستقبال وتسمى قاعة الذهب
يدخل اليها من باب يسمى باب الذهب (حمت المارستان المصوري في
الحساس) جلس على سرير من الذهب في صدر القاعة ذكر وان ورنه
الوف من المتاقيل وحوله سر محلى بالطرار الذهب المرصع بالخواهر فيه
خمسائة وستون قطعة حوهر على اختلاف الوانه ^(١) وفوق السرير سمسية
من ذهب وزنها ثلاثون الف مثقال واكثر حدران العروة معطاة بستور
الديباح المراكس . حتى ان الماطر اليها يحسب نفسه في حلم ولا سيما متى
نظر الى ما فوق عمامة العاصد من الخواهر الملائكة

وبعد جلوس الخليفة على سريريه دخل الوزير صلاح الدين لخاس
في مرتبة خاصة به . ولم يؤذن في الدخول يومئذ لاحد من رجال الدولة
واما حملت الخلسة خاصة باكرام بحم الدين . فامر صاحب الباب باسمعباله
وادحاله عليه ودخل بحم الدين وكان بهى الطاعة عظيم الهية فوقع من
نفس العاضد موقعاً عظيماً فانشار اليه بالجلوس ورحب به فقعده بحم الدين
باحترام . وكانت العادة اذا دخل الوزير على الخليفة الفاطمي قبل يد
الخليفة ورحله ولم يعمل صلاح الدين ذلك ولا جعل والده يفعله ولم
يستغربه الخليفة

وكان في جملة الحضور في تلك القاعة كهل ربعة دقيق العصل متمتع
اللون قاعد في محاس اقارب الخليفة فعود من يريد الاستتار ويود ان لا
يتنبه له احد لكن صلاح الدين لمح فعلم من محاسه انه من بعض الامراء
ولم يكن رآه من قبل

ولما استقر بالخلوس المقام بدأ العاضد بالكلام وهو يومئذ شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره مع انه تولى الخلافة مدة عشر سنين (سنة ٥٥٦ هـ) لأنه كان عند مبايعته في الحادية عشرة من عمره والذي يراه الآن يحسه في حدود الأربعين لكثرة ما كادته من الهموم وتحمله من الاحس. وكان لا يقع نظره على صلاح الدين الا ندم على استعجاده نور الدين رسلكى صاحب السام

الفصل الرابع

المداحاة

ولما جلس القوم وحده الخليفة كلامه الى محم الدين قائلا « عسى ان لا يكون القائد نجم الدين قد تعب في أثناء الطريق »
قال « كلا يا سيدي ان سمري كان في عاية الراحة ولا سيما لا ياتوقع التشرّف بلفيا الامام اعزّه الله .. »

فانتمس الخليفة انتسامة اعتصامية وقال « أهلا وسهلا لكم قد برلتم على الرحب والسعة . وقد امرت رمام القصر أن يعد لتمامكم مطرة اللؤلؤة وهي احمل قصورا بل احد منبرهات الدنيا فعسى أن تحذوا فيها راحة »

فتأدب محم الدين في محاسنه وابدى الاحترام واتى على الخليفة ثناء كثيرا فقال صلاح الدين « ان تنازل مولانا الامام بالروح للقاء والذي نعمة لا اساهاله ونحن حتما كما فاسا ندعوله بطول الماء »

حك الخليفة عسونه سبانه وتناول قضيب الخلافة عن الوسادة الى حاسه (وهو قصير معسى بالذهب) وحمل يتلاهى بالطر اليه . ثم سعل والتمت الى نجم الدين وقال « كيف فارقت صديقنا الانابك نور الدين ؟ »

فاحاب وهو يتلطف ويتحمل « فارقت في حير وقد حماي سلاماً
كثيراً ومودة لمولانا العاصد حفظه الله وهو يدعو بطول نائه ودوام
سلامته »

قال « ابي مسرور من صداقته وارجو دوامها »
قال « ان ذلك سرف عظيم له وقد كلمني ان ابغ المولى اعز الله انه
هو ورجاله في خدمته ... امصرة الحق »
فوقع هذا الكلام موقعاً مؤثماً من نفس العاصد لانه ذكره بالسبب
الذي حرره الى هذه المتاعب فانها تبدأ من استنصاره نور الدين .. لكه
تخلد وكظم والتفت الى نجم الدين وقال « لقد نصرنا غير مرة حراه الله
حيراً .. وقد كفيما الآن مؤونة الاستنصار بوحود ولدكم الملك الماصر .. »
وأشار الى صلاح الدين

فقال نجم الدين « ان ولدنا من مواليسكم ناسيدي ولا يدخر وسعاً في
خدمتكم والآخذ بناصركم »

فمد العاصد يده الى عمقه استخرج عقداً من الجوهر يشبه العقد الذي
حول عنق صلاح الدين وقدمه الى نجم الدين وهو يتسم وقال « هذه
هدية ما تذكر بها هذه الريارة ايها المائد الماسل . وقد استحققت
عندنا ان ندعوك « الملك الافضل » وستحمل اليك الاطاف والهدايا الى
قصر اللؤلؤة . ونوليك الاقطاعات السبعة فانك اهل لاكثر من
ذلك .. » (١)

فوقف نجم الدين وتناول العقد وهو يتمل يد الخليفة . ثم قبل العقد
ووضعه في عمقه وهو يقول « لقد عمرتني يا مولاي نعم لا استحقها . ان
اللقب الذي خلعتني على فوق قدرتي و... »

فقطع الخليفة كلامه قائلاً « بل انت الملك الافضل كما ان نجلك الملك
الناصر » فكرر نجم الدين سكره وحلس مأسداً

ولاحظ من صلاح الدين التفاتة الى السكهل المتقدم ذكره فرأى في
وجهه اهتماماً وقد ابروت عيابه وكادت تدقن من التكسير فسله امره لحظة
فادرك الخليفة اسعاله بذلك واراد تحوبل الاذهان عن هديته فوجه
خطابه الى صلاح الدين وقال وهو يسير بده الى ذلك الحلس « اظنك
لا نعرف السريف انا الحلس . انه من اعماما كان في سفر وقد حاءنا من
عهد قريب » والتفت الى ابي الحلس وقال « لأطنك تحماح الى التعريف
بوريرنا الماسل الى المطفر صلاح الدين »

فاسار ابو الحلس بعينه ورأسه وكففيه انه ساكر لهذا التعريف والحي
كانه يهم بالقيام . فقال صلاح الدين « سررت كسراً معرفه هذا السريف
ويكفي انه متصل النسب بممام الخلافة »

وكان نجم الدين في أثناء ذلك يطر الى ابي الحسن بطر المتفرس ولم
يعحه ما في سحته من الدهاء وما في عينه من المكر . لكنه تحاهل
وتوجه بكايته الى الخليفة نمدي سكره على هـ التعريف

ثم وضع العاصد قصيب الخلافة من يده على الوسادة فهم القوم انه
قد آن الدهاب واستأذن نجم الدين بالانصراف وهم بوداع الخليفة . ثم تقدم
صلاح الدين وودع الخليفة وأظهر انه يهم بتقيل يده . فاحتدب الخليفة
بده تلطمأ

حرح نجم الدين وانه من محاس الخليفة ورحالهما ينتظروهما خارج
القصر بالافراس والسلاح وفيهم الساب عماد الدين الذي كان راكناً بجانب
صلاح الدين في الموك . وكان صلاح الدين يختصه بالامام لما يراه
فيه من المروءة والبسالة . وهو ساب في مقبل العمر قلما يفارق ركاب

صلاح الدين الا لامر هام . ولم يكن يراه أحد الا أحبه لجماله وبسالته مع ذكاء وفصاحة . فلما صار صلاح الدين خارجاً صاح « اس عماد الدين ؟ » فتقدم الساب وعياه تشكيمان فل اسانه وقد لئس بونا من اتواب الحرس الخاص لصلاح الدين وهو السراويل القصيرة وحول الحصر بمطقة من حلد فيها عروه مذهبة وفوفها دراعة مطررة بالمصص وعلى رأسه عمامة صغيرة كالطاقية ممر كسة بالمصص . وقد على بمطقمه سيمكاً قصيراً وغرس فيها خنجرأ فلما وقف بين يدي صلاح الدين قال له « هلم ننا الى مططرة اللؤلؤة وقد أمر الخليفة أن يبرل والدى همالك وانا ابرل معه الآن »

فاهتم عماد الدين بارتداد الرك الى المسكن وركبوا جميعاً الى المططرة المسار اليها وكانت على خليج القاهرة . ففطعوا الميدان بس القصرين ومروا بحاب القصر العربى الى الستان السكاوودى احد متهرات القاهرة واتبوا منه الى المططره على صفة الخليج النيمى اى من جهة قصور الخلفاء المتقدم ذكرها . وهي تسرف على الخليج من العرب ووراء الخليج غرباً بركة كان يقال لها بطن البقرة ووراءها ارض الطمالة وستان المقسي (المحاله وباب السعريه وما يليهما الآن) ووراءها بركة الاربكية الى مجرى النيل

الفصل الخامس

•منظرة اللؤلؤة

وكانت المطرة المذكورة من اجمل منتهات القاهرة لها حديقة تنصل بالخليج فيها الاسحار والرياحين والارهار . وفيها الماعات والمقصورات في اجمل ما يكون من المرش الثمين سبه ما كان للحلفاء في قصورهم من ستائر الديباح المطرر بالذهب والنسط المحوكة بالذهب وسائر الالية من العاج وحشب الصبدل وفيها الارائك والوسائد . وقد مسرح في البستان مئات من الطيور الداحمة على اختلاف انواعها والحنها بعضها في الافاص والبعض الآخر مطلق . وعلى ضفة الخليج محالس من الخشب كالسرفات قد فرست بالسجاد عليها المساند المرركسه وفوقها مطلاب من الحشب تعرض على السمات وكل ما في المنظرة ثمين يستوفى النظر وباهيك نأها كانت منتهأ للحلفاء الماطمين في ابان دولتهم

وصل نجم الدين وابنه ومن في ركابهما من الحاشية فتلقاهم علما المنطرة بالاطياب والمحور فدخلوا الى قاعة كبيرة للاستراحة ومعهم بعض الحاشية من رحالهم جلسوا ساعه لم يدرو فيها من الحديث غير العام المتعلق بالاسفار وما قد يراه المسافر في طريقه من التعب والراحة وتحلل الحديث طبعاً ذكر الافرنج (الصليبيين) الذين كانوا يومئذ اصحاب السيادة في نواحي سوريا وفلسطين وكثير من مدنها

ثم مالت الشمس الى المعب وقد اعدت مائدة العشاء فتناولوه معهما طائفة من الحاشية وفيهم سمس الدين . فلما فرغوا من الطعام انصرف الحاشية كل منهم الى فراشه في المطرة وتركوا نجم الدين وابنه على حده

لعلمهم ان نجم الدين لم يأت مصر الا لامر هام يريد ان يسره الى صلاح الدين

اختلى نجم الدين بابيه في عرفة انيرت بالسموع الصخمة وفيها ما تورن السمعة منه عدة ابطال وقد رأى نجم الدين في قصور القاهرة ما لم ير مثله في دمسق السام . وما صدق انه حلا بصلاح الدين فادكاً على وسادة وانتار اليه ان ينفذ بن يديه وقد تحمفا بالاس الرقاد . وفي يد نجم الدين انبوبة حرص عليها مدد بدل ثبانه

ولما قعدا قال نجم الدين « سرني يا يوسف ما رأيته من منارمك عند هذا الرجل ولكسي رأيك لا تحترمه كثيراً وهو يرى نفسه حليقه ومالكاً » فصحك صلاح الدين وقال « هل بكيفي ما انى ان يرى نفسه كذلك » ونحن نعلم انه اسيرنا .. وصنيعتنا .. »

فقطع نجم الدين كلامه قائلاً « نعم ولكن الامر لم يتم لما بعد فلا صرر من المخاملة ومراعات المعادات الحاربه .. على انى أراك من الحيه الاخرى تحادر عصب رحاله وابصاره رغم ما يأتيك من لدن نورالدين في أمر السعة والدعوة للخليفة العباسي »

قال « وكيف ذلك يا ابتي »

قال « الم نكتب اليكم مدد عام ان تدعو الخليفة العباسي على مبار القاهرة ولماذا هذا التأخير ؟ »

فاطرق صلاح الدين لحظة وقد طر الاهتمام في محامه .. ثم دفع بصره الى ابيه وقال « تدعوني الى المخاملة ثم تعاتني على تأخير الدعوة . وايسب تلك الدعوة الا اعلان العباسيين على مصر وسقوط دولة المائمين . ولا يخفى عليك ما يكون من تأثير ذلك في نفس هذا الحليقه المنسك . وما انذى يهمننا من مصر غير ان يكون لما الكامة الماهة والصوب المسموع

والربيع المطلوب؟ ولنترك هذا الخليفة الساب يفرح بالقباب الخلفاء ومجاملاتهم حتى نرى ما يأتي به القدر . . ان اعلان سيادتنا على مصر امر ميسور متى شئنا . . وعهدي بك انك تحب التؤدة »

قال « نعم يا نبي ولكن نور الدين يلح في ذلك وقد وعد الخليفة العباسي المستنجد بالله ان يدعوله على مبارم مصر . فلما تأخرت الدعوة بعث الخليفة اليه يستبطنه فكتب نور الدين اليك كتاباً يستحثك فيه على ذلك . وقد اوودني لتبليغك هذه الرسالة وهذا هو كتابه » ودفع اليه الانوبة

فتناولها صلاح الدين واستخرج منها لفافة قرأها واكثر من الامعان في خواها ولا سيما قوله بعد التحريض على اعلان الدعوة « وهذا امر تحب المبادرة اليه لتحظى بهذه المصيلة الخلية والمقبلة البيلة قبل هجوم الموت وحضور الموت . لا سيما وامام الوقت مطلع الى ذلك بكايته وهو عنده من اهم اميته »

واطال صلاح الدين الطري ذلك الكتاب وابوه يراقب ما يبدو في وجهه من التعبير وقد ادرك ما في خاطره فقال « ما بالاك يا يوسف . . ما الذي تحدثك نفسك به ؟ »

قال « تحدثني نفسي بامر لا تحمله يا سيدي »

قال « لا بد من اعلان الدعوة العباسية . . هل ذلك صعب عليك؟ »

قال « كلا . . ولكنني اراك تتجاهل امراً آخر اضمره »

قال « مهمت مرادك انك تفكر في امر نور الدين . . وهل اذا اعلمت الدعوة في المساحد لاهباسيين تكون مصر ملحقة بالسام تابعة لمور الدين ام . . ؟ »

فابترقت أسيرة صلاح الدين ولمعت عيناها وأتم كلام أبيه قائلاً « ام
لصلاح الدين وحده ؟ »

فابتسم أبوه وقال « انك تتعجل أمراً لا بد من التأكد فيه إنما بهما
الآن الدعوة »

قال « اما الدعوة فسننظر في أمرها ولكم لم توضح لي رأيك من
الوجه الآخر »
قال « وما هو ؟ »

قال « أنت تعلمه ولكنك تريد أن تسمعه من فمي فاسمع اني قد
دبرت أمر مصر وضبطت شؤونها لسمي ونديري وسيف عي من قبلي .
ونور الدين قاعد في قصره بدمشق ومملكته واسعة وممالكه كثيرة . فهل
من العدل أن نكرن مصر له أيضاً ونمنح نفس من خدمه أو فواده ، ما الذي
يتمار به نور الدين عما ألهه الباعا بهاله ، نحن اسما ممالكه . انما أراد . .
وهذه مصر يستحيل عليه احصاؤها بدوني . فانا لا اباع لأخيه العباسي
الا على أن اكون اما صاحب مصر وليس نور الدين . . »

وما أتم كلامه حتى ان العصب في حنفيه مع الاهتمام وتمرس في وجه
أبيه ليرى رأيه في ذلك فانتم بحم الدين وقال « نورك فيك يا يوسف انك
تطلب السيادة . وأب أهلها . ولكن لكل أهل كمال »
قال « أحب أن اعلم رأيك . ألا ترى لي حقاً في ما أقول »

فضحك نور الدين ضحك استهزاء وعب ما حوته بفسطاطها اصابعه ثم
قال « ان الحق يا بني لا يوه — تلك هي قاعدة اصحاب السلاسة . والا
لوحب عاليا أن يخرج من هذا البلد ويتركه لاهله لان مملكته انما استحدث
نور الدين ليصره على رجل من خاصه تمرد عليه فانخذله بعدك أسد الدين
وانت معه . وكان ينبغي ان نخرجها من مصر بعد الفراع من تلك المهمة

وقض ما تستحقه من الاجر على نصركم . فبقاؤك ههنا سواء كان باسم نور الدين أو باسمك حسع . وإنما تعده حمماً اذا كنت قادراً على تفيذه فالحق هو القوة يا بني — تلك هي سرية الفاتحين »

وكانت حممه بحم الدين قوية الى درجة لم يقوَ معها صلاح الدين على المدافعة وكاد يفحم . لكنه طامع في المد ويريد ان يتدبر نايه وسيلة كانت ليل مراره . فنهض وهو يتشاعل باصلاح عمامه الصغيره ثم أحد في قتل شاريه وهو يطر الى احد حدران العرفه التي هم فيها وينأمل صوراً ملونة مرسومة ههنا لم يشاهدها من قبل . وبحجاب كل صورة رف لطيف مذهب . فتقدم نحو الحدار وتفرس في الصور فرأى تحت كل صورة اسم صاحبها . واداهم من سعراء الدولة الفاطمية الذين كانوا يقدون على الخلفاء في ايام محدهم . وتذكر حديثاً سمعه عن الخليفة الآمر باحكام الله الفاطمي انه لما بنى منظرة بركة الحسن صور السعراء على حدرانها كل ساعر وبلده ونظم كل واحد منهم بومئذ قطعة من الشعر في المدح نفتوها عند رأسه في الصورة . وبحجاب صورهم رف مذهب . ولما دخل الآمر وقرأ الاسعار أمر ان يصنع على كل رف صره محتومة فيها حسون ديباراً وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده^(١)

وقف صلاح الدين هنيهة عند تلك الصور وهو عارق في الهواحسن . فادرك ابوه ما يحول في خاطره فسك ليرى ما يكون منه وتشاعل بالبهوص ايضاً ثم أظهر انه يهيم بالذهاب الى الفرائض وصلاح الدين لا يستطيع رقداً قبل أن يوافيه ابوه على الطلب . فالتفت اليه وقال « تمهل نا انتاه . . ان هذا الخليفة دعانا الى بصرته على الافريج وأهل القاهرة انهم راسلوا نور الدين وندلوا له بلت بلاد مصر اقطاعاً وأن يقيم عمي أسد الدين عندهم

وله الاقطاع هو ورجاله أيضاً — لا أن يمضي مهمته وينصرف كما تقول .
ثم نكت وزيره ساور ولم يف بما وعد فقتلته أنا بيدي فصمما لما الخو . ولو لم
اقتله لم يكن لنور الدين اقطاع ولا .. »

فقطع نجم الدين كلامه وهو يمسي نحوه وقال باهجة النسيح الوفور
« انك تخاصم نور الدين على غنيمة لا نزال في حوزة اصحابها ولا يخفى
التمازع بينكما عليها الا بعد اخراجها من قبضتهم . وهذا لا يكون الا بقتل
الدعوة من العاطمين الى العاسيين ثم نرى بعد ذلك . وهذا يكفي
الآن ... »

وكان لحم الدين يعود على انه مثل يعود السحر فاكتمى صلاح الدين
بما سمعه وتحول وهو يقول « اطلبك في حاجة الى الرقاد يا اتى » وأمر الخدم
ان يهيئوا المراس وذهب كل الى ممامه

الفصل السادس

العاصد وابو الحسن

اما الخليفة العاصد فقد تركاه في قاعة الذهب بعد خروج نجم الدين
وابيه ولم يبق معه الا ابو الحسن فلما خرج الكرديان أمر الخاحب أن
يأتي بصاحب اللباس ليبرع عنه ثيابه وحلاه لانه في حاجة الى الراحة وأن
لا يأذن لاحد في الدخول . فان صاحب اللباس واستعمل في رقع العامة
وما عليها من الخواهر ووضع كل قطعة في علمه خاصة بها . وحاجب الوصاف
يخمان التوب الا حر لباسه الخليفة وقد تغيرت سمعته وانصب اسره
واحرث عيابه وسعر بعد طقطقت له أسمايه واصطكت ركبتاه حتى لم يعد
يستطيع الوقوف . فبادر ابو الحسن اليه فاسده والع في التمهيف عنه .

ولكنه حالما لمس يده أحس بجزارتها فعلم أن الخليفة مصاب بالحمى اكسه لم يشأ أن يحرقه

ولما فرغ الخليفة من تبديل النياب الى نفسه على السرير وقد أحس بالمحاطط عرائمه فقال له ابو الحسن « بماذا بشعر مولاي أمير المؤمنين ؟ » قال « أشعر بارتعاد معاصلي وبرد يمسى في طهري . . لا أطمه الا من عواقب الكظم ونحمل الصيم . . آه يا ابا الحسن . » قال ذلك بصوت محتق وتلاً لأل الدمع في عينيه

فبادر ابو الحسن الى الهويس عليه عنه فقال « اكل احل كتاب يا مولاي ولا بد من روال هذه الارمة »

فقال وهو ياب من شدة الحمى « شعرت بهذه القسعية منذ ركنت في هذا الموكب للملافة هذا الكردي . آه كف اقوى على احتمالهم وقد سلبوني ما في بدي سيادة وثروة ؟ وأنا مع ذلك لا اقدر الا ان احملهم والاطعمهم وارحب بهم »

وسط ابو الحسن لحيته أنامله ثم قص عليها وهو يتم كانه يدعواو يصلى ويظهر التهمى وسعة الصدر وقال « لا بد من الصبر يا مولاي ولا شك ان الله سامع دعائنا . فاي اصلى ليل ونهار واطلب اليه تعالى ان يصفك من هؤلاء الظالمين . . »

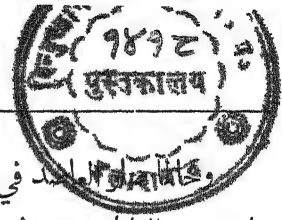
فقال « الى متى الصبر يا ابا الحسن . كالك لم تعلم بما فعلوه معي . . ولم تسمع الا محاملتهم لى بالكلام ومحاطتى بالامارة . . انهم لم يتركوا لي من هذه الامارة الا لفظها . ان يوسف صلاح الدين هذا قد مع المؤدبين الاذان « حى على حير العدل » كما كانوا يفعلون في دولتنا وعزل فصاة مصر لانهم من شيعتنا وول قصاة شافعه^(١) على ١٠ هـه — رفض

على مرافق البلاد بيد من حديد وتقول لى اصبر ا ابن الصبر ؟
قال ذاك وعص بربقه

وكان ابو الحسن صفراوي المراج لمقاويه لا يبدو في سحته من
التأثرات مهما بلغ من تأثيرها في قلبه . أو اعل فابه لا يتأثر الا بما ر بده .
او هو قادر على التطاهر بما يساء من غضب او فرح أو حزن . بعير أن يكون
ذلك ناتجاً عن تأثر قلبى . فلما سمع قول الخليفة تتحج واطهر الالهام وقال
« لا ارال اقول لك اصبر . اتكل على فاني بادل بمسي في سبل هذا
الامر وهو يهمني كما يهمني . أليست الدولة دولة السبعة سمعة وفي حياتها
حياتها وفي موتها موتاً لا سمح الله . من ان فاعل ما تريد ولولا خبري
من التثقل عليك لد كرت لك المفاصل . ولكيك الآن في حاحه الى
الراحة فامض الى فراشك اذا سئت . وسأفص الخبر على السر ما الملس
وهو يقصه على مولاي ؟ »

فقال وهو يامل من المسعرة والسحوبه « افعل . انا داهب الى
دار النساء » قال ذاك ونهض فاعانه ابو الحسن على اليمام واتى بعض
الحصيان تعاونوا على حماه على محمه في دمار يؤدي الى دار النساء فودعه
ابو الحسن وقال « انا داهب بامرك الى الشريف الخليس أقص عليه ما
يسرك ثم يلحق هو بك الى دار النساء
فاشار الخليفه برأسه ان افعل

وكانت دار النساء مقراً قائماً بنفسه لكسبه . سطرقت الى دونه الالاهب
بدهليز مسقوف لا يعل الخليفه اليه من شاة . والمصر باب خاص عليه
الحرس من الحصيان وكان رتاسهم من عهد غير بعد حصياً يسمى مؤمن
الخلافه فأتى عملاً اغضب صلاح الدين وقتله وحوام مكانه الخليفه
الدين قراقوس احد احواله الخلفين



وكانت السيدة الملك في تلك الدار انزلوه من المحفة فمضى وهو ينوكاً على بعض الغلمان وهم يظفونه يطلب الذهاب الى حجرة إحدى نسائه . فاذا هو يسير اليهم أن يأخذوه الى حجرة اخته سيدة الملك . وكانت امرأة عاقلة حارمة يرتاح العاضد لحديثها ويستأنس بأرائها . كانه وهو في تلك الحال احس بحاجة الى رأيها

الفصل السابع

سيدة الملك

فساروا به في رواق يؤدي الى عرقها وهي مفردة عن سائر عرف القصر ولما بلغ السيدة قدومه حرجب لاستقباله ورحمت به واعانته على الدحول الى عرقها فجلس على مقعد وهي تقول له « ما بال أحي امير المؤمنين مم يسكو؟ روجي فداه »

قال « اشكو من برد وقسعر يره .. اصري الخدم .. فاني احب السكية وأن لا ببق في هذه العرفة غيرنا »

ففعلت . وكانت سيدة الملك جميله الخلقه طويلة القامة صبوحة الوجه ذهية السعر حذانة الطر اذا نظرت في وجهها شعرت بهيمة تجلي في عيناها . وهي اكبر من أحيها الخليفة ببضع سنين أي انها في الخامسة والعشرين من العمر

لما حاب به جالس بجانبه على السرير وطوق عمه بيدها وهي تقول « ما بال أحي؟ مم يسكو؟ حماه الله من كل أدى . اذا اعلم أهير المؤمنين اعتلّ الداس جميعاً »

فاسد رأسه الى كتفها وتنفس الصعداء وهو يقول « أسكو حسب

الظاهر من حمى تتباني .. لكن العلة الحقيقية في هذا الباب .. وأسار
الى صدره . ثم أرخى يده من سدة الحمى خسها فرأى أنها شديدة الحرارة
وقالت « هل ادعوك الطبيب ؟ »

قال « كلا . . ان هذه الحمى ستصرف البلاء . ولكن اذا كنت
تعرفين طبيباً يمدني من أولئك الاكراد ادعيه »
فاظهرت انها تمارحه وقالت « لو عرفت طبيباً في الهدى وعلمت انه
يستفيك لذهبت اليه نفسي ولكن .. »

ورفع رأسه عن كتفها ليعاينها نظره . فوفعت عمامته قد بدت لتناولها
فتناولتها هي ووضعها على رأسه فقال « انك تتحاهاس باسيدة الملك . .
انك اوطن من ان تبتهى الى مرادى بالطبيب »

فصحكت وقالت هب اني مهم . رادك فانا لا أرى الامر يستوجب
الاهتمام الى هذا الحد .. اصبر لا بد من الفرح . .
فتهد وهو ملق رأسه على كتفها وحول عييه نحو وجهها ورأى وقال
« لم أجد بين رحالي من يسعني في هذا الامر الا ابن عمنا انا الحسن فانه
تقبي غيور . وقد اكذ لي انه بادل جهده في هذا السبيل »

فلما سمعت اسم ابي الحسن احتملت وكادت البعثة تطهر في وجهها فو لم
سادر الى التحلد ولو اذنه العاضد وهو مستأن على صدرها اسعر بسايرع
صر باب فامها حالمها سمعت ذلك الاسم لكفه كال في شاغل من أمر
« . . أما بقي وجلد وقال . « كذا أكد لك . . لا »

قال أكد لي اليوم وقد كرتت يله لا لسيف الخيل وسهر نفس
عليها ذلك منى جاء بعد قليل .. »

نالت « نقل نصيبه الى الحل . . ورا . . كذا في عيها

قال « كيف لا أصدقك . انه رجل محب محصل ومن دوي قرابتنا وأنت تعلمين غيرته على دولتنا »

مهرت رأسها وسكنت واسان حالها يقول « انه مافى مرأى »
فاعمد العاصد في محاسنه لان الحمى احدث في الهبوط واسدت عرائمه
وفبص على يد اخته وهو يقول « أرى الحمى تحف وطائها عي أليس
كذلك ؟ . أنت يا سيدة الملك سيئه الطن في هذا الرجل مد عرفاه لغير
سب أو دليل . . فانه من ابناء عمما . . نعم انه نيس من أحفاد الخافظ
لدبن الله حدبا . ولكمه من أحفاد الآمر باحكام الله فهو من اعمامنا . . »
قالت « طيب . فايكن ما سئت » وساعلت طرف صفرتها الذهبية
مفتها من اناولها وبان العصر في وجهها

فقال « وما الذى يعصك من ذكره ؟ انك تكرهيه بلا سب وهو
بعكس ذلك لم اسمع منه الا التعلو بك . . انه يتفانى في سابل
ارصائك »

فطرب اليه سرراً بطار العاتب وقال « كثر الله حيره . انى لا التمس
هذا الرصى »

قال « لا حاجة بنا الى التمسك بالرفض وهو ابن عمما »
فقال بصوت المرتاب « ومن تؤكد لما صدق انتسابه الى الآمر .
ليس عنده دليل خير سهادته لنفسه . . دعاه به انه لا يسحق هذا
الاهتمام »

قال « انك نظائمه بهذا الحكم » واراد ان ييم كلاهه فادا باحد
الغلمان دخل ووقف فمام سيدة الملك انه آت بجر فقات « ما وراءك »
قال « ان السريف الحليس مات العصر بطال المشول بين يدي

مولانا أمير المؤمنين — والطواشي بهاء الدين فراوتش يمنعه «
فالتفت إلى الخليفة وسأله إذا كان يسع براحته تؤهله لمجالسته الشريف
فقال « أنى اسع براحته فلبأت »

فالتفت إلى العلام وقالت « امض إلى الطواشي وقل له أن أمير المؤمنين
هما يريد أن يرى الشريف الخليل فلا يمنعه من الدخول »
فصلى العلام . واحست سيده الملك بأسياء أخيها من معاملة بهاء الدين
ولكنها تجاهلت . وبعد قليل جاء الخليل وهو مسبح طاعن في السن
يخالس الخليفة وبؤاسه ويحديه وهو مسودع السرار

فما رآه الخليفة هس له وأمره بالخلس من يديه . ولم تحس سعادته
الملك عه لانه من الأمر من وقد يعود به من صعرها فأكدت معطية
سعرها والاتفاف بمطرف من الحر فوق أثوابها وحاس على كرسي لخائب
سرير أحيا

أما الخليفة فنظر إلى الخليل بنظر الاستهزام سما حاء به فادرك عرصه
فقال « حث السؤال عن صحة مولاي . . . فقد باعى من الشريف إلى الخلس
أنك أصاب بحمى . لا أصابك الله بسوء وارواحاً فداك »

فانتسم وقد استلطف عبارة الخليل وقال « انى دعائك وحسن
نيتك ود رال عي كل نأس حسن بدي . . . قد دهمت الحمى . . . ما الادي
حتماً به عبر ذلك ؟ »

فحس يده واسار هنيهة اسارة الاقتياع وان لم يسع لأن الجنى لا نزال
وقال « نحمد الله على ذلك »

فقال الخليفة « فلى بالادي حمياً . . »

قال « حبراً ان شاء الله » وطير في المصحح وحمه انه آكبه سيداً
لا بسحس ذكره من يادي سيده الملك

فادركت ذلك وهضت وقالت « اذا كان وعودي يمنع الحليس من الكلام فاني خارجة »

فامسك اخوها بتوبها وقال « احلى . . لست ممن يكتم عنهم . .
تكلّم يا عماء قل ما الذي حثت به ؟ »

قل « ابي حثت بامر دى نال . . هل تأذن ان افول كل شيء ؟ »
قال « قل . . لا تحف ما الذي اطعك عليه او الحسن من مساعيه
في سبيل مصلحتنا ؟ انه محب غيور ؟ »

قال « اصبت يا سدى ان انا الحسن سديد العيرة على منصب امير
المؤمنين وهو ساع في انتقادنا من هذا العدو المقيم »
قال الخليفة « سمعته يقول ذلك اكبه وعد بنصليته . فهل فصله
لك ؟ »

وال « فصله نصيلاً اعجنني »
فتوحه الخليفة نحو الحليس باهمة وقال « وما هو ؟ »

الفصل الثامن

الحشاشون

قال الحليس وهو يخفص صوته ويتناول بعمه كانه يحادر ان يسمعه
احد « يرى ابو الحسن يا مولاي ان العقدة الي يطلب حانها اما هي يوسف
صلاح الدين هذا . فاذا ذهب تخلصنا من كل هذه السرور . . وابو الحسن
يسعى في انتقادنا منه »

فقال العاصد « وكيف يعضنا ؟ »
واسار الحليس ركه على عنقه اساره الدبح يعنى انه يقتله . فبان

الاستغراب في وجه الخليفة وقال « من يقتله / ليس في مصر كلها من
يجسر ان يمد يده اليه »

قال « لبست هذه خطاه . . انه سيقبل هذا الرجل بدون ان يعرف
القاتل »

قال « وكف يمكن ذلك / »

قال « ألا يعرف مولاي جماعة الماطية او الاماسية ؟ »

فاحل العاصد عند سماع ذلك الاسم وقال « نعم اسمع بهم . واسمع
انهم من انصارنا »

قال « اصابهم من سمعنا ولا سمعهم الآن يوم سعادهم القتل
تقطع الخليفة كلامه وقال « ليس هذا شأنهم اليوم فقط . الملك
حدثني عن افعالهم غير مرة . ألم تقل لي انهم قتلوا الملك الاصلح امير
الحوس ودير الآمر باحكام الله وكان رئيسهم يومئذ من مرام . وهم
قتلوا نظام الملك وورث ملك ساه الساحوق وقتلوا غيره »

قال « نعم ناسيدي وقتلوا كثيرين غيرهم -- هذا هو سعادهم »

فقال العاصد « من هو رعيمهم الآن / واين هم / »

قال « ان اصابهم ناسيدي من اتباع الحسن بن الصباح في زمن
حدك الحاكم نامر الله دحه الله اي مبد أكثر من مئة وخمسة سمة

فاهام حسن هذا في ملعة الامور قرب مروين . وابت جمعه من الملائكة
الذين لا يحامون الموت . ويعرفون السيرة او الحسنة . اسمه الى سما
محدث يتناولوا سموم الحسنة . ووالى سادهم رعا كبرون في بلاد
نارس والعراف والسام . ورعيهم الآن يقال ان راسد الذين ساه نقيه في
الاناف من اعمال حار . وهذه هال بالادار . ان حال محزون
طيمونه حتى الموت اذا لم يجد . يتل ملك او بالان . الى اعلاه

حالاً . وقد قتلوا كثيرين كما ذكرت . وللتبريد الى الحسن صداقة شخصية مع سان هذا بالطر الى نسبه السريف وله علمه داله فاذا امره ان يعب رحلاً يقتل هذا الرجل فعل . . »

فبان السر في عبي العاضد يحالطه الاستغراب وقال « وكيف يستطيع القتال ان يحو من هذا المعسكر . وكيف يتصل الى عمله ودون الوصول اليه . . . »

قال « ان هؤلاء الغدائس يتذكرون سادة بالنسة السياس او الخدم ويحلمطون بالخدم رماً يتربقون المرض فاذا سمحت فرصه فعلوا فعلهم ثم لا يهمهم ماذا يصيدهم بعد ذلك ولا يبالون بالموت لانهم يرون القتل في هذا السمل حياه سعيدة »

فالتفت الخليفة الى اخيه يلتمس مساركتها اياه في الاعجاب وراها مطرفة تفكر فقال لها « أرايب اهتمام هذا السريف في مصلحتنا ؟ »

وطاب سا كتة ولم تحب

فالتفت الى الخليل وقال « هل اجبرك حتى يماسر هذا العمل ؟ »

فتشاعل الشيخ بحك عسوه وسعل وتصح وان الارتباك في عيابه فلم ياتيه الخليفة له . اما سيدة الملك فلم يفتها ما يطوى تحت تلك الحركات فاحدت تحتلس المطر وتصيح سمعها فاذا هو يقول « انه يا مولاي يشترط على هذا العمل سرطاً واحداً »

قال « وما هو ، اطمه يعني الروح باحتي . . »

واحتلف سيدة الملك عند هذا التصريح المحتائ لاسكها حوات وحها الى ستارة وعاقه بالخائط مطرره بألوان ديدعة فيها صور الطيور والاشجار تأحد بالابصار وأطهرت انها تنفوس في بعض صورها

اما الخليل فقال « لم يدكر ذلك لي ولكن . . . مولاي يعلم . . »

ان ابا الحسن عريق في النسب السريفي . . وهو . . اكبر ابناء عمكم
المترشحين لولاية العهد سماً . . وو . . . »

فلحظت سيدة الملك عرضه فبادرت الى الانتقام من تأثر سارة اخيها
عن زواجها فقالت « أظنه يسترط أن يكون ولياً للعهد بعد أمير المؤمنين »
فاحاب السريفي بسرعة كانه بعدد عن تناول ابي الحسن قائلاً
« ان ظلمه هذا من قبيل الخون . . ولا معنى له لان مولانا أمير المؤمنين
أطال الله نفاذه وعجل موته قبل ان يصاب بسوء لا يرال سائناً في مفضل العمر
وابو الحسن في حدود الكهولة . ولكيه يسترط ذلك ترصية لنفسه على تحمل
تلك المسفة . . مع ما يحدق بها من الخطر . ومن بدرى هل يبقى حياً يوماً
واحداً بعد تهميد مبعته »

فقال الخليفة « يسترط أن يكون ولي عهد الخلافة بعدى »
قال « أطال الله عمر أمير المؤمنين ان الرجل لا يرحو ان تهلى
الملك ولكيه يجب أن يجمع بولاية العهد فقط على ما يظهر »
فاطرق الخليفة وهو يعمل فكرته والتردد ظاهر في عينه ثم رفع صوته
الى الخليل وقال « وما رأيك »

قال « اذا ادن لي مولاي أرى ان يوليه الولاية ويسترط في عهده ما
ان يكون بعده الى محاسن سمدى الخادم لله الامير داود ولي العهد الحسن
فاما استطلاع اعدائنا من هذا الكدى واعاده العهد الى مولانا أمير المؤمنين
فان يكون هذا استطاع هاتماً لم استطاعه سواه ولكن ولاية العهد ترصيه
معمو به له »

الفصل التاسع

حرية الفكر

ولحطت سيدة الملك ان اخاها أوسك أن يقبل وطهر لها من خلال
حديه انه راص أن يزوحها به وهي لا تقدر أن تتصوره بل هي تكرهه
كرهاً شديداً لغير سبب غير الشعور الذاتي . فانها تصور فيه الحمت والحياة
وهي مصفة لا ترى صلاح الدين يستحق القتل لانه لم يعمل عملاً يستوجب
ذلك وإنما هي بعمره الساده تحمل طلائها على انفعال الاسباب الماطلة —
فمطرت الى احيها وقالت « تريد ان نقتل صلاح الدين واستبدله بأبي الحسن
هذا ؟ »

قال « لا أستبدله .. لكسه اذا استطاع قتله سمييه ولى العهد »

فالب « وماذا تفعل بدادود ابنك ؟ »

قال « يكون ولياً للعهد بعده »

قالت « ولماذا هذا العمل لماذا تريد المحلص من صلاح الدين ؟

وترتك كل هذه الآثام والاحطار في سبيل قتله . ماذا فعل ؟ »

قال « تسأليني عما فعله ؟ كالك لا تعاليمه »

قالت « ربما كنت اعلمه الكمي أحب ان يقول ذلك أمير المؤمنين

من فيه »

قال « انه جعل كل المهود اليه ولم يبق لي من السيادة غير الاسم »

قالت « وهل كان المهود اليك قبله ؟ ألم يكن الورراء هم اصحاب

المهود ؟ وكلهم من الاحاب الارمن أو الاتراك . وهذا كردي وما المرق

بليهم ؟ »

فقال « لكنه استبد وعبر وبدل و . . »

فاحسنت انما فازت علمه بالبرهان فلم تصبر حتى يتم كلامه فقالت « اذا كان قد استبد فانما استبد في رفع المظالم عن الناس . كانت المكس لا تحتل فرفعها أو حرقها . . الأجل ذلك تدس الدسائس سابعه . وكيد المكائيد لعله ان الساعون في ذلك هم طلاب السلطة يحسدون الرجل على مكانته فيسرون عصص أمير المؤمنين عليه . واداناء حتى ان يعرفه بصفه منزله هذا الكردي ليتذكر الطريقة التي استحدثها بها سلطان نور الدين ألم ترسل سعورنا مع كتاب الى نور الدين تقول فيه « هذه سعور نسائي في قصري يستعين بك لتنهذهن من الصليبيين » ؟ فالرجل اى الطاب والحدك ناسد الدين واس أخيه هذا يوسف صلاح الدين . . هل استحدث فائد بطريفة أدل من هذه ؟ ان سعري لا يزال ينقص الملك الحاصل الى قطعها منه . قالت ذلك وجست ضنائرها كلها . تحقق ذلك . ثم رادت الى الحديث فقال « ومع ذلك فقد استرطبا ابو الدين ان تعطيه باب الملاء اقطاعاً غير اقطاع رحاله . وما اذما واندوبا من الاقربح سياحياتهم ومناور يرك ساور بدافعهم ويماطهم ثقلوه . . استبد الله ان صلاح الدين احسن قائماً واشد اخلاصاً لك من تناور هذا . لكنا لم استبد من هذا الحادث فسحعبا الحضي . ومن الخلافة تم جدد الار على ما عصبه صلاح الدين ورجاله حسداً منه ألا تعلم . لاى واحى مادام عمل متمم الخلافة . انتم مع حكامه من المصير على كرامة الصائبة . اتسا معهم على قول صلاح الدين . . وهل فعل ذلك عند علم اولى الدولة ؟ رابع هذه المصالح الا انتم مع معتمد حكام القصر لم تبالا لهم سدد من حسبه والى معهم . . من التما واهضوا رجال صلاح الدين . والى الحشاشين انهم لم يبالوا

يشرف على المقاتلة وهواه مع السودان . فاستدت عزائمهم وخاف صلاح الدين أن تعود العائدة عليه وعلى رجاله فأمر النفاطين أن يرموا قوارير النفط المستعمل على المنظرة وعلى القصر و . . . »

فقطع الخليفة كلامها قائلاً « ولكسي تسحمت رجال صلاح الدين فارسلت رعيم الخلافة يقول « دوسكم والكلاب العبيد أحرحوهم من بلادكم » فامتنعوا عن إرسال البعط »

قالت « ولكم لم تقل ذلك الا خوفاً على المطرة من الحريق » وكانت سيدة الملك تتكلم بحماسة وكل حوارحها تتكلم معها وقد توردت وحتتها وابتقت عياها . فلما وصلت الى ذكرى الحريق امتنع لونها وتغيرت ملامحها كأما فوحش بدكرى محزنة فتوقفت عن الكلام . فاستعرب أحوها تعيرها فحاة والتفت الى الخليلس فرآه يطر إليها أيضاً أما هي فتحدثت وعادت الى الكلام قائلة « ولم يكن كلامك وحده الذي أوقفهم . . . »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « دعنا من هذا الموضوع الآن . . لان في تذكره ما يؤلني ويؤلمك . . وأنت احوح الى الراحة والسكينة » وتناعلت باصلاح نقامها على رأسها

حس العاصد يده وقال « اي في حير ولا بأس بي وقد رالت الحمى والحمد لله قولي ما هو السبب الآخر »

قالت « هل أقول ؟ »

قال « قولي . »

الفصل العاشر

حصوله الشعر

فمدت يدها الى جيبها واستخرجت خصلة من الشعر ذهبية من لون شعرها ودفعتها اليه وهي تقول « هل تعرف هذا الشعر ؟ »
فاجفل وقال « هو شعرك » هذه هي الخصلة التي قطعتها من شعرك وارسلتها في حمله شعور سائى الى صاحب دمسق .. من أين أتاك ؟ وكيف وصلت اليك ؟ »

قالت « وصلتني في ذلك اليوم الذي انصبت فيه الحرب من عبيدنا ورحال صلاح الدين »
قال « وكف ذلك »

قالت « قد ذكرت ان الآن ان صلاح الدين منع رجاله من ارسال فوارير المعط قبل ان يطلق منها سىء على القصر .. قد يكون هذا هو الواقع لكننى اعلم انما ونحس في هذا القصر وقلوبنا ترتجف هلعاً والسهم تتراعى علينا من رجال صلاح الدين رأيت قارورة مشعله وقعت في الدار قرب حجرتي هذه لا أدري من أين أتت ودعرت وسمعت الخدم أن يتلافوا خطرهما فلم يسمعى أحد لاستعمال الرجال رمى النساء بعيداً عني . وأنا في ذلك وأهل القصر كل منهم في شغل من نفسه رأيت رجلاً مسكراً سوب الحصيان قد غطى وجهه باللام وتب من داخل الدار - لا أدري كيف دخلها . فدعرت ولكمى طائفة أسرع الى محدتي فما عتصم ان رأيتة امسك بيدي وحدبني نحوه كانه يريد ان اتبعه فانتثر منه فعداد وامسكنى ثابته وجدبني اليه كانه يريد أن يحماي ويطيبرني ولم يكن في عنده العروة

أحد يراني فصحت واستعشت فلم يسمع صوتي لان الصبضاء كانت قد
ملأت هذا الفضاء ثم جاء رجل آخر اعان الاول على اجتدائي وهما يتيران
اليّ أن اتبعهما حالا وهددني احدهما بخنجر استله من منطقتة فأثر فيّ ذلك
المنظر وخارت فواي . وكذب أغلب على أمري وقد ذهب تقابى وانحل
نسري . وانا في ذلك رأيت شاباً وتب نحوي يطهر من لباسه انه من رجال
صلاح الدين فأيقنت انه سيعين دينك الرحلين عليّ واذا به صاح بهما
صيحة الخبارين وخنجره مسلول في يده وأوتسك أن يقتلها جميعاً فلما رأياه
حافا وتركاني واركننا الى الفرار . وظل هو واقفاً كالاسد وبطر اليّ بلطف
وقال « من هم اولئك الاندال ؟ »

قلت « لا أعلم . ومن أنت وماذا تريد مني ؟ »

فقال « لا تخافي يا سيدتي اني من رجال صلاح الدين المحاصرين
لهذا القصر ورأيت ذيك الرجلين يعدبانك وحالما رأيت شعرك الذهبي
علمت انك من نساء الخليفة فبادرت الى اتقاذك واحمد الله اني قد فرت »
فسألته اذا كان علينا بأس من الاحراى فأكد لي انهم لم يلقوا بقطعة
عليها وانما كان ذلك من بعض اللصوص رموا القط من جهة أخرى لعرض
لهم . ولعلمهم أرادوا ان يتسللوا الياس بالنار ويحتطفوني »

ولما وصلت سيدة الملك الى هذه العارة تعيرت سحتها ووردت
وحتتها وبلغت رينها وهي تاهت من التأثير

وكان الخليفة والحاليس يسمعان كلامها ويراعيان الحاسة التي كانت
تتحلى في مجيهاها ولحطا التعير الذي طرأ عليها عند ذكر ذلك الساب ولم ينتبها
لما تخالج قلبها من حهته . فلما سكنت قال العاضد « من هو هذا الساب
وكيف عرف انك من نساء الخليفة ؟ انه لامر عريب كيف يعرفك

شاب عريب وانت لا تخرجين الا محجوبة ؛ وهذا مع ذلك من رجال
صلاح الدين .. فولي الحق »

قالت وهي تنظر اليه شراً « انك تنهني يا امير المؤمنين ولا مكان
للريب . قد سألت هذا الساب كيف عرفني فمد يده الى حبيبه واستخرج
هذه الخصلة ودفعها اليّ وقال . أليست هذه من شعرك » وادناها من سعر
رأسي فادا هما بلون واحد »

فاندرها الخليفة قائلاً « مس شعرك بيده »

قالت « لم يمسه ولكنه ادناها من شعري انه ساب عمر منهم وانا
مدينة له بحياتي وسري ولولاه لذهب فرسة ديك الحائنين .. » وحرقت
اسانها

قال « ألم تعرفي من هما ؟ »

قالت « لم أعرفهما يقيناً ولكنني استهنت بواحد منهما »

قال « من هو ؟ . قولي »

قالت « لا أقول .. لاني اخاف ان يخطيء طي فأورث الادي
لرحل برى . ولولا ذلك لاطلعتك على هذا الحادث من ذلك اليوم
وقد مضى عليه الآن اكثر من سنة ولم أدكره لك انما الى السك في
حاطرك »

فصاح العاصد وقد امتقع لونه من شدة العصب « لماد لم تحمري
حتى الآن أيصيبك مثل هذا الامر وتكتمه طول هذه المدة ؛ من
تحاسر على هذا العمل ؟ . من تطس هذا الرجل ؛ مول »

قالت « لا تعصب يا أخي . ابي لم افل ولا افول الآن حموف الواقعة
بالايراء وقد نحوب والحمد لله . والكمي قمررب بحق ذلك السهم الذي
انفذي » وحالما ذكرته ابرق عداها وهه محص احوها صدرها زأى فادها

يخفف حقاً سرياً . لكنه لم يفقه فقال « ألا تعرفين اسم الذي انقذك ..
من هو ؟ »

قالت « لم أسأله عن اسمه وكنت اتوقع ان يأتيك في اليوم التالي
ويقص عليك الواقع فتسكاته فالظاهر انه لم يفعل . وانا لم أتل من رؤيته
أما هو فبعد ان اطأ على وتحقق نحائي من الخطر دفع اليّ هذه الخصلة
وهو يقول « خدي يا سيدتي هذه الخصلة من شعرك .. صيانه لها من أن
يمسها غير مستحقيها . ولم يكن يحذر بالخليفة أن يرسلها وسيلة للاستعانة »
قال ذلك وانصرف مسرعاً سرعة البرق ولم اعد أراه من ذلك الحين

الفصل الحادي عشر

من تهمين

فاصبح صدر الخليفة يعلي من شدة الحب وسي ضعفه في ذلك اليوم
ولم يمالك عن النهوض بسرعة حتى قمض على الخصلة واحتدبها من يدسيدة
الملك وجعل يتهرس فيها ويقابلها سائر الشعرا فاذا هو هي فالتفت الى
الخليل وقال « ماذا ترى يا عماء ؟ . كيف يدخل العرباء قصرى ومعههم
سعود سائي . ولكن آه انا المذنب لاني تسرعت في الاستعانة فارسلت
شعورهن الى صاحب دمتى .. ولكن كيف وصلت هذه الخصلة الى هذا
الكتاب وكيف احتفظ بها حتى عرف صاحبها / لا ادري »

وكان الخليل يسمع ويرى وقد أخذته الدهشة لما رأى عصب
الخليفة وتده تأثره قال « خفف عليك يا سيدي . لكل شيء سبب ولا
يهمنا سبب وصول هذه الخصلة الى ذلك الكردي بقدر ما يهمنا معرفة
الرجل المتسكر الذي اراد احتطاف مولاتي سيدة الملك . من يحسر على
ذلك ؟ »

فالتفت العاضد الى أخته وقال « قولي .. قولي من تهمين ؟ من هو ذلك النذل الذي تحاسر على دخول قصري وخرق حرمني .. » قال ذلك وهو يلهت وقد احمرت عيماه وارجع الحصلة اليها ورجع الى مقعده وقد احس بالخلل عزائه

فتقدمت أخته نحوه وأخذت تخفف عنه وتمسح حبينه وتقول له « لاتعصب يا اخي .. اسمح لي ان لا اذكر اسم الرجل الذي اتهمه لاني اتهمته بمحرد الطن وبعض الطن اثم . وانا واثقة ان هذه البهمة مخيما كانت ضعيفة تكفي لابقاع الادي بصاحبها . خرام على ان اعرض نفسا لاهالك » قال « وحياة رأسي الا قلت من هو ذلك الحائن واعذك ان لا اسارع الى الانتقام الا بعد التبصر »

فاطرفت وهي تصلح ثيابها على رأسها ثم جعلت تلاعب خصلة السعير بين أناملها واحوها ساخص فيها « قطر نطقها فلما اسبغوا أحوابها قال « ما بالاك لا تقولين ؟ »

قالت « بالله دعني .. سأقول لك ذلك بعد الآن دعني افكر قليلاً .. »

فالتفت السميح الحائس الى العاضد وقال « دسها .. لا يالاي الآن ولا يغصبها وسعقول لما . وايس في الامر ما يدسوا الى اعطله وارجع الآن الى ما كما فيه من أمر السحات من هؤلاء الأكراد .. اذا رأيي مولاي في ما عرصه عليا ابن سبه ابو الحس »

فلما سمعت سدة الملك ذلك الاسم اعمر الدم وانكها به اكن وصبرت لتسمع ما يقوله اخوها فلما لب الى الحائس وقال « هو عندما تقبل الرحا ويطالب ولابه المودة »

قال « وعد أمير المؤمنين يكفي وقوله حجة لكن ابا الحسن لا يصدقني فهل تكتب له كلمة ؟ »

قال « لا .. لا .. يكفي ان تقول له ذاك سعاها »
فقال « حسناً .. سأقول له .. ولكن هناك .. » وسك وهو
ينتسغل بحك لحيته كأنه يكتنم امراً آخري يحاف المحاهرة به
فقال العاصد « ولكن هناك ماذا قل »

قال « اخاف ان تعصب سيدتي الاميرة لاهما .. » وسكت
فقلت « ما الذي يغضبي — كيف عرفت انه يعصبي ؟ »
فتبسّم وقال « فد ادركت من خلال حديثك انك لا تحب
ابا الحسن »

فابتدرته قائلة « ولماذا احبه وهل هو يطلب مني ذلك ؟ »
قال « لا . لكنه يلتمس التقرب من أمير المؤمنين والتسرف .. »
قالت « بمادا ؟ »

فالتفت الخليس الى العاصد وقال « هل ادول يا مولاي ؟ »
فان « قل بمادا يريد ان يتتبرف ؟ أطبي علم مراده لانه طالما لمح
الى ذلك في حديثه معي .. والحق يقال انه كف لما يطلبه .. » وتنحج
وحوّل وجهه نحو سيدة الملك

فادرك ما يعنيه وكان قد ذكر لها مرة قبل هذه رغبة ابي الحسن
بالزواج منها فرفضت . فلما سمعته يسير الى ذلك تحاهلت وقالت « لم افهم
مرادك . ماذا تعني ؟ »

فقال « اطبك فهمت ما اعنيه » والتفت الى الخليس وقال « ما هو
رأيك في هذا الامر يا عمه . اني لا أرى اكفاً من ابي الحسن لاختي »
فاعتدل الخليس في مقعده وقال « لا ريب انه حر كفء لما يتصل

به من النسب السريـف فضلاً عن تعقله ودهائه . ويكفي ما رأيناه من
تفانيه في مصلحة مولاي لا نفاذه من هؤلاء القوم . والدي اراه ان نوافقه
على هذا الطلب فيهبون عليه السكوت عن الشرط الآخر - أعنى اذا كان
حواب مولاي من حيث خطة مولائى له بالانجاب لا أظنه يشدد في
طلب السرط بولاية العهد بل يكتفي بهذا لانه شدد الاحترام لسيدة الملك
ويعد حصوله عليها منة كبرى . وعند ذلك يكون هو عوناً لنا في ما يريد
بلا شرط »

ولما سمعت سيدة الملك ذلك المصريح قالت وهى تتصعب بخفض صوتها
« هو يطلب ان يتروحمى وأنت تستحس ذلك ؟ وأحب أن أعرف رأى
أحى أمير المؤمنين ايضاً »

وظنها تعنى ما تقوله حميفة وهو يريد ان تفعل طمعاً بالنجاح من سلاح
الدين فقال « وهذا هو رأيي أيضاً كما تعلم من قبل

فاجابت برود « لكنه ليس رأيي انا .. » وحواب وحوها عنه
فقال العاضد ، يظهر انك لا تزال على خطتك .. ان انا الحسن
ليس في أهلاً جميعاً من هو اكفاً منه لك .. فضلاً عن تفانيه في خدمه «
فقالت « ابي لا أطلب كمواً ولا غير كفء . قلت لك من قبل
ابي لا أطلب الرواح . دعنا من هذا الآن . ويطالب المصيب من
طريق آخر .. »

فمات الخايس « ولكن يا سديتى . اذا ماتت فانك تخدمين مصاحبة
مولانا أمير المؤمنين لان انا الحسن أقدر انسان في الدنيا على انفاذه .. »
قالت وهى بنظر اليه نظر الاسخفاف « ان الحسن كاذب .. انه
لا يستطيع شيئاً من ذلك »

فضحك الخايس نضح السخفاف وقال « قد طمته بهذا الحكم

يا سيدتي .. لاني على يقين من تفانيه في خدمة مولانا وهو صادق العيرة
على سرف آل البيت لانه من صميمهم »
فقالت « وهو كاذب في هذا ايضا — ان آل البيت عرفوا بصدق
الاهجة والاحلاص وهذا رجل مافى وكفى »
فامتعض العاضد من حكمها بهذه الصراحة وقال « لا دليل على
ما تقولين غير قولك .. قد عرفت الرجل منذ بضعة أعوام ولم أر منه الا
كل مودة واحلاص .. ولا أعلم كيف حاراك الحكم عليه بالكذب
والنفاق »

قالت « اما انا فاعلم 'وستمدى لك الالام صدق قولي .. اطلبك قد
تعب يا احبي واتأسف لاننا سخطنا بالحدث الى هذا الحد .. وأنت
مسحوف المراح فادهب الى فراشك وسترى في العدا اني أقول الحق »
وكان العاضد قد تعب فعلاً وكان لهولها عليه بأنير سديد . فرأى ان
يطيعها ويؤجل الامر الى فرصة أخرى . فنهض ونهض الخليلس وذهب كل
الى فراسه والخليفة احوح الجميع الى الرقاد

الفصل الثاني عشر

دار الاضياف

اما الخليلس فكان اقلهم رعة في الزواد لما اصابه من القتل في المهمة
التي كلمه ابو الحسن بقضاءها . وكان الخليلس شجاعاً حسن الطن قد استهواه
ابو الحسن بدهائه ومواعيده واقمعه ببرهانه ورلاقة لسانه ان انتقال ولانه
العهد اليه خير للدولة وله ولكل واحد . ولم يكن عبد الخليلس سك في
اقتدار ابي الحسن على انتقاد الدولة من صلاح الدين . فلما كلمه بهذه المهمة

ويزوقون الاعمال فيصبح اكثر معول الناس على الطواهر
 وكان أبو الحسن من أولئك الصبايين وهو من اهل الدهاء والذكاء
 قوي الحجة لا يبالى بما قد يرتكب في سبيل الوصول الى عرضه من قتل
 أو كذب أو تملق أو تزلف . والذكي الداهية اذا اعصى عن مراعاة الذمة
 وصدق النية لا يعجزه الوصول الى ما يبغيه من الاعراض . وكان أبو الحسن
 طامعاً بالخلافة أو بولاية العهد على الاقل كما تبين لك من حديث الخليل
 السريف . فاتخذ كل وسيلة تؤديه الى ذلك العرض . ومن جملة ذلك
 طامبه الروح سيدة الملك لعنه بنموذها على أخيها ولان اتاناه الى العلويين
 يتأيد برواحها . حتى انه يفصل التزوج بها أولاً فيسهل عليه رواجه كل
 ما يبغيه لكسبها لم تكن تحبه ولا تحصل له ولا كانت تعتقد صحة نسبه .
 وقد خطأب أخاها لانه سلم بصحة ذلك النسب ولا ساهد له عليه الا دعواه
 على انه رأى ان يستعين بالجليل السريف لما يعمله من هزله عند
 العاصد لكبر سبه فكلمه تلك المهمة واقعه بصديق بيته فصدقه وأحد
 حايه . لكنه لم يستطع اقناع سيدة الملك فعاد في ذلك المساء أسفاً امسك
 مهمته وفضى ليلته وهو يفكر في الاسلوب الذي سيمسك فستله به لاني الحسن
 وفي الصباح التالي بكر الى ابي الحسن في دار الاضياف قبل أن يطامبه
 الخليفة لمخالسته . وكان أبو الحسن في انتظاره على ملل الجركمه حالما حاه
 العالم يلبته بمحيطه مهص لاستقباله ورحب به واطهر انه لم يكن يتوقع محضه
 واعتماده الى هذا الحد فاندرد بالسؤال عن صحة الخليفة فقال « فارقته مساء
 الامس أحسن حالاً »

قال « ارحو أن يكون العارض قد زال بحول الله بزوال السب »
 وادرك الخليل عرحه فقال « ارحو أن نزول السب تماماً وعد ذاك
 نحمد روال المبر »

قال « ان السبب لا بد من زواله بادن الله .. وهل تطنني أرحع عن هذا الامر ؟ اني أفعل ذلك لمصلحة أمير المؤمنين .. وانا أحبه واحترمه
لا لعرض يهمني .. »

فاعجب الحاميس بطيب عنصره وازداد خجلاً من التصريح له بما جرى بالامس . ولحظ ابو الحسن سبب ارتكابه لانه كان يتوقع رفض الخليفة طلبه ويعلم أن سببه الملك لا يقبل به من أول طلب فتجاهل ونظر الى الحليس وهو يطهر السداحة وسلامة المية وقال « اما ارحو ان يطمش مولانا أمر المؤمنين مد الآن انه لاح من كل سر ايرتاح خاطره ويسرح حخته .. هل أقعته بذلك ؟ »

قال « اكذب له عزمك وهو يعتمد اعدائك على هذا الامر لكنه » وتساءل بحك لحيته وقد ارجح عليه

ما بدره او الحسن قائلاً « أود انك لم تعاتبه بما كما تعادنا به المارحة من حيث ولاية العهد لئلا يطنني اعلى أهمه على هذا السرط .. انى لم اعن استراطه ولا جعلت نحاة الخليفة متوقفة على انقاده لكنني متى وقف الى انقاده لا أظنه الا فاعلا ذلك من تلقاء نفسه — وانا أوكد لك انى اذا فعل هو ذلك انادر الى رفضه لان مساعل الخلافة ثقيل .. وافضل أن اكون من بعض المسيرين المغربس و ... »

فلم ينصر الحليس الى امام كلامه فمما طعه قائلاً « بارك الله فيك وهذا ما كنت اتوقعه من أرنحيتك ولكننى لم أتمالك أن صرحت الامر بالارحة و .. »

فأسرع ابو الحسن قائلاً « ولا شك أن الامس على طبعه لا عيب على خاطره ولا أسعير رفضه اى .. سمع لا أقول الا الحق .. »

قال « لا .. لا .. لم يرفضه ولكن .. »

قال « هل ذكرت ذلك بيبك وبنيه في جلسة سرية ؟ »

قال « لا . لم اوفق الى ذلك .. ولكن الاحوال قصت ان اذكره

له وهو في دار الحريم و »

فقال ابو الحسن مسرعاً « وفي حضور اخته على ما اطن .. »

قال « نعم .. هكذا حصل »

فقال « لا بد انما كانت اكثر استعرازا منه .. انا لا الومها على ذلك كما

اني لم ألم احاها ... واملأ دكرت لهما شيئاً آخر غير ولاية العهد . . » قال

ذلك وهو سطر في عني الخليس ويظهر المداعمة

فانسم الخليس وقال « نعم دكرت لهما وسكلم بما يمليه على اخلاصى

لك .. » وبلغ ريقه

فعلم ابو الحسن ان حواها لم تكن بالرضا ولولا ذلك لانتبه الخليس

اسلوباً آخر في التبليغ فرأى ابو الحسن ان يعطى مثله بالدهاء فقال « اتمنى

ان تكون قد ترددت في احابة هذا الطلب أيضاً »

فاستعرب تميمه وقال « نعم ترددت قليلاً . اطها اجبت الحكم في

ذلك الى ما بعد انقضاء هذه الازمة أو ... لا أدري . »

قال « فل صريحاً يا عمه .. انها رفضت وقد تكون عالقة القلب

باحد . أو .. فليكن ما تريد .. انا لا أعتب عليها ولكنى اعتب على

احيها الخليفة .. فانه مطالب بسيرة اخته وسمعتها »

فتوجه الخليس بكليته اليه وقال « أوكد لك ان أمير المؤمنين لم

يقصر من جهك فانه حسن الظن بك . »

فقال ابو الحسن وهو يتساعل بمشيط لحيته « يكفى ... كنت احسها

عاقلة كما هو ان لم يكن يظهر انما لا تعرف مصالحة .. يا ولدي ايم الى بعد

الآن .. لا اعني اني اكف عن فداء أمير المؤمنين بدمي .. ولكنني لا أرى وجهاً للرفض .. واسمح لي ان أقول ما في خاطري — وان خرجت به عن الاحتياط المطلوب — ان سيدة الملك لا تظلمها من هو احدر مني بها .. الا أن نكون منسغله بمعض الرحال فهذا سىء آخر »
قال « كلا اسكنها قالت انها لا تريد الرواح »

فصحك ابو الحسن وهو يمهض من مجلسه وقال « لا تريد أن تتروح ؟ هذا كلام غير معمول . واسكنها ستري نفسها مصطرة للرواح بعيرى وسدم لانها لم تقبل بي »

فمهض ابو الحسن لهوضه وصبر ابرى ما يريده فقال ابو الحسن « أظنني اخرتك عن محاسبه أمير المؤمنين وقد يكون في حاحه اليك فارحو أن تؤكد له ابي مقيم على ولائه افدنه بروحي — ولا تذكر له شيئاً عن سيدة الملك .. اما اقول سألها الله لانها لم تحسن معامله »
فودعه المجلس وهو معجب بطيب سريره وعافهمه وسعه صدره وعاد الى منزله يمتطر أمر الخليفة

الفصل الثالث عشر

عاش الهكاري

اما ابو الحسن فلما حلا نفسه رفس الارض نرحل من العصب وقد آخذ الخمر منه مأخذاً عظيماً وتمشى في العريفة ويداه معانيمان وراء ظهره وهو يعمل فكرته ويتلشى حيناً بالمحجحه أو السعال أو يحك دقنه أو يصاح عمامته .. ثم وقف وقال يحاطب اسمه « رفض العاضد ان اكون ولي العبد .. اكفه سراً حادثة — هأأأ الملك الملعنة أخته ولا يزال يرفض

الزواج بي — ان رفضها هذا أسد وطأة على عيسى من رفض الخليفة لكنها
ستندم وتعود صاعرة . . متى رأته ما يلعب من كيدي . . . سوف تأتيني
صاعره ناكية . . واطنهما تحسبي معرماً بها واني اريد التزوج بها عن سعة
بجملها . . لست ممن يتعلمون بهذه الاوهام — لست في ولي حـ لـ اـ حـ د .
لا احب احداً ان حب النساء من الاوهام الماطلة التي تصرف الرجل عن
المطالب العاليه . . اني اطلب ما ينصر عنه احوها الخليفة نفسه . . سأقتل
صلاح الدين ولكن ايس اكرها لها ولا لاختيها . . سأقتله ليحلولي احو
سأقتله واقتل العاضد واقتل كل من يعف في سبيل وصرولي الى الخلافة . .
امها حق لي . . وقد اخملسوها مي . . » قال ذلك وكاد صوته يرتفع من
عظم التأثر فأتته لنفسه وسكب

ثم مضى الى عرفة داخلية اوصل بابها وراءه وقال وهو يسير بيده اشارة
التهديد « اما تلك الخائفة فسأديقها . . . العذاب . . . سأجعلها تندم ولادة
ساعة مدم . . »

ثم انتمغل بتبديل بيابه وهو يعمل فكرته في تدبير الحيلة لاعاطه سيده
الملك قبل كل شيء . فلما فرغ من اللبس امر بالمعلقة فأتته وركب الى حيب
يقيم صلاح الدين ووالده ورجال حاسيته . وفي حملتهم رحل يقال له صياء
الدين عيسى الهكاري من الامراء الصلاحيه كبير القدر كان صلاح الدين
يعول علمه في الآراء والمتشورات . وكان في مبدأ امره يستعمل بالعقبة بمديسة
حلب فانصل بالامير أسد الدين عم صلاح الدين وصار امامه يصلي به
الفرائض الخمس . فلما توحه أسد الدين الى مصر مع بهاء الدين قراقوس
صحبهما عيسى هذا وكان محاصراً لصلاح الدين فلما ترك أسد الدين اتحد
عيسى وقراقوس على تنصيب صلاح الدين موضعه في الوزارة ودققا في الحيلة

حتى بلعا المقصود^(١) فذلك كان لعيسى داله على صلاح الدين يحاطبه بما لا يهدر عليه غيره . وكان من الجهة الاحري علوى النسب فكان له مع ابي الحسن صداقه . وكان عيسى يحاسن ابا الحسن وفي نبله انه سيحتاج الى استخدامه في مصاحبة صلاح الدين فكان نكرمه ويرحب به وصلاح الدين لا يعلم . لان ابا الحسن كان يحتب الاجتماع بصلاح الدين . وكان عيسى الهكاري في ذلك الحين في مطرة اللؤلؤة يحالس صلاح الدين ويباحه ويرسد اياه بحم الدس الى ما يسهل عليه المهمة التي جاء من أجلها الى مصر

ركب ابو الحسن الى مطرة اللؤلؤة لا يريد دخولها ولكسه كان يعلم أن صياد الدين الهكاري يحلف الى هناك في تلك الايام موعود أن يراه في الطريق فيظهر أنه النفي به صدمة ليهون عليه حره في الخديف عهوا الى العرض المطلوب . وكان يعلم نصاً انه تتردد الى دار العلم بحوار القصر الصغير . ودار العلم هذه اسأها الحاكم بأمر الله وجمع فيها الكتب وحملها ماء اطلال العلم للطلعه أو السح . وفيها الخبر والاقلام والحبار — اوقف على ذلك اما كن ينفى على دار العلم من ريعها . وكان يحتج فيها العلماء للمناظرة والمجادلة فاصححت في ايام الافضل بن أبي الحموين محمداً المحاذلة الدينية الخطرة فأمر الافضل بإبطالها أي إفعالها على الجمهور معاً لفساد المذهب لكتبها طلب تحوى على كثير من كتب الفقه والماريخ في أحب من الخاصة ان بطال سبها منها ادن له . فكان الهكاري من جملة المتردين الى هناك

فلما دنا ابو الحسن من مطرة اللؤلؤة سأل بعض الخدم عن الهكاري فبيل له انه ذهب الى دار العلم . فحول سكرية المعلة الى هناك وأظهر انه ذاهب لعرض آخر غير ملاقائه — فلما وصل الماب منعه المواب من الدخول

لأنه لا يعرفه فلم يعرفه نفسه بل قال « أحب الاطلاع على بعض الكتب وأعود »

فقال « ذلك لا يحور يا سيدي »

فقال « كيف لا يحور وقد علمت أن رحلا دخل هذه الدار منذ هنية »

فقال « هو الفقيه صياء الدين . . »

فاظهر الاستعراب لوقوع هذه الصدفة وقال « الفقيه ضياء الدين هما ؟ »

قال « نعم »

قال « هو صديقي . . استأذنه بالدخول اليه »

قال « من أقول له ؟ »

فال « فل له أبو الحسن يطلب الدخول »

فذهب المواب ثم عاد ومعه صياء الدين . فلما وقع نظره على أبي الحسن أسرع اليه ورحب به فتحول أبو الحسن عن الملة ودخل معه الهكاري وهو يتظاهر أنه فرح بهذه الصدفة . وكان صياء الدين يلبس ري الاحماد ويعتم بعمائم الفقهاء فجمع بين اللباس فلما التقيا قال أبو الحسن مداعباً « انك قد جمعت من ري الحمد وري الفقهاء فهل أنت فقيه الآن أم حدي ؟ »

قال « ابي فففيه في بحبي الان »

فال « اما انا فقد طلقت الفقه وأما حثت للمطالعة في بعض الكتب

لعرص علمي » قال ذلك ومسي فدخل صياء الدين معه وهو يقول « نفصل ادخل . . أملك تبص في مسأله لعويه »

قال « كلا اى لا ارى ذلك نافعا الان ولكننى اطلب مسأله تاريخية ... احب الاطلاع على تاريخ السلاحفة فان هؤلاء القوم اشداء ولهم تاريخ مجيد »

فالتفت ضياء الدين اليه وقال « اطلبك تحت المحب عن سبب مقبل نظام المملك ... مسكن ... »

قال « لا فان قاتله من الاسماعيليه اصحاب سيخ الجبل .. أليس كذلك ؟ ليس لها حثت . واكسى اريد الاطلاع على أصل هذه الدولة »

قال « اتبعنى الى حراة كتب التاريخ »

الفصل الرابع عشر

طغرل بك

فمضى ابو الحسن في اثره حتى ادخله فى عرفة فيها رموف عديده رتلت فيها الكتب حسب المواضيع والعصور وساعده ضياء الدين حتى جمع له بصعده كتب تحت فى الدولة الساجونية ومبدأ امرها فتناولها ابو الحسن واحد يقلب فيها وهو يقول « فاش معى عن كتاب فيه ترجمة طغرل بك مؤسس هذه الدولة انه كان رجلا شديداً »

وبعد المحب وقف ضياء الدين على كتاب فيه سيرة طغرل بك دفعه اليه فمأواه ابو الحسن وهو يقول « اطلبى سعلمك عما حثت لاحله »
وال « كلا بل انا فى غاية السرور من هذه الصدوقه لانى احب ان اعرف تاريخها الزحل مؤسس هذه الدولة اتى ملائ الدنيا متبحراً .
فمصل افعد » واثار الى طراحه على مقعد بالقرب منه ومعد ابو الحسن ومعد المتكلمين يدبه وأحدا كما ما آخر دفعه اليه ابو الحسن فمعد

اوراقه وعيناه في الكتاب الذي يقرأ ابو الحسن فيه وراه وقف عند
صفحة وحمل يقرأها ويعيد قراءتها ويهر رأسه اعجاباً واستعجاباً ثم
ولبها وقرأ غيرها حتى فرغ من الكتاب فوضعه بحامه وتناول غيره فاشاق
ضياء الدس الى مطالعة الصفحة التي رأى ابا الحسن يمدق فيها فتناول
الكتاب وهو يتوهم انه فعل ذلك خلسه وابو الحسن لا يعلم . ففتح تلك
الصفحة فادا هي تحب في حطنة طغرل بك لابنه الخليفة القائم بامر الله
العماسي سنة ٤٥٤ هـ وكف ان السلطان طغرل بك وهو تركي طالب ان
يترواح بانه هذا الخليفة مما لم يحسر عليه احد فله وان بعض القصة
اخر الخليفة يومئذ ان عرض السلطان من تلك الريحة ان يأتيه من بيت
الخليفة علام فيه الدم العباسي فولمه الخلافة مهدد الحجة وتنولى الخلافة في
اعقابه وتخرج من العباسين وان الخليفة انزعج لهذا الطلب واسعطف
السلطان ان يعفيه من الاحابه الى طله . فاني الا أن يحاب بحيت اضطر
الخليفة الى احابته وروحه ابنته . لكن طغرل بك مات في تلك السنة
ولم يرق من امراته هذه اولاداً^(١)

وكان ضياء الدين يقرأ ذلك وابو الحسن يطهره يقرأ في كتاب آخر
وعيناه تحتلسان المطر الى الهكاري . فلما علم انه فرع من قراءة ذلك
الفصل رفع نظره اليه وقال « أرأيت شجاعة طغرل بك وكيف انه استطاع
بحكمته وتعمله تأسيس هذه الدولة التي لولاها لم يكن صاحب السام ولا
صاحب العراق ولا غيرهم »

قال « نعم انه رحل دو بطس عريب وأنا استغرب الآن ما قرأته
في هذه الصفحة عن مطامره في الخلافة ما لم بطمع به احد سواه من غير
القرس في ما اظن »

فتوجه ابو الحسن نحوه باهتمام وقال « طمع بها فله عضد الدولة بن بويه فاراد أن يزوح الخليفة الطائع لله نائيه اتلاد من الخليفة ولدأ فيه من دمه فجعل الخلافة فيه فلم يوفى الى ذلك ^(١) واما هذا انه خطأ خطوة اكبر من تلك . اراد أن يزوح هو نانت الخليفة ليكون اسمها فسه دم العباسيين . . ولكن هل علمت كمح الخليفة من هذا الخطر ثممظ الحلافة في العباسيين ؟ »

فقال « انه مح بالصدفة »

قال انطى موت طغرل بك كان صدفة ، أنا الصدفة يموت على اثر ذلك العقيد المعصب ؟ لا اشدك في اهم سقوه السم وله لا احسن الاسلوب لاحتاط لنفسه ونحنا من ذلك الخطر ولم يذهب سعيه عبثاً »
فقال « وكف بحتاط ؟ »

قال « يحتاط بان لا يعرض نفسه للعمل بحطبة انه الخليفة فطاهر عرصه اعنى لو طاب أن يزوح احن الخليفة او احدى باب اعمامه . مثلاً لا اطهم كانوا يسهون اعرضه . فاذا ولدت له ولدأ د كراً كان فيه من الدم العباسى ما يكفى لادعاء حق الحلافة ولكن ذلك التركى كان قصير النظر . »

ونظراً لاهتمام صياء الدين بصلاح الدين ونسجه تائيت دوله كان كلما قرأ تاريخاً أو سمع حادثة هامة طمى معراها على حال صلاح الدين اعلمه يسميها ما يؤيد دولته . فلما سمع كلام ابى الحسن اتقه ان صلاح الدين بمقدران يفعل ذلك بالتزوح من احب انعاصد وكان اسمع يحياها ويعقلها والعاصد اصعب من ان مكر على صلاح الدين طلبه . وبذلك تصير الدولة اليه حتى نور الدين قد يدحل في سلطانه فاسرق وجهه لهذا

الفكر وصمم أن يفتح صلاح الدين به في ذلك اليوم ولكنه تظاهر أنه لم ينتبه له لسيء وحمل يتشاعل بقراءة فصول أخرى وأبو الحسن يظهر من الجهة الأخرى أنه يتكلم بكل سداحة . ثم غير الحديث وسأل ضياء الدين عن نجم الدين وهل هو مسرور من الإقامة في مطرة الأوثو فاحابه بما يقتضيه المقام واصبح ضياء الدين شديد الرعدة في انصراف أبي الحسن ليخصي في مهمته الحديدة

وبعد قليل استأذن أبو الحسن بالانصراف وودع صديقه الهكاري وعاد على بعلته الى دار الضيافة وهو مهمهم في اناء الطريق ويكاد يحاذي المعلقة من فرجه فانطلاء جبلة له اذ لم يتك أن الهكاري داهب حالا الى صلاح الدين ليحربه على حطمة سيده الملك وهو يعلم بقسأ أن ذلك سيقع ووقع الصاعقة على رأسها ورأس أخيها ولا يحدان سيلا لرد طلب ذلك الخاطب القاهر الا اذا ادعى بان الفاة محطوبة لابن عمها (أي هو) فينال عرصه على اهون سبيل

الفصل الخامس عشر

سيدة الملك

اما سيدة الملك فلما ذهب الى عرقها فلقيتها هناك حاصتها الخصوصية واحذت في مساعدتها على نزع ثيابها اسعداداً المرواد ولم تفتحها لسيء من الحديث الذي جرى لها مع أخيها رغم تددة رعتها في ذلك — والخدم من اكثر الناس ميلا الى استطلاع الاسرار لفرار رؤوسهم من المسائل الماهمة مع اطلاعهم على محبآت تحبى في مآزل امارتهم ووقوفهم اناءها

وقوف المتفرح يتقدرون هـ، أو يحسبون عمل دأك على ما تسوقهم اعراضهم
أو مداركهم فيلد لهم المحدث فيما ناهم كل واحد عما نعلمه من احوال
محدثومه ويبدرفيهم من يحافظ على سر مولاه وبهار على سمعنه واسعى
في درء السهات عنه وكانت حاضنة سيده المالك من هذا البادر واسمها
ياقوتة

رأت ياقوتة في دار الحلاه وسيدة المالك طفلة فكانت لها عناية
خاصة بها فسألت سدة المالك على الاركان اليها والوثوق بها حتى جعلتها
مستودع اسرارها فلم يكن يفوتها شيء مما يحتاج صهرها وذلك لما عي في
مثل حال هذه المرأة من الحجاب في ذلك العصر فأباحتها بالباس ولا
يحد من تجاذبه الا الخدم وكانت ياقوتة قد عانت منذ جاء الخليفة اده
يدكو اشراقاً وتلصصت من وراء الستر لتسمع ما يدور من الحديث على
عادة امائها من حب الاطلاع ورعته في خدمة سديها ولم يوقع أن
يدور بين الحايقة وانته ما دار ما حاب سدة المالك ليرع نياها كانت
تروح أن نسمع شيئاً حدياً ولطط وبها بعيداً بدل على قائمها واضطرابها
فلما فرغت سدة المالك من تدليل الشاب فعدت على صهرها وقد
حلت شعرها الذهبي وارسلته صغيرة واحدة الى طهرها وتهدت الصعداء
واطرقت ولططت ياقوتة في عيني سيدتها ما تشبه الدمع فتراحت على
قدمها واحدت تفعل ركنها وتقول « ما نالك يا سيدتي / لماذا تمكين /
ما الذي يبكك ؟ » واطرب، انها لم تكن تعلمه على سر

فرفعت سدة المالك بصهرها اليها وان الدمع ممحاً وتبات تأنيه
وقالت « تسأليني يا ياقوتة عن سبب بكائي / وسعريين حربي / انس
حربي عرماً / وانما العريب ان لا افصى يومى ناكاة ناديه . » قالت
ذلك وعصت بريقها

فشاركتها ياقوتة بالبكاء لكسها اطهرت التحلاد وقالت « ماذا جرى يا سيدتي ؟ هل حدث شيء جديد ؟ »

قالت « ألا يكفي ما جرى مما تعلمينه . آه ويلاه أنت عاقله لا ينحى عليك شيء . ألا تعلمين حالنا مع هؤلاء الاكراد واستمدادهم في الدولة هذا اخي حاءني اليوم وقد اصابته الحمى من سدة العيط لما صارت اليه الخلافة . وكيف لا أمكي ؟ »

قالت « لا بأس من الساء ولكن لا فائدة منه واما الفائدة بالصبر والحكمة . حتى يقضي الله بما يشاء . لكل امرئ نهاية ولا بد لهذه السكارثة من نهاية نادن الله . واما . . »

فقطعت كلامها قائلة « لا . لا . لا . ليس لهذه السكارثة نهاية الا بالموت من يبعثنا من هؤلاء الاكراد وقد وضعوا ايديهم في كل شيء حتى دارنا هذه فان عليها حارساً من رجالهم » وبلغت ريقها ومسحت دموعها وهي استعد لاستئاف الحديث ثم قالت « وهذا كله هن يا ياقوتة . ؟ كله هن سهل بالمطر الى امر آخر حاءنا به الخليس السرييف في هذا اليوم »

فمطاولت ياقوتة نعمها وقالت « وما هو يا سيدتي ؟ »
قالت « جاءنا بجمعه يزعم انها تنجينا من هذا الصك ولكنها اذا صبح اوقعتنا في ما هو اشد وطأة واصعب مراساً »

قالت ياقوتة « وهل اشد وطأة من هذه الحال يا سيدتي »
قالت « نعم . اشد وطأة منها أن يكون ذلك الكهل الوبح . وليا للعهد بعد اخي حفظه الله »

فاطهرت امها لم تفهم مرادها فاستهمتها فوضحت لها سروطه التي تقدم بانها ثم قانت « ولهم من قدرة ذلك السر نف الكاد على قتال

صلاح الدين فان صيرورة ولاية العهد اليه بدل ابن ابي اصعب عدى
من البقاء في حورة صلاح الدين «

فقات يا قوته وهي تظهر مظهر الاهتمام « لا أرى رأيك في ذلك
يا سيدتي بل أعد سعي ابن الحسن هذا نائاً للمرج لانه اذا لم يستطع قتل
صلاح الدين لا بال سيئاً . وان استطاع فان ولاية العهد لا تصير اليه
لان مولانا أمير المؤمنين ساد في مستقبل العمر أطال الله بقاءه . ومن يعلم
المستقبل «

فلم تعد سيدة الملك تصبر على . جامع هذا العذر فنهضت فحاة ونهضت
مها نافوة وهي تنظر ما تقوله فادا هي تقول « واكمه يسترط ابصاً مرطاً
آخر الموت أهون على من قوله «

وكانت نافوة تعلم رمة اني الحسن فيها فاطهرت انها فبهم . رادها
فقال . انك تكبرين هذا الرجل كرهاً سداً ناً سب . . طولى بالاك
يا سيدتي حتى آثم كلاً . اذا نظرتنا في مظالمه وسر وطه لا نجد ما يبعث
على هذا القلق . ان الرجل من أساء عماك ويعرض أن يقتل اعدى عدو
لنا وبعد هذه الدولة من الخطر الذي لم يقدر عليه أحد سواه فادا فار
صار ولياً للعهد وتروح باح الخلقه لا اظنك تستدكمين ان يكون في راحة
رجل بعد الدولة من الموت وهو مع ذلك سرييف النسب . تنصري في
ما أقول . « قال ذلك واكم عليها وجعلت تقامها وتضمها للتحفيف
عنها .

فاندرت سبده الملك من من يديها وحيات رحنها عها نحو سارة
معانة على الحائط عليها صور عريه واطهرت انها تتألمها ولكمها لم يكن
تري . ناً افترط اضارها وعصها . ودالم ساكمة فطها نافوته تستمع
رأيا فعاد الى الم . . . والحائط عوى سيدتها بذراعها وهي تقول

« لا تتعجلي يا سيدتي برأيك — فكري بالامر ملياً — ان عليه يتوقف بقاء هذه الدولة ورد على ذلك انك لا تجدين من ابناء عمك من يستطيع هذا العمل . . فلا ناعب على هذا النفور منه »

فقطعت سيدة الملك كلامها وتحولت نحوها وقد بان العصب في عينيها وقالت « تقولين لا باعت على هذا النفور ؟ »

قالت نعم أقول ذلك لاني لا ارى باعاً . والا قولني ما يبعثك على رقصه ؟ »

قالت « يبعثني على ذلك اني لا اطيق ان ارى هذا المفاق . . اذا رأيته ارتعدت فرائصي من رؤيته . . تباً له كأى عيسه من نوافذ جهنم . . اذا نظر الى حيل لي أن الشيطان يطل من حديقته ويهم أن يأخذ بتلابيبي دعيني لا اقدر أن اتصوره . . »

فهرت يا قوثة رأسها هرا لا بكار وقالت « يا للعجب انك تكبرين هرا الرجل عفواً . اطك نظاميه . لم ار منه ما يبع على شيء من ذلك . » قالت « ألا تربس الشر في سحنته ؟ اني ارى ذلك واضحاً يكاد يلمس باليد . . دعيني منه »

قالت وهي ممسكه يدها تحاسها على السرير « افعدي يا سيدتي لا خاطبك كما تحاطب الام انتهوا وان كمت لا استحق هذا النرف . . »

الفصل السادس عشر

الشكوى

فمعدت وهي تنظر في عيني يا قوثة فقالت يا قوثة « انك يا سيدتي شاة في مقتبل العمر وقد مسحك الله حالاً وتعقلاً ولا بد من ان تزوحي

بمن هو كفاء لك . وأنا لا ارى اكفاً من ابي الحسن فانه عريق في النسب
العلوي الشريف »

فوثقت سيدة الملك من السرير وقد تغيرت سجنها وعلب عليها
الغضب وقالت « ليس الرواح ضرورياً لي . واذا كان لا بد منه فلا
يهمي أن يكون ذلك الرواح من النسب العلوي . . » قالت ذلك ونهبت
تهدأ عميقاً وامتنع لونها ثم احمرت وحتتها فحاة وبان الحياء في عيائها
حولت وجهها عن ياقوتة وعطت عينها بكفيها فاستغربت ياقوتة حركاتها
وادركت أن ذلك لا يبدو الا من فتاة عالقة القاب برحل يمعها الحياء من
دكره . فغيرت لهجتها في الحديب وصمتها الى صدرها وفلتتها من عيائها
وقالت « همت الان شيئاً لم اك اعرفه من قبل أب عالقة القاب
برحل آخر »

فمرت سدة الملك من هذا التعبير الصريح وتراحم وهي لا تزال
مظفرة وطالت ساكنة فتبعها ياقوتة وهي تقول « لعلى بالعب في المصريح
فوقعت عمارتي ثقيله على سمعك اعذري لي لكسني اتقدم اليك ان تصدقني
هل اصاب طي ؟ - انا مذك كل يوم وكل ساعة لا افارقك ولا يدخل
علينا احد من الرجال غير اخيك وبعض الاطفال من ابائهم واباء عمك
فيسعد أن تكوني عالقة باحد لكسني ارى دلائل الحب في عينيك . . »

فارداد احمرار وجهها وراد حياؤها وهمت بالكلام ثم توففت
فقال ياقوتة « قولي لا تخافي . هل تحبين احداً . ثم نجعل
في من هو ذلك الاحد . . »

فقال « دعيني يا حاله . دعيني من هذا الحب الآن لا فائدة
منه غير زيادة الاسحان . » قال ذلك واضهت انها عمل الى الرقاد
فاعانها ياقوتة حتى اسلمت على السرير ووضع العطاء عليها وحمل

تصلح ما يحيط بها من الملاءة والمنحدة وهي تراقب ما يبدو منها فاذا آنتست
مياها الى الحديث استأنفته والا تركتها نام

أما سيدة الملك فان ذلك الحديق هاح اشحانها ومالت الى مفاتحة
حاضنتها بما يكره ضميرها ولكن الحياء كان غالباً عليها وكالت تظن
الخاصة تصر من نفسها على استئمان الحديث فلما رأتها اطاعتها واعانتها على
الرقاد بدمت واحذت تتذرع الى استئاف السكلام فاطهرت ضحراها من
الغطاء وتهدت والتفتت الى ياقوتة لفته أثرت في اعماق قلبها فانحمت فوقها
وهي حاتية بجانب السرير وقالت « ما بالك يا سيدتي يا حبيبي ؟ . لماذا
تكتمس همك عني . . »

ومالت واسألتها يتلعم « احاف أن تصحكي مي أو تهري بي . »

قالت « معاد الله أن افعل ذلك وكيف افعله ولماذا ؟ »

قالت « لاني احب رجلاً لا يحظر بمالك انى احبه ولو علم احى به
لاستغرب عملي وحسنى مجبونة . واما انا فلا . » وسكتت وهى تتشاغل
باصلاح شعرها تحت رأسها ورفع الغطاء واصلاحه »

فوقعت ياقوتة في حيرة ولم تفهم حقيقة مرادها أو لعلها ادركت
قصدها وتحاللت لتسمع زيادة المصريح فقالت « لم افهم يا سيدتى مرادك
من هو الرجل الذي وقع من نفسك هيدا الموقع لا بد أن يكون نادرة
الزنان »

قالت « ألا تعرفيه ؟ .. بلى تعرفيه جيداً قد رأيته في هذه الدار
كما رأيته . وشهدت انت نفسك انك لا تعرفين اشرف منه خلقاً ولا
اكبر همة ولا اعر نفساً . رأيته ويده خصلة الشعر الى كان احى قد بع
بها الى صاحب دمشق يستغيت به باسم ساء فصره — ان احى ارنك

بذلك ذلاً لم يمحاه الا هرا .. فرد عليّ شعري بعدان انتقد حياتي من الموت ونحى سرفي من الدنس »

فصاحت يا قوّة « اظنك تعنس الساب الكردي ! . »

فابتدريها بلهفة ووالت « نعم اياه اغني اعنى ذلك الشهم الماسل . »

قالت ذلك وقد عاد اليها نشاطها وتحمست وبان الاهتمام في عينيها

وتقدمت يا قوّة اليها وهي تبسّم وقد شاركتها بذلك السعور وقالت

« الآن فهمت المراد . قد عرفت الشاب جيداً ولا انسى ذلك اليوم »

ففالت سيدة الملك « هل علمت ما اسمه ؟ » فاطرقت الحاضرة

واعلمت مكرتها كلها تراجم ذاكرتها ثم قالت « نعم علمت اسمه ... »

ولكن هل تعلمين انت من هو وما هي علاقته بصلاح الدين عدونا الالد

الذي يسكو اخوك امير المؤمنين طلحه ؟ »

قالت « لا لا اعلم . »

فالت « انا اعلم .. انه من رجال خاصته . لا يحطو خطوة

الا وهو معه .. »

قالت وهي تتسّم « فهو اذاً قد نال ثمرة تلك المفاوب السامية فتقدم

عند مولاه . وما اسمه .. » فالت ذلك وعيناها تلمعان

قالت « اسمه عماد الدين . وكثيراً ما رأيته واقفاً بباب قاعة الذهب

في انتظار صلاح الدين وهو عند مولانا امير المؤمنين . ألم تساهديه من

شباك فصرك ؟ »

فالت « لم اساهده هناك اكسي رأيه غير مرة واقفاً بباب هذا القصر

يخاطب الاستاد بهاء الدين قراوس وعيانه لا ترتفعان الى انتسابيك ولا

يلتفت يميناً ولا شمالاً كأنه لا يعرف اهل هذا القصر . وكثيراً ما وددت

أن يرفع نصره اعلاه يلتقي مصري وربما افراً في عنابه سبباً يساهب على

رأيه فيّ فلم يفعل فلم يزدني ذلك الا شغفاً بمافيه آه اعذرني يا خالة
اعذرني . . طالما اكتمت هذا الحب حياءً وحجلاً وكنت ارى في كتمانها
لذة . اما الان ففد بحت به وقصى الامر »

الفصل السابع عشر

الحب سلطان

فقلت « انت يا سيدتي تحبين عماد الدين خادم صلاح الدين ! .
بالله ما هذا ؟ كيف علقت به بمجرد النظر اليه مرة واحدة . هذا امر
عجيب . . ان بين اعمامك وفي قصور احيك عسرات من السنان اجمل من
هذا ويقع نظرك عليهم منذ اعوام وكلهم يسمون بطره منك فلم تسكتي ناحد
منهم . . » قالت ذلك وهرب رأسها هرة الاستعراب
فاحانتها سيدة الملك « صدقت يا خالة اني اكثر منك استغراباً لما
اصابني من مجرد تلك النظرة . . وما هي في الحقيقة نظرة . . انها ساعة
اطول من العمر كله . كنت فيها بين الحياة والموت فطرت ذلك الساب
وانا اكاد الي وحه رني أو اتلطخ بالعار . قد يده واقدن من الشرين
جميعاً . خيل لي انه ملاك هبط عليّ من السماء . . واكرم به من ملاك »
قالت ذلك وعادت الى الاطراق وقد توردت وحتتها

فقات يا قوته « اذن انت تحبين عماد الدين »
وابرقت عيناها رعم دبولها من البكاء والانكسار وابتسمت اناسامة
لطفت ما تكانت في وجهها من الحزن واومأت برأسها أن « نعم » واسرعت
الى العطاء ورفعته الى رأسها استحياء

ووقع قولها عند يا قوته . وقع الاستعراب وقالت وهي تزيج العطاء عن

وجها بلطف « نعم يا سيدتي ان عماد الدين شهيم نادر المثال ولكنه لا يليق بسيدة الملك سليمة المعز لدين الله »

فهضمت وقعدت وقد انحل شعرها حتى غطى كستفها وخديها ونظرت الى ياقوتة نظر العتاب وقالت « ان المعز رحمه الله لم يطلع الى هذا السؤدد ولا توارب ابائوه هذا الملك الواسع الا بمناقبه وعلوهمته وكرم اخلاقه . ومواقب عماد الدين لا تقل عنها شيئا . انك تعلمين ما اناه هذا الشاب من المروءة يوم واقعة العبيد وكيف تهالك في سبيل نجاتي وحمل الى خصلة الشعر وهو لا يعرفني . . ان كنت قد سيت ذلك فاني لا اساه . . لا اسي يوم اتاني دانك السقيان وارادوا حلي من هذه الدار فاقهزني هذا العريب منهما يعثر ثواب يرحوه ولا عقاب يحافه وانما فعل ذلك مدعوا باخلاقه السامية . . فاننا من اجل هذه الاخلاق احسنه ولم اتمار الى اصله وفصله . . وتوقفت لحظة وهي ترفع شعرها عن عيائها ثم قات « اتدكرين دينك الرجلين اللذين هما في ذلك اليوم ؟ اذا علمت الآن انهما من ابناء الملوك او الخلفاء وطلبي احدهما هل ترصن ان اكون زوجة له ؟ »

قالت « معاد الله انهما ساقطا الهمة . . »

قالت « اعلمي ان احدهما يعلب على طي انه ابو الحسن الشريف الذي ترعوبوني فيه . . والآخر خادم له استعان به لاحتطائي في وسط الغوعاء بعد ان علم اني لا اريده . . » قالت ذلك وكلها ندمت على ما فرط معها فسكت وطرق

فقالت ياقوتة وقد تولمها الدهسة « هل انت على يقين مما تقولان يا سيدتي ؟ »

قالت « لا اقول اني على يقين . . ولكنني ارجح هذا الطل كميروا . ومع ذلك فانا لا اقول هذا ولا داله - وانما افعل اني رأيت عماد الدين

وما اتاه من المروءة شعرت بنبيء احتذب قلبي نحوه وكست اتوقع ان اراه مرة أخرى يأتي بها الى احيي يطلب مكافأة على صنيعه فلم يأت فازدردت اعجاباً به وارتفعت منزلته في قلبي وتحول الاعجاب الى حب شديد « ثم تنهدت وقالت « ويلاه هل هو ينسحر مثل شعوري ؟ قالت ذلك وحقيقتها العبرات ولم تعد تمالك عن البكاء والخاصة تستعرب هذا التعلق بنظرة واحدة فاحدت تحفف عنها وتقبلها وتقول لها خفني عك يا سيدي .. ارجعي الى رشتك ان متلك لا يسترسل في عواطفه الى هذا الحد مع شخص لم يره الا نضع مرات ولا يعرف شعوره من حبه — تحلدي وارجعي الى رشتك لو فرصا وانت في هذا الهيام علمت ان عماد الدين يحب سواك كيف تكون حالك ؟ .. تنصري قلباً .. »

فاستجمعت سيدة الملك قواها واسترجعت رشتها واطرقت وهي تتأمل بعسارة حاصنتها فرأت الحق معها . ولكن الحب سلطان مستمد لا يدعن للحق ولا يعرف الصواب . وإنما يلد له الاستبداد بلا ساب والفتك بلا حساب . ولا يحلو الحب الا ان يكون مستبداً ومتى ادعن للاحكام العقلية والاقنسة المبطية أو العبارات الاقتصادية صار معلماً أو تاحراً أو فقيهاً . وإنما هو سلطان مطلق لا يقيد دستور ولا يردعه خوف من عقاب . فهو لا يسأل عما يفعل ورعيته راضية باستبداده تعد ظلمه عدلاً وتحسب عسفه رفقا — ذلك كان شعور سيدة الملك في تلك اللحظة . كان عماها يدها على مكان الخطأ وهي لا تريد ان تراه . فاسترسلت في عواطفها ونظرت الى ناقوتة والاعراف على سفنيتها والاسكار في عينها وقالت « صدفنا خاله . ولكي لا اطه يفعل ذلك .. لا .. لا .. واكن مهما يكن . فاني لا ارى سبيلا الى غير ما ذكرت فدبريني برأيك .. »

فتحبرت ياقونة في الحواب ورأت الحديث قد طال وتوالت العرائب
التي كستفت لها في تلك الليلة فعزمت على استخدام الوقت للتفكير على
انفراد لعلها نهتدى الى حل رضي سيدتها ويوافق ضميرها . ونرامت على
يدي سيدتها تقبلها وهي تقول « خمي عنك يا مولاتي . اني امك ابدك
بروحي . . كوني مطمئنة وقد تعبت اليوم من هذا الحديث وآن الرقاد
توسدي فراستك . وامهلي لا بطري الامر ولا بأس عليك في كل حال .
فان احاك حفظه الله لا يحبرك على من لا تحببه . وانا اعلم منزلتك عنده .
لكن لا بد من تدبير طريقة لمساهدة عماد الدين توسدي فراستك
وها اني داهية وسافكر فبك كسراً الليلة على الخصوص . واما أنت فلا
اطلك تفكرين بي » وصحك لمداعتها ثم قالت « فكرى بمن تمس »
فاساطفت سيدة الملك تعبيرها لانيها كان من افصى امانيتها ان توافقها باقونة
على اعمادها وتسعر معها بما في قلبها فيرون عالمها كل شيء فسررى عنها
واطاعت حاضتها في الرقاد ودهمت ياقونة أبصاً الى رقادها

الفصل السابع عشر

حزاة الجوهر

قصت سيدة الملك بقة الليل من اليقظة والمام لفرط قلقها وافانفت في
الصباح الباكي على صوب المؤذن اصلاة الصبح ولم يكن يطلب منها القيام
للاصلاة لسكرها لم تعد تستطيع رقاداً شعاع تعاب على الفراش وامكارها
تأثمة وتذكرت احاها واحب ان تعلم حاله بعد دغائه من عمدها هل سبي
مما كان فيه فهبصت من الفراش والى طرف من الحر التماساً للدفء
وخرجت من غرتها الى دهاير يودي الى سرفه دلال على مصلى الخليفة

فرأت اخاها قد خرج للصلاة فاطمأن بالها عليه وهي عائدة الى غرفتها
استقبلتها الخاضعة وسألتها عن حالها واحذت تحادثها وتؤانسها ومست معها
الى غرفتها واعانتها في لبس ثيابها وامرت باعداد المائدة وجلست اليها وهي
تقول « اطمئنتك عن صحة سيدي امير المؤمنين فإنه في خير »
قال عرفت ذلك من خروجه للصلاة واحمد الله على ذلك ولكنني
احب ان اراه . . »

قالت « ستريده الليلة بعد رجوعه من قصر الذهب والفراع من مهام
الدولة . هيا بنا الى الطعام الآن »

مشت الى غرفة المائدة فتناولت الطعام وهي تتوقع أن تفتحها ياقوتة
بالحديث عن عماد الدين فلم تفعل فاستحمت هي أن تذكره . قضت
بصف ذلك النهار وهي تتاعل بشؤون محملة . وأحسن بعد العشاء بميل
الى الرقاد من مرط تعب الامس فوسدت فراشها فنامت ملء جفونها .
وافافت وفد هذأت اعصابها وهان عليها ما هي فيه بالنسبة الى ما كانت
عليه من اللعب — لان تعب الاعصاب يزيد صاحبه قلقاً ولا يريه
الامور الا من وحدها الاسود

فهضمت من المراس وقد اسرق وحدها وعاد اليه ابتسامه رصفت
تطلب الخاضعة فابطأت عامها . ثم جاءتها وفي وحدها خبر لحق قات سيدة
الملك عمه رؤيتها ولم تصبر عن الاستفهام عما وراءها فقالت ياقوتة
« ما ورائي الا الخير يا سيدي . . هلم بنا »

فاحفقت وقالت « الى اين ؟ »

قالت « الى خزانة الجوهر »

فاعرضت عنها اعراض المكروما يسمعه وقالت « اين الجوهر » أنهم
لم يتركوا فيها شيئاً »

قالت « انهم اخذوا كثيراً وتركوا كثيراً . لكنني لا ادعوك للخوهر
يا سيدتي وانما اريد ذهابك الى تلك الحراة لملاقاة سيدي امير المؤمنين
فانه افند في طلبك اليه على ان توافيه الى تلك الحراة لسبب لا اعلمه »
قالت بلهفة « احبي يطلب دهابي لملاقاته هناك ؟ »

قالت « نعم يا سيدتي . ولا حاجة الى تبديل ثيابك لانك تذهبن
الى ذلك المكان في دهليز يؤدي اليه لا تحدين فيه احداً . . هات ما »
قالت ذلك واسارت اليها أن تسمى قلقت رأسها بملاءة لاروردية اللون .
ومست وهي تفكر في ماذا عساه أن يكون العرض من هذه الدعوة في
ذلك النهار

خرجت من فصر النساء الى دهليز اخلاه الخدم والحواري . فمر
سيدة الملك ولم تحد احداً في طريقها حتى اتت حراة الخوهر . وهي عرف
عديدة بصفت فيها الخرائن والرفوف واميص فيها الارائك فوق الطماص .
ولم تكن دخلت تلك الدار من عهد طويل . ولكنها كانت تسمع مما
تحوي من الذخائر النفيسة والمجوهرات الثمينة وتعلم انها أخذت ايام المستنصر
بالله ابي تميم لما غلب على امره منذ نحو مئة عام . ولم تكن تتوقع ان تحد
فيها شيئاً من الخوهر يستحق الذكر

وصلت الباب فاستقبلها الخاحب وادحها و اشار الى ياقوتة بالابصراف
فانصرفت . اما سيدة الملك فدخلت وعبها سائعتان تحتان عن احياها .
فراثة حالماً في صدر القاعة الوسطى وحده على متعده وقد تحفف بحمامة
صغيرة ويده سحرة يعد حماها وهو طرق يهكر . فلما اسأه الخاحب بمجيء
الخنة رفع بصره اليها وهش لها واحد يرحب بها فترامت عليه وسألته عن
صحته فقال « اني والحمد لله في خير وعافية وكيف انت ؟ »

قالت « طالما كان امير المؤمنين سالماً وانا سالمة اقمه الله اما ركباً

وسنداً « قالت ذاك وهى تقرأ في وجهه جبراً حديداً . لكنها تجاهلت وخاطسته وهى تقعد على وسادة بالقرب منه قائلة « اني لم ادخل هذه الدار منذ سنين عديدة وآخر مرة دخلتها كنت طفلة ولا ادكر اني علمت ما فيها . . . »

فقطع كلامها قائلاً « وماذا عساك أن تعلمي ؟ يكفي أن تسمعي بما كان فيها قبل عهد جدنا الامام المستنصر رحمه الله انطري الى هذا الصندوق »

فطرت اليه وهو متمش الصمعة وعليه نقوش فطنته يستافت نظرها الى نفسه فمالت « انه جميل »

قال « لا أعني حال ظاهره ولكنى اعني ما كان فيه من الحجارة الكريمة احبرني والذي رحمه الله انهم اخرجوا منه في رمن المستنصر سبعة امداد رمرد قيمتها ٣٠٠٠٠٠ دينار تخاطفها الناس »

فدهشت من ذاك ووالت « ان ذلك غريب نادر »

قال « ولو اردت ان ادكر لك اسماء ما كان من التحف في هذه الدار لاستعرق سردها فقط عدة ساعات وانما ادكر عقداً من الجوهر قيمته ثمانون الف دينار بيع يومئذ بألهي دينار واحدوا من حرام الذهب والفضة فقط نحو ١٢٠ حاتم مصوصها من الحواهر المختلفة فيها تلاب خواتم ذهب مربعة على كل منها ثلاثة فصوص أحدها زمرد والاثنان ياقوت سماقي ورماني بيعن ناتى عسراف دينار . غير ما اخرجوه من الحواهر ومحوها فانها كانت تحصى بالوينة وتنكال بالكيل منها وينة حواهر مستراة في الاصل اسمعاية الف دينار باعوها بعشرين الف دينار . وطاوس ذهب مرصع بالجواهر عيابه من ياقوت احمر وريسه من رجاح الميا المحرى بالذهب على الوار، رنش الطاوس . غير التحف المتماراة عن الخلفاء أو الممولة البنا

من العباسيين وغيرهم^(١) ورقع الشطرنج احجارها من الجواهر والذهب والفضة والعاج . كل هذه ومئات مثاتها أحدث في سكة المستنصر ولا فائدة من الكلام الآن . . »

فانقبضت نفس سيدة الملك مما سمعته وقالت « ان مصيبتنا قديمة يا اخي . . ولا فائدة من التذكار الآن » قالت ذلك وهي تتمهل ما في خاطر اخيها عن سبب استقدامها اليه

فقال « صدقت . ولكى اطمئنك ان أولئك اللصوص لم يأخذوا كل ما كان لنا فان بمص خواصنا واهل بطانتنا المخلصين يومئذ احتفظوا لما بضع ما كان من الذخائر ولا يزال محباً الى الآن » قال ذلك ونهض الى حراة داخلية في الخائط لا تسلف المطر اليها ففتحها بمفتاح استخرجه من حبيه ومد يده فاخرج منها حقاً فيه عقد من الجواهر بمهر المطر دفعه اليها فساوولته وحملت تقبله فقال لها « خذيه حريمه على عنقك » فتراجعت واعادته الى الحى . فمد يده واحرجه وألصقها اياه في عنقها وقال « هذا لك »

فأراد ان ترجعه معها وقال « حديه انه لا يلين باحد سواك . » واستخرج من حوى آخر حاتمًا حمارته من الرمرد والياقوت نحو الذي ذكره وألصقها اياه في اصبعها . فلم يعجبها منه هذا الكرم ولخط استعراها فقال « لا تستعربى ما ترميه فان في هذه الحرائس تحملاً اخرى لا يعلم بها سواي وسأدعها كلها اليك لئلا تذهب كما ذهب تلك »

فتوسمت من كلامه شيئاً يعنيه اسب طراً عمايه فقالت « ماذا نعى يا اخي ؟ معاد الله ان يكون ما تشير اليه . لا يتبع هذه الذخائر سواك وسوى اولادك » قالت ذلك واحتس صوتها رعم ارادتها ان يكتمها لمحدث

وهت ان تم كلامها فلحظت في عيني احياها شيئاً كالدمع وهو ينظر اليها
بصر المستعطف . ثم قال « انت لا تريدن ان تمنى هذه التحف لنا »

الفصل الثامن عشر

بين خطيبين

فادركت ما يشير اليه من تمنعها عن قبول ابى الحسن زواجاً لها بعد ان
تكفل بقتل صلاح الدين . فاحست بوخر الصمير واثريها الاسلوب
الذي اختاره اخوها لمعاتتها . لكنها لا تستطيع ان توافقه ولا تعتقد ان
انا الحسن يستطيع اقيام بوعده ولم تجد الوقت مناسباً للدفاع في تلك الساعة
فمالت « انت تعنفني يا احنى على امر ليس في طائفتي . . فانا قد عاهدت
نفسي ان لا تزوح . . وادا كان ذلك الرجل يقدر على شيء فليفعله ثم
نرى ما يكون »

فرأى في جوابها شبه الرضى فقال « انما المطلوب قبل كل شيء ان
تطهري الرضى به ليعدم على العمل أليس كذلك ؟ كيف يصدى لهذا
الخطر وهو يرى هذا الرضى ؟ » . قال ذلك وهو يتسم ويهس ليسترضيها
وكادت ان تعلق على امرها واوسك ان يحملها حبا لاختها على ان توافقه
في ما يريد . لكنها ما لبثت ان تصورت انا الحسن وفقرت منه وتذكرت
عماد الدين فاختلج قلبها في صدرها وتوردت وحداها

وطمها اخوها ترد احامه لكنها تستحيي فقال « يا الذي يصرك
ان تحبي طامى وهذا الرجل اكماً اسنان لك . . فصلا عما وعدنا به من
الخير . . فولى انك ترصاه خطيئاً لك . . وادا كنت تحسبن قولك به
مصيبه فامها مصيبه صغرى . . وابرقت عياء كلهما تطلقان بسر يكتمه .
وتأمل بعد حداث مسحته

فاطرت سيدة الملك واعملت فكرتها في كلام اخيها فخافت ان يصح
ظنها فقالت « ماذا تعني يا اخي بالمصيبة الصعري وهل هناك مصيبة
اكبر منها ؟ »

قال « اكبر منها يا اختي ان يطلبك رجل اعجمي من عبر اهلك
لا قبل لنا برد طلبه . . فهمت ؟ »

قالت « ماذا تعني ؟ من يتحاصر على هذا الطالب ؟ »

قال « تحاصر عليه الذي تحاصر على سلب حقوقنا من ايدينا واستبد
بالامر دوننا ونحس احياء . . الرجل الذي نخاف سطوته وبحسب لحر كانه
الف حساب . . ألا يستطيع هذا الرجل ان يطلب ؟ وادا طلب من
يرده ؟ »

فبغتت واستبعدت ما يفهم من كلام اخيها فقالت « صرح بما نقول . .
هلي تعني صلاح الدين ؟ »
قال « نعم اباه اعني . . فما قولك ؟ »

فتراجعت وقد اصطكت ركبها وارعدت فرائصها ولم تمالك عن
العود على المقعد وقد امتقع لونها واوشك الدم ان يحمى في عروقها وسكنت
فقدت اخوها بخانها واحاط دراعه حول كتفيها ليألف من بعثها وقال
« اني ازعجتك بهذا الخبر ولكم اخرجني . . ولا تطي الامر قد
نفذ . . انه لم يطلبك صريحا بعد . . ولكن رجلاً من خاصته حاض
في هذا الصاح وواجائي بهذه المصيبة بعد ان مهد الكلام بمدامات
طويله عريضة الى ان قال « ان السلطان صلاح الدين يريد ان يتسرف
بهذا القران فاحب ان يسألك على بدني قبل الاقدام على الطالب لعل
هناك مانعاً »

فقالت « وماذا احبته ؟ »

قال « هممت ان اجيبه بانك محطوة لابی الحسن لعلمي ان هذه الحجة تكفي للنجاة من هذه الورطة لسكني استمهلته في الجواب الى الغد لاسألك وقد اخترت هذا المسكان للمقابلة حتى لا يكون معناه ثالث . . ها اني قد اطلعتك على حلية الامر فما رأيك . . ألا ترين القبول بآبن عمنا أولى ؟ » ولم يكن العاصد ينظر منها غير القبول فلما ابطأت في الجواب وهي مطرقة كرر السؤال

أما هي فكأنت تهكري في طريقة للدجاة من هذه الورطة لآلها تفصل الرواج بصلاح الدين ولا نأى الحسن لسكنها تفصل عماد الدين على كليهما . وحدثتها نفسها ان تصرح له بما يكفه ضميرها فخافت العاقبة فلما كرر أخوها السؤال قالت « صدوت ان الاحتجاج يكونى محطوة قد يرجع صلاح الدين عن عزمه . فل له اني محطوة ادا سأئت ولا تدكر لمن » قال « لكفه لا يصدق الا اذ ذكرنا الخطيب لثلاثا يحسبنا نكذب لتتخاصم . . سأقول له انك محطوة لآبى الحسن »

فاندبرته قائله « كلا . لا تقل هذا . لان ذلك لا يكون ابداً » ولم تمالك عن هـ . التصريح وقد ارتفع صوتها رعم ارادتها فبان الغضب في وجهه وقال « كنت اجاملك وألاطفك قبل هذا المشكل . اما الآن فلا ارى لرفضك معنى بعد ان بينت لك السب . . ليست هذه شعائر الاحتاحمة لآحيها . وانت تعلمين ما وعدنا ابو الحسن به . ولا سيما الآن بعد ان يعلم ان صلاح الدين مآطره فيك فانه يزداد اهتماما في تقيده عرصه . . قولى انك مبلت به والا ضعف اعتقادي تتعقلك وصدق محمتك واعلمى مع ذلك ان امير المؤمنين يحاطك ويطلب ذلك منك وهو ولى أمرك » قال ذلك ربيء من السلطة

فقطع ذلك التهديا عليها وهبب الحمية في صدرها ورجعت اليها عزة

نفسها فنظرت الى اخيها نظر العانب وقالت « تهددني بما لك من السلطة على . . . واناك ولي امري ؟ ان هذا لا يغير شيئاً من عرسي . واذا نسئت ان تنفذ هذا السلطة من نفسك فافعل . واما انا فبستحبل عليّ القبول بذلك المافق المرائي . . . وربما فصحت صلاح الدين عليه عند الضرورة . ولكنني لا أريد هذا ولا ذاك . . . »

فدهس العاصد لهذا التصريح وقال « الى هذا الحد بلغ من حسانتك وتخاطيبيني بهذه القصة . . . اطبي اخطأت لاني ساورتك في الامر . وكان لي ان لا استسيرك لاني ولي امرك من جملة وحوه . . . وانا فاعل ما اراه خيراً لك . اذ نظرت الى انك متمسكه بالخطأ لغير سبب اعلمه . . . لم ينق الا ان تخرجي لاسوف وتخار . لك روحا من المارة وانهاء السبيل . ايس ذاك من شأن بيات الخلفاء . . . ان العماية جعلتك من طمقة الملوك وميريك بالنسب الشريف فلا يجوز انك الاقربان بعير الاكباء . وهذا أبو الحسن اس عننا وهو اكفأ اسان لك . يكفي الان . » قال ذلك وتحفر للمسير كانه قال ما لا يقلل نقصاً ولا ابراماً

أما هي فطلت وافقة واوسكت أن يسقط على الارض من التأثير لانها لا تقدر أن نموح بما في خاطرها بعد أن رأت احاها يكبر تفصيلها صلاح الدين فكيف لو علم انها تحب حاده . فرأت السكون في تلك الحال اولى وصممت ان تفعل ما يحلو لها ولو خالمت السرع والعرف . فلما رآته يتحرك للمسير مست بهدوء وسكينة ولم تمه بكامة فظلمها سمرت اساطمه سابها فقامت فكتمت فرحه وطلت على اظهار العضب والعب

وحالما حرحت من الماء رأيت حاصتها تنظرها في الاهاير مراقبتها الى عرشها وبعد لحظات الحاضنة تعبيراً بيماء في وجهها فاصبح همها استطلاع الخبر

أما سيدة الملك فأنها صممت على عمل لا يخطر لحاضنتها ولا غيرها
وفصلت البقاء على كتمانها لئلا تحول ياقوتة دون نفاذه . خطر لها أن تستقدم
عماد الدين ونفر معه من قصر أخيها وتمحو من ذلك الاسر . ولكنها
لا تستغنى عن ياقوتة في البحث عنه واستقدمه فعمرت على كتمان ذلك عنها
أما ياقوتة فأنها تهيت من عصب سيدتها . ورعم ما لها من الدالة
عليها لم تحسر على محاطتها فاخذت تتذرع الى استطلاع حالها بالتحايل
فلما دخلت العرفه قالت لها « مالي أرى سيدي عاضة .. ما الذي أغضبها ؟
انى أرى في حبيدها عقداً من الجوهر وفي أصبعها خاتماً من الرمرد والياقوت
لو كانا لى لرالت غني هموم الدنيا »

فانتهت سيدة الملك الى العقد والخاتم وكانت قد نسيتهما لفرط قلقها
ففرغت العقد من عبقها والخاتم من أصبعها ورمت بهما الى الارض وجلس
على السرير وهي تنهد

فالتقطت ياقوته العقد والخاتم وهي تقول « ما بالك ياسيدي . ما الذي
أعصبك ؟ اذا كان هذا العقد قد عيرك أعطيني اياه »

قالت « حديه . بل هاتيه .. » واسترحته من يدها ووضعت في جيبها
مع الخاتم

فابتسمت ياقوتة على سبيل المداعبة وقالت « اذا كنت قد عصبت
من أمير المؤمنين فما هو ديني يا سيدي وانا اتعاني في خدمتك ؟ »

فاظهرت الارياح الى قولها وكطمت غيظها وقالت « بارك الله فيك
دعني الآن »

قالت « لا . لا أتركك حتى تقولى ماذا جرى بينك وبين مولانا
أمير المؤمنين »

قالت « انة مولاك وليس مولاي »
 قالت « ايه مولانا بحكم الله اطلال الله لنا بقاءه »
 قالت « اطلال الله بقاءه لكه . . » وسكتت وقد سرقت بدموعها
 فقالت يا قوته « ما بالاك قد غيرت عادتك معي لماذا لا تسكن الى
 همك لعلی أستطيع خدمتك بنبيء . ألم نكن على موعد للظفر في أمر
 عماد الدين ؟ »

ولما سمعت اسم عماد الدين سري عنها وهان عليها الصدر والتفتت الى
 يا قوته وابتسمت وعيناها تلعبان من الدمع فأنر مطرها في يا قوته واكبت
 على يديها تقبها وتقول « بالله لا تعضي يا سيدتي . لا تعاملي بالحقاء ..
 افصح لي عما بكه صميرك وانا امتك أوديك بروحي مولاي لا تخافي
 فتهدت وهي تتحد وقال « نعم كما على موعد من أمر عماد الدين ..
 ادا رأيت ؟ وماذا دبر ؟ »

قالت « لم أرسأنا ان الامر لك . وانا طوع ارادتك ماذا نريد
 أن اعمل ؟ قولي وانا فاعله حالا »
 فنظرت اليها بطرة احبرفت أحسائها وقالت « اريد ان نأق عماد الدين
 الى هنا في هذه الليلة .. »

قالت « في هذه الليلة ؟ ولماذا ؟ »
 قالت « لا تسأليني عن السبب . انت تقول انك طوع ارادتي
 وهذه هي ارادتي . اريد ان اري عماد الدين الالمه »
 قالت « لك على ذلك .. خفي عنك الآن وارحني الى ريدك واحكي
 لي عما جرى لك اليوم مع سيدى امير المؤمنين »
 فلما اطمأن بالها من جهة استخدام عماد الدين حب ملها لحاسب وامر
 حاصتها ان تجلس وقصت عليها ما دار يدها وبس احياها من اوله الى آخره .

فأثر ذلك في رأيها ورأت سددتها أخطاء بمقاومة الخليفة ولكنها لم تجسر على تحطتها فظهرت أنها ترى رأيا على بية أن تعود إلى البحث معها في الأمر بعد قليل فطمأنتها أنها تفعل ما تريده وعيرت الحديث وشعلتها بمهام أخرى

الفصل العشرون

عماد الدين

قد علم من حديث العاضد واخته أن صلاح الدين بعث ليخطب سيدة الملك تنقهاً وسب ذلك أن عيسى المسكاري لما حرج من دار العلم سار تواء إلى صلاح الدين وأسرع في مقابلته على امراد في خلوة ونظر في الحديث إلى حطة أحت الخليفة واقعه بما تقدم من الأدلة السياسية واستحسن صلاح الدين رأيه فاستمهل ليسانس إياه فهاه عن مسورته أذربما اقتضى رأيه ملاطمة الخليفة وهم لا يرون ذلك . وادكر المسكاري بسعيه في مصالحة ممد عرفة . فقال صلاح الدين « انما قابصون على أرمة الدولة تفعل بها ما نساء من عرل وتولية وأموال وعيرها فكيف بطمع بالخلافة . وهذا لم يقدم عليه أحد قبلنا من غير العرب واحاف أن نطلب الريادة فمع في المقصا .. »

فقال « لا اعهدك ضعيف العرم يا مولاي اذا كنت لا تعرف احداً طاب الخلافة من غير العرب ألا يحوران تطلها انت . أو تمهدا لاولادك سب الاقتران باحب الخليفة ؟ وزد على ذلك أن سيدة الملك من احمل النساء خلة فصلاً من دكائها ودهائها . واما الخلافة فادا طلستها واحوحا السب القوسي فانه ميسور لان كثيرين من الصحابة القرشيين تفرقوا بالفتح ونزل بعضهم في بلاد الاكراد فقد يكون حذك متسللاً من اخدمهم » قال ذلك وهو بظاهر الحد . وادرك صلاح الدين انه يهون عليه

ادعاء الخلافة بزواجه باخت الخليفة واذا لزم النسب القرشي اتحل له نساً فيهم . ولكنه لا يزال يتهيب من الاقدام على الخطبة فلما رأى الحاح عيسى قال له « ادا لم يكن بد من العمل برأيك فاجعل ذلك ملك على سبيل الاختيار بلا كتابة مي . . »

قال « اني فاعل ذلك من عند نفسي فاحاطب الخليفة في رعبتك وأرى ما يكون . . »

قال « حسناً » وذهب المهكاري في تلك الساعة الى العاضد واطلعه على ذلك ناسلوب اطياف فاستمهل في الحوار كما رأيت

اما صلاح الدين فانه بعد ذهاب المهكاري من عنده حلاً بمسئله وراجع ما دار بينهما فرأى انه يسرع في الامر وكان ينبغي ان يكتشف انه قبل الاقدام عليه . لكنه أحل ذلك حتى يعود المهكاري بالحوار وهو لا يزال في حل من الامر . وبعد قليل اتاه علام يدعوه الى الطعام مع ابيه في الجانب الآخر من قصر الأولوة فمضى وهم على العداء قال نعم الدين يحاطب اسمه صلاح الدين « يا يوسف لم ار عندكم اهتماماً بميادين السفاف . لا ينبغي ان تترك رجالك يرباحون طويلاً اسئ لهم الميادين للمسابقة على الخيول فانهم بذلك تنقوى ابدانهم ويسمعون عن الدسائس »

قال « صدقت يا ابي ونحن لا يمضي اسموع لا نخري فيه سباقاً من فار بالسبق قدمناه وخاعنا عليه . واحب ان احرب ذلك من يديك في هذه الساعة وسأحتار من رحالي أمرهم في الركوب » ونادى عماد الدين فاتى مسرعاً وحمة الروح طاهرة في وحيه والسجاعة تقبلي في غيبه والاساط ظاهر في انتصاب قامته وامتلاء عضله . فلما وقع بظر نعم الدين عليه استلطفه فاطال النظر فيه وصلاح الدين تأمره ان يستعد للسباق مع آخرين سماهم . فانتار عماد الدين مطرباً وانصرف فتحول صلاح الدين الى ابيه

وهو يتسم انتسام الاعجاب وقال : « كيف رأيت هذا الشاب يا ابني ؟ »
 قال « كنت عارماً على ان اسألك عنه لانه وقع من نفسي موقعاً
 حميلاً واتوسم فيه الشهادة والسالة ولا طمحه الا بالعامامار فيعاس رحالك »
 قال « وكيف ادا رأيت مهارته بركوب الخيل وحبب احلاقه الحميدة .
 يكفي استهلاكه في سبيل خدمتي انه يحبني حما مفرطاً فلو قلت له الى
 نفسك في المار لمعل . »

قال « احرص عليه وقدمه . . »

قال « اني لا اترك فرصة تمر الا اكرمه بها وهو الآن من حرسى
 ويستحق ان يكون من كبار القواد لكمه لا يزال صعب السن وسيكون له
 شأن . . وقد سرني انك توسمت فيه ما توسمته انا وتحققته بالاحتمار . . »
 فقال بحم الدين « هل روحه ؟ »

فقال « اردت ترويه بحارية حملة فلم احد فيه ميلاً للرواح »
 فمر بحم الدين رأسه وقال « تلك هي مافب اصحاب المطمع طلاب
 السيادة يصرفون بكايهم الى تلك المطامع . . فاحتفظ الشاب »

وهما في ذلك سمعا قرع الطول استعداداً للسباق فجلس صلاح الدين
 مع ابيه على اريكته نصبوها لها من يدي القصر بسرف على حلبة السباق
 وفوقها مئله من الخريز الملون واطلق الفرسان الاعسة وكان عماد الدين
 على فرس اررق يمتار عن سائر الافراس يعرهم الماطرون عن بعد ولخط
 نجم الدين انه يفوق سائر الفرسان بالهه والماقة . ولعموا انما عديدة
 وسابقوا وتراموا وكمة عماد الدين راجحة في كل لعب

قضوا في ذلك بضع ساعات وصلاح الدين حالس مع ابيه تحت
 تلك المئله ثم احد المرسلين واعدون الامرر امام المظله لالقاء التهمة
 وصلاح الدين يتنى على مهارتهم ويكاهم بما تقتضيه المفاهم حتى جاء عماد الدين

فأمره صلاح الدين أن يترحل ويأتي إلى أبيه فترحل ووقف بين يدي
 بحم الدين ووقوف الاحترام . فقال له يا عماد الدين سنكون رجلاً مفداً
 وأسرتني أنك حائر على إعجاب ساداتك »

فأكب عماد الدين على راسي نخم الدين بملحها وقال « أتى عماد
 لمولاي السلطان أفدبه بروحي وأدا قدر لي أن أكون شيئاً مذكوراً
 فيكون ذلك من فضله . . لا لاسم حماقي . »

فروى له على ظهره وتناول خنجرًا كل في مبطقه ودفعه إليه وقال
 « احتفظ بهذا الخنجر تذكاراً مني »

فأكبر عماد الدين هذا الأكرام من والد صلاح الدين وهو يعلم أن
 صلاح الدين نفسه يهبه مدام على يديه ساجداً وكان صلاح الدين
 يخاطب بعض المراسن وأما فرج من ح الله تحول إلى أبيه فمعه يهاب
 عماد الدين فاستلمت نفسه لآلاء ذلك الساب وقال (أسرتني أنت
 راض عنه »

فقال نخم الدين « وهو حذر بذلك وأرى أن تدهه وتعلمه من
 حاسمتك »

قال « هو من حرمي كما قلت لك »

قال « أحب أن يلازمك ولا يفارقت ليلاً ولا نهاراً وإن تكون له
 دالة الصديق فيدخل عليك بلا إذن »

فألمح صلاح الدين إلى راد الدين وقال له « أمر والدي بذلك
 مات من الآن لا تتردى من حل ولا ترحال » ومن ومن مع أبيه
 نحو القصر وعماد الدين بملحها وأمر صلاح في القصر أن يتصل عماد
 الدين بعرفة قرب عزمه من أن واصل عماد الدين لمرط أتيانه لا يعرف
 كلاماً يؤدي به إلى حماره ولا كلمة أدها أن أتيانه في خدمة مملوكه

ويعلم في صادق المودة والمخلصين في أعمالهم ان لسانهم قصيراً فيعبرون
عن شعورهم بالعمل دون الكلام

الفصل الحادي والعشرون

أمر غريب

ولم يكن لهم في ذلك اليوم شغل هام فبعد العشاء ذهب كل الى
غرفته . وقضى نجم الدين ليلته في عرفة ابيه صلاح الدين يتحدثان في
شؤون كثيرة ترجع الى علاقة مصر بدور الدين . ثم انصرف الى فراشه

بان صلاح الدين ذلك اللذة كعادته وهو يفكر في أمر مصر ومطامعه
فيها حتى غاب عليه المعاص فنام وقد اطفأ مصباح القصر واطمأن الحراس
الا عماد الدين فانه شعر بعد ان اختصه صلاح الدين به انه يجب أن
يكون اكثر نهضة وسهراً على حياته . فنام وهو يفكر في ذلك فحلم لفراط
قاله ان صلاح الدين باديه فنهض . دعوراً واصاح بسمعه فلم يسمع شيئاً
فحدثته نفسه ان يهض ويتسمع لخاف أن يقط مولاه وهو على يقين انه
سمع ذلك في الحلم فعاد الى فراشه وقد طار بومه وكثر ثقلمه بين اليقظة
والنمام . واداه هو يسمع وقع خطوات من رقادته ولم يسمع شيئاً
فعلب على حائطه انه يسمع هائساً ونظر الى السماء فعلم أن الفجر قريب
ورأى انه لم يعد قادراً على الرقاد فلبس ثيابه وحال الملاح الفجر خرج ليطل
على عرفة صلاح الدين فراها مهله وكل سى هادى والحراس بالباب
كالعادة فعاد الى غرفته

ولم تدم همته حتى سمع صلاح الدين يناديه فلباه ودخل غرفته فراه
جالساً على سريره بلباس النوم وقد أدهسه . فاسرع اليه وحياه

فصاح فيه صلاح الدين « ما هذا ؟ » واسار الى الرصادة عند راسه فمعه
عماد الدين فرأى خنجرًا مسلولاً عليه آثار دم قديم فدألقى عند موضع
رأس صلاح الدين من الرصادة فاحمل وصاح « من فعل هذا ناسيدي ؟ »
قال « لا أدري . لكنني سمعت في هذه الساعة رأيت المال كما
تراها » فاطرق عماد الدين بمكر موقع بصره على شيء عند قدوس السرير
فإذا هو عماد ذلك الحنجر فتناوله وتامله فلم يذكر انه يعرف صاحبه وهو
يتفكر فيه رأى في حوزة بطاقة استخرجها ودفعها الى مولاه فمضها وقرأها
فباب المنة في عييه ثم دفعها الى عماد الدين وضمن ودخل عليه أحد
العلماء وأمره ان يبادى الامير بسم الدين والده حالا

أما عماد الدين فانه قرأ البطاقة واعاد قراءتها وتناول الحنجر وتامله واعاد
الطريق فيه فقال صلاح الدين « كيف يدخل الماس على وانا نائم داخل هذا
القصر والابواب موصدة ولا اسعر أحد من الحراس ؟ »
فاحس عماد الدين أن التردد موجه نحوه لانه أمر الحراس اليه
فارتج عليه من سدة المأمر وهم أن يقيموا إذا سمعوا الدين قد دخل فلما
راهما في تلك الحال تناول البطاقة وقرأها وإذا فيها

« من أحد مر بدي سيد الاسماعيليه الى يوسف صلاح الدين »

« اعلم يا يوسف انك وان اقبلت عليك الابواب واقت الحراس
لا تفقدان نفوسكم من القصاص . انك قد دألت في القحة وتطاول واستمدت
وظامت وديت سرح الحمل رعيم الاسماعيليين . له اردت فملك الليلة لما
انقبت عليك ولكن عسرت عليك وانا مبددك ان يصلح من سيرتك . ولا
تطمع أن تعرف من أنا ان دألت بالمال اذ قد اكون اخاك او حاكمك
او حارسك وقد اكون حينا في سماءك أو سمرة في رأسك وأنت لا تدري
وانما اسألك ان تاتم بالله والسلام »

فاستولى السكوت على الجميع لحظة . ثم انسار نجم الدين الى عماد الدين
أن يفعل الباب وأن يجلسوا في حلوة لا يدخل عليهم أحد . ففعل وقلبه يتقد
غيطاً وقد ساءه على الخصوص حدوث هذا الامر في الليلة الاولى التي تولى
مها الحراسة الخاصة واصابه الحمود لا يدري ما يقول . وادرك نجم الدين قلقه
فناده وابتسم له وقال « لا تصطرب يا بني ولا يداحلك خوف انكم
لا تعرفون هؤلاء القوم ولا اظن يوسف يعرفهم »

فقال صلاح الدين « ادكر ابي عرفت عنهم شيئاً .. ولكن أي
الاسماعيلية هؤلاء . وما هذه الحسارة . كيف يستطيعون الدخول علي في
عرفة بومي والحرس حولي .. صدقوا لم يكن يجمعهم شيء من قتلي .. »
فصاح عماد الدين « خسئوا .. ان ذلك بعيد عنهم .. اهتم
لا ينالون من مولاي السلطان شعرة قل أن يقتل رعيهم اللعين »
فعمد نجم الدين وامر عماد الدين أن يبعد وقال « هل تعرف من هو
هذا الرعيم ؟ »
قال « كلا يا سيدي .. ومهما يكن من شأنه .. »

الفصل الثاني والعشرون

الاسماعيلية

فقطع نجم الدين كلامه وقال « تمهل يا شباب واسمع ما سأقصه على
يوسف من خبر هذا الطاعية الذي يسمي نفسه رئيس الاسماعيلية وهم بالحقبة
الحسينية » ووجه خطابه الى صلاح الدين وقال « اعلم يا بني ان الاسماعيلية
أو الباطنية أو الحسينية طائفة من الشيعة لها بالدولة العبيدية علاقة قل من

يعرفها ولدك احببت أن افصلها لك . ان مذهب الاسماعيلية كان مذهب هذه الدولة عند الفتح وقد نصره ولا سيما الحاكم بالله فله احياء ونشره بمساعدة رجل فارسي اسمه حمزة الدرزي

« وفي أيامه طهر رجل فارسي اسمه حسن بن الصباح له حديث طويل مع نظام الملك وعمر الحيام لا محل له هنا ^(١) فأسأ حسن هذا جمعية من الفدائيين واقام في حل الأموت قرب قروين منذ أكثر من مئة سنة . وكان يغري رجاله على الفتك بمن شاء من كبار الرجال ومن جملة الذين قتلهم نظام الملك وزير السلاحة وكثيرون من القواد والملوك — كانوا يقتلون ولا يعرف قاتلوهم . أو اذا عرف لا يسأل أن يقتل في سبيل تمديد امر مولاه ... »

وكان صلاح الدين مصعباً لما يسمعه بكل حوارحه فقال « كأني سمعت بسبي من هذا القبيل ولكنني لم أكن اصدقه اذ لا يعمل أن يعرض الرجل نفسه للقتل على هذه الصورة بعيداً لمر مولاه فقط »
فاعترض عماد الدين وعيناه تتقدان وقد هاجب الحمية في رأسه وقال بلى يا سيدى . هذا أمر معقول . ان الرجل ليعدي مولاه بروحه اذا كان يحبه ويحترمه »

فادرك نجم الدين غرضه وقال « بارك الله فيك يا سي لكن مثلك قليل واكثر الناس يفعلون طمعاً في سبي . اما الفدائيون هؤلاء فاما يفعلون ما يفعلونه لمجرد طاعة رئيسهم وقد احتلوا في سبب هذا التمنى فيقول بعض العارفين ان حسناً هذا كان اسمهم بالسحر أو يستقيهم احتشيشه التي تأخذ بالأمم — ولذلك عرفوا بالخبثية او الخبيثين ومهما يكن السبب فان وجود هذه الطائفة خطر على كمار الرجال

« وكان مقرها في رمن ان الصباح ههنا في قزوين بعيدة عن هذه الديار . اما الآن فان مركزها في حل السماق من اعمال حلب لهم فيه معاقل وحصون ولهم دعاة في الاطراف ولهذه الطائفة تاريخ طويل قبل انتقالها الى الشام خلاصته ان الرئاسة انتقلت بعد ان الصباح الى غيره وعيره وكان رابعهم في الاموت منذ نحو خمسين سنة يسعى حسداً ايضاً ويضيفون الى اسمه قولهم « على ذكره السلام » وكانت دعائه قد انتشرت في الشام والافرح قد فتحوها فقرّبوا الاسماعيلية واستمعوا بهم على المسلمين في مواقع كثيرة سرّاً وجهرّاً . فادب لهم ملك الافرح صاحب حلب ان يقيموا في حل السماق (حل المصيرية) ونزلوا نانياس وزعيمهم يومئذ اسمه بهرام . وفي ايامه تمكنوا من الفتح بطائفة من الملوك والقواد بمصر والشام منهم الملك الاصل امير الحيويس بمصر يقال لهم فعلوا ذلك به لانه استند بالآمر باحكام الله . وبلغني ان الامر تغلب على بهرام وقتله لسبب لا اعلمه لعله ساءه قتل امير الحيويس وان كان قتله دفاعاً عنه — وطافوا برأس بهرام في شوارع القاهرة هذه — وقتلوا ايضاً كثيرين من الافرح بحجج مختلفة منهم ريمون صاحب طرابلس ولهم محل السماق عدة قلاع حتى الآن منها مصيايف ومرقب وعلية والرصافة وعبرها يعتصمون بها . اما زعيمهم الآن فاطمه ادهى الرؤساء جميعاً اسمه راشد الدين سنان بن سليمان اصله من المصرة خدم رئيس الاسماعيلية في الاموت وتفقه بالعلم والفلسفة ثم انتقل الى الشام واقام في حلب وهو اعرج وتظاهر بالقوى والتدين فاحدث العامة ذلك — ولا تحدد شيئاً يستهوي العامة مثل الدين . وبلغني من بعض رجالها هناك ان سنان هذا كان يجلس على صخر يعط وهو حامد كالصحر . فكثير دعائه وكانت دعوته لهم ان يتعاونوا فتغلب على عقولهم بالدهاء أو السحر لا اعلم حتى جعلوا اموالهم مشتركة بينهم — حتى النساء والبنات . ثم منعهم من ذلك

« وبلغ خبره الى رئيس الاسماعيليه يومئذ في جبل السماق واسمه ابو محمد فاستقدمه اليه . وبعد قليل حمله واستلم رعاية هذه الطائفة منذ بضع سنوات فقط وقد سمعت خبره قبل سمرى بليل وهو الان صاحب السطوة والكامنة البائدة وقد التف حوله الوف من الدعاة الفدائيين وهم يعدونه بارواحهم . اذا امر احدهم بقتل امير او ملك تسكر ودخل في خدمته ذلك الامير أو الملك بصمة سائس أو خادم أو حارس . ولا يرال يترقب الفرص حتى تسنح له ويعمد حنجره في صدره . فالحمد لله انهم لم يفعلوا ذلك هذه المرة ولكن تهديدهم هذا اتقل وقعا من القتال »

الفصل الثالث والعشرون

النزع

وكان صلاح الدس في اثناء سماع الحديب مطرقاً يهكر وحماد الدين يراعي حركات نجم الدين بعينه ويتلطف العاطف دانيه وقد هاحت اريحيته وحاشت الحماسة في صدره . فلما فرغ نجم الدين من الكلام نظر الى حماد الدين فرأى عييه يكاد الشرر يتطاير منها فتحاehl اما صلاح الدس فقال « لا ندّ من وسيلة نتجدها لتجنب شر هذه الطائفة .. انما غير متمرعين لمراقبتها »

فقصدى حماد الدس قائلاً « ان مراقبتها لا تفيد شيئاً ولا ندّ من قطع دارها » قال ذلك وعيماه تدلان على ما يعنيه من العزم الاكيد فاجابه نجم الدين « ماذا تعني ؟ »

قال « اذا ادن لي بانداء الرأي فعمدي ان احسن دواء لهذا الداء أن يقتل رئيس هذه العصاه فتتمرق عصانته »

فقال نجم الدين « هذا امر شاق لا سبيل اليه لان القوم معتصمون في الجبال الوعرة وغيومهم مشوثة في كل مكان . وقد علمنا الان أن منهم اناساً في هذا القصر فكيف يتأتى الوصول الى رئيسهم وقتله ؟ »

قال عماد الدين « ان من يحب مولاه يتمنى في خدمته كما قلت يا سيدي . فكما يستطيع هذا الاسماعيلي الملعون أن يدخل غرفه السلطان صلاح الدين ويعمل ما عمله فيمكن لسواه أن يدخل على رعيم الاسماعيلية ويغرس هذا الخنجر في صدره . وادا قتل بعد ذلك فقد ادى واحباً ليقبذ انفساً شريفة من الفتك . لان هذا اللعين لا يعتمد الا قتل العطاء والاستهلاك في سبيل قتله فخر يتطلبه كل ابي النفس »

فاحس نجم الدين ان الشاب يعني أن يذهب هو نفسه في هذه المهمة فاراد أن يشي عزمه حرصاً على حياته لا اعتقاده بالخطر الذي يهدده فقال « ان هذا الامر لا يقدم عليه الا المحبون ولكننا لا نحرم وسيلة اخرى لاسترضائهم بالمال فانهم كثيراً ما يرتكسون القتل طمعاً بالمال اذ يغريهم بعض رجال السلطة على قتل اعدائهم »

فقال عماد الدين « صدقت يا سيدي قد يسترضون بالمال ولكن هذا لا نهاية له . واما اذا قتل زعيمهم فانهم ينقصون من حوله » فقال « ليس هذا بالرأي الصواب لانه صعب . . ولا تحد من يقدم عليه اذا عرف خطره »

فقال عماد الدين وهو ينير يده الى صدره وعيابه نلمعات حماسة « هذا عندك عماد الدين يقدم نفسه للقيام بهذه المهمة من هذه الساعة وارحو أن لا ترد طلبي »

فقال نجم الدين « بارك الله فيك ايها حمية يدبر مثالها . . . ولكننا في حاجة اليك هما »

فقال « وما الفائدة من وجودي هنا وهذه أول ليلة من حراستي اوشك مولاي السلطان أن يقتل . أما ذهاني فارحو أن يكون فاطماً فاصلاً . . استخلفك رأس مولاي السلطان صلاح الدين أن تأذن بانصرافي في هذا السبيل وهذا حظ كبير لي »

وكان صلاح الدين في أثناء هذا الحدال عارفاً في التفكير عن سبب وقوع هذا الامر في هذه الليلة فلما سمع اسمه انبه لما يقوله عماد الدين فاجابه « ان هذه المهمة خطيرة جداً ونحن في حاجة اليك هنا » قال « اقسمت برأسك ان اذهب فأذن لي »

فالتفت صلاح الدين الى ابنه كأنه يستشيريه فقال بحم الدين « اطعني ودع عنك هذا الخطر »

قال « اني عبد مطيع واسكنني اقسمت برأس مولاي اني ذاهب في صباح الغد وبح أن يكون ذهابي سراً عن كل انسان لا يعلم به سواكما لاننا اصحفاً لا نعرف صديقاً من عدونا . . فلا يدع أن يعلم احد سبب ذهابي . . »

فقال صلاح الدين « ادا لم يكن بد من ذلك فامض وفقك الله لما تريده والكمي كمت واتما تتباحثان افكر في السبب الذي اوجب وقوع هذا الامر الليلة فلم اهدأ . . والكمي . . » وبدا كرحطبه سيدة الملك على يد الهكاري وترجح له أن هذا الامر هو الذي بعث على تحمس احد الاسماعيلية المستترين . والكمي لم يجد هذا العايل معمولاً فسكت

فلمحظ انه تردده قتال له « ما ذاك يا يوسف ؟ قل ما يخطر لك أعلماك فتقني الصريح امام عماد الدين الذي يهديك بروحه ؟ »

فقال « كلا يا اني واسكنني فبكرت في سبب ما حصل الليلة فلم يستقيم حكيمي بمصالح السكر »

قال « قل ماذا خطر لك »

قال « اعترف لك يا ابي اني ارتكبت خطأ في صباح الامس ساقني اليه تسرعني باغراء صديقي لي حمم . وذلك اني أمصيت امراً كان ينبغي قبل امصائه ان استشيرك فيه وها اني الآن الاقي عاقبة تسرعني »

قال « ما ذلك ؟ قل . . »

قال « اتاني صديقا عيسى الهكاري وانت تعلم صدق مودته لي ونصحه اياي فاقترح عليّ اقتراحاً يرى فيه خيراً كبيراً لي فاطعته ولكنني لم اكتب فيه كتابه بل تركت الامر مبهماً ريثما استشيرك »

فلم يعد نحّم الدين استطيع صبراً على فهم مراده فقال « وما هو هذا الاقتراح »

قال « عرض عليّ ان يحاطب الخليفة العاضد في امر احته سيدة الملك ان تكون روحة لي . »

فاناب البغنة في وحه بحم الدين وصاح فيه « وهل وافقته على ذلك ؟ »
قال « ترددت كثيراً وأحيراً رضيت ان يكتبني بالسؤال السفهي من عند نفسه »

قال « لا ترال تقدم على امور لا تليق بالسلطين . . ما لما ولهدا الرجل ولا أهل بيته . . لماذا نعرض نفسمنا للقتل ؟ . هل تعرف الفتاة . . »
قال « قيل لي انها بارعة في الاحمال حداً . . »

وكان عماد الدين يسمع الحديث ساكتاً فعلم انها يتكلمان عن سيدة الملك وكان قد رآها يوم واقعة العيد وارجع اليها حصلة الشعر كما تقدم وقد استلطها لـكنه لم يحلم بالحصول عليها ولذلك لما سمع طلب مولاه شعر بلدة ممروحة بالعبيرة . لدّ له ان تكون تلك الفتاة الحيلة لسيدة افضل من ان تكون لسواه لـكنه لما تصور ذلك احس بالعبيرة منه . ولخط نحّم الدين في

وجهه فكراً في الموضوع فقال له « هل تعرف الفتاة يا عماد الدين ؟ »
قال « انبحت لي فرصة رأيها فيها وهي في معطم الاضطراب أعني يوم
واقعة العبيد يوم امر مولاي النفاطس برحى المفط على القصر ثم امرهم أن
يكفوا عن رميه وكنت في جملة من دخل القصر ورأيت الفتاة في ضيق
اقتنبتها منه ولا ارال اذكر وجهها الحليل وسعرها الذهبي انما تليق بسيدي
صلاح الدين .. وهل هي تتوقع من هو حير منه »

فقال نعم الدين وهو يظهر انه وابق مما يمول « ما لما ولها .. لا أسك
في أن يوسف لم يطع الهكاري الا حياءً » ووجه كلامه الى صلاح الدين
قائلاً « هل اتاك الهكاري بحواب من الخليفة ؟ »
قال « اتاني انه خاطب الخليفة فاسمعه في الحواب ولا بدري
ما يكون »

وهو نعم الدين رأسه هر الانكار وقال « لا يسهل عليه الايجاب في
هذا الامر لان هؤلاء المساكن سديدو التمسك بهذه المقيم الباقية من
سيادتهم. أعني تمسكهم بمحمد الاسلاف وانهم من سلالة بيت الرسول وانا
لسا اكهلاء لسناتهم لاننا من الاعاحم » قال ذلك وصحك ملء فيه والتفت
الى صلاح الدين وراه مطرفاً يفكر وقد تذكر قول الهكاري انه اذا احتيج
الى سب عربي وضعه له غير ما يتوقعه من ضرورة الخلافة اليه أو الى
اولاده سب ذلك الرواح فلما التفت ابوه اليه استأنف الكلام قائلاً
« ألا يحسن لهم الاقتحار بذلك الامور السريفة ؟ »

قال « كيف لا ؟ ولذلك فات ابيهم صيادون لا يهرطون فيه وكفى
ترحو فمورل طمك وانت كرددى ؟ » وصحاح

هرأى صلاح الدين ان يقطع الحديث ايرى ما يأتي به انعد فقال وهو
يتحمر للهوض من المراتش « هي اتانا حواب الخليفة بطر منه » ولما نهض

كان الخنجر لا يزال ملقى على الفراش فأسرع عماد الدين اليه وتناوله وهو يقول « هل يأذن لى مولاي بهذا الخنجر ؟ »

وقال « أليس عندك خنجر ؟ »

قال « عسدي لكنتي اود أن أعمده في صدر ذلك الطاغية الذي هدنا به »

قال صلاح الدين وهو يلبس ثيابه « ألا نزال مصمماً على قتله ؟ »

قال « اقسمت برأس مولاي ان اقتله اذ لا سبيل الى الراحة منه الا بذلك . فارحوا ان لاتراجعني والتمس من مولاي الامير نجم الدين ان يزودني برضاه ودعائه وقد اقسمت ان لا تطلع شمس العد الا وانا خارج القاهرة »

فابتسم نجم الدين وهو ينظر الى عماد الدين نظر العطف والاعجاب وقال « يسرني ما اراه فيك من الحمية والغيرة على يوسف بل هي غيرة على المسلمين كافة لان هذا الاسماعيلى الشيطان قد افلق العالم بدسائسه وقتكه فادا تمكنت من قتله فانت امير كبير وقائد عظيم لا يتقدمك احد من رجال هذه الدولة غير اني يوسف هذا »

فاكرر عماد الدين هذا الوعد الصريح بالمكافأة الكبرى فازداد تمكناً من عزمه ولكنه اطلق خجلاً . فعاد نجم الدين الى اتمام حديثه فقال « ولكن هل تعرف الطرق وما يعترض عملك هذا من المخاطر ؟ »

قال « هب اني لا اعرف شيئاً الآن فلا يعجزني علمه »

قال « فتسنى هما بضعة ايام لاجل الاستعداد »

قال « قد اقسمت على الحروح الليلة من هذا البلد . وانما التمس ان لا يعلم أحد بجهة مسيرى ولا العرض منه »

وكان صلاح الدين قد آتم لبس ثيابه فقال « بورك فيك » ونظر الى ابيه فرآه ينظر الى عماد الدين وهو يقول له « وقتك الله في امرك كن متحاضاً واتقاً بنفسك واعلم انك اذا وفعت الى ما تريد اتيت عملاً لم يستطعه سواك فتتال ما لم ينله احد »

فهم عماد الدين بتقبيل يد نجم الدين ثم يد صلاح الدين وقال « استأذنكم في تدبير شؤونى اليوم وربما لا ترياينى بعد الآن لاني احب ان احرح من هذا البلد خلصة »
قال نجم الدين « افعل ما بدا لك »

الفصل الرابع والعشرون

الرساله

شرح عماد الدين لمدبر سفره واعداد ما يلزمه وقد اخذت مهمته بتجلي له بما يحقق بها من الخطار العظيم والكمه صمم عليها ولا سيما بعد ما سمعه من الوعد بالامانة

قصى معظم الدمار في منطرة اللؤلؤة وهو يتبأ للسفر حتى اعد كل ما يحتاج اليه وفد مالت الشمس الى الاصيل . فانفرد في عرفه يكره في مهمته واذا بطارق يطرق بانه فاحمل لانه لا بطرق بانه احد لا سيما وهو على اهمية السر . فمض وفتح الباب فرأى علاماً صقلياً يظهر من ثوبه وشكاه انه من غلمان قصر الحليفة فاسعرب ذلك ودخل العلام وقال « ألعلى في حصره المارس عماد الدين ؟ »

قال « نعم ما وراءك ؟ »

مد العلام يده الى حبيبه وهو يسير الى عماد الدين أن يعاى الباب خوفاً من أن يراه احد واستخرج اعماه دوعها اليه . فتساو لها ولم يتم فصها

حتى اقشعر بدنه لانه رأى فيها خصلة الشعر الذهبي التي كان قد ارحمها الى سيدة الملك فبانّت البعثة في وجهه لاسكنه لحد وأخذ يتفرس في السكتاب فاذا هو رسالة محتصرة بلا نوقيع . فاغلق الباب وتحول نحو الداخل وهو يقرأ وهذا نص الكتاب :

« الى البطل الباسل عماد الدين . اعلم يا سيدي انك نجيت نفسك شريفة من القتل والعار وهذه النفس تحتاج الى رؤيتك لتكافئك على صيغتك . وقد كلفتني أن ارسل اليك العلامة التي ينطوي عليها هذا الكتاب لتتأكد صدق قولي . فاسرع اليها على عجل فانما نستصرخك وقد لينما من قبل بلا استصراخ . وحامل هذا السكتاب يرتدك الى الطريق »

فرع من تلاوة الكتاب وهو يحسب نفسه في حلم فطل هنيهة كالعائب يهكر في ما يعمله أيجيب دعوة الداعي وهو على اهبة السفر ؟ أم يعتذر وهي تستصرخه . وأحس عند رؤية الشعر بجاذب يدعو الى الاجابة . وتذكر ما بعثه على حمل تلك الحصلة من دمتق الى القاهرة حتى دفعها الى صاحبها حرصاً على كرامتها بدون أن يعرفها وكيف تدعوه بانفظ الاستصراخ ولا يذهب اليها ؟

وكان الغلام في اثناء ذلك واقفاً ينتظر الحواب فلما استبطأه حطا خطوة نحو عماد الدين فانتهبه هذا لمسه فالتفت الى الغلام وقال « ما وراءك غير هذا السكتاب ؟ »

قال « هذا كل ما لديّ واسكنني امرت اذا استفهمتي عن الطريق أن ارشدك اليه »

قال « وكيف ذلك ؟ هل يحفل احد الطريق الى قصر الخليفة ؟ »
فانسم الغلام وخفض صوته وقال « لبس القصر مجهولا ولكن

صاحب هذه الرسالة في قصر النساء ولا سبيل لرجل الى هناك ولا سيما بعد ان جعلتم الاستاذ بهاء الدين قرافوش قيماً فاصبح اذ لم يمنع من عقاب الجو » قال « اذا كيف يمكن الوصول الى المكان المقصود ؟ »

قال « اذا كنت قد صممت على الذهاب فاني ادلك على طريق توصلك الى داخل قصر النساء ولا يسعرك احد »

فاستغرب قوله وقال « اظنك تعني أن اتنكر بثوب جارية »

قال « كلا . . فان هذا لا يعني شيئاً . . اذ لا يستطيع احد المرور من الباب ان لم يعرفه الحاجب باسمه واقبه » قال « كيف اذاً . . قل . . »

قال « اعرف طريقاً سرّياً في سراديب تحت الارض بين هذه المنظرة وقصر الخليفة لا يعرفها الا القليلون » قال « سراديب تحت الارض »

قال نعم يا مولاي . . لما نرى الخلفاء العاطميون قصورهم ارادوا أن يكون لساكنهم طريق يخرجهم منه الى الحدائق والبساتين او الى المطامر القائمة على ضفاف هذا الخليج . فاصطنعوا لهم سراديب تحت الارض ينزلن اليها من وسط القصر ويمتدين فيها بلا حجاب حتى يخرجون الى البساتين . وفي جماعتها السراديب المؤدية الى هذه المطرقة فانها كانت مطروقة اكثر من سواها لكثرة تردد الخلفاء واقامتهم بها . حتى أن ثلاثة منهم ماتوا في هذه المطرقة وحلوا في هذه السراديب الى القصر وهم الآمر بأحكام الله والحافظ لدين الله والمائر^(١) . ثم اهل امرها بعد نزول غير الخلفاء في هذه المطرقة . وتموسيت منذ عدة سنوات ولكنني اعرفها فادا احسنت ان اسير في خدمتك فعلت »

الفصل الخامس والعشرون

السراييب

فتحير عماد الدين في امره واستغرب وجود هذه السراييب واعمل
فكرته في هل يحيب الدعوة ام يعتذر لانه على وشك السفر. والتفت الى
نافذة العروة يتطلع الى الشمس وراها قد دبت من الميعيب وهو لا بد له من
مغادرة القاهرة في تلك الليلة كما اقسم ووعده فمادى العلام اليه وقال « كم
يقتضي لنا من الوقت لصل الى القصر ؟ »

قال « لا يستغرق سيرنا الا دقائق معدودة »

فقال في نفسه « احيب الدعوة واعود سريعاً فاسافر » والتفت الى
الغلام وقال « هلم بنا »

قال « تمهل ريثما تعيب الشمس فنذهب في الظلام لتلا يشعر بنا
احد من اهل هذا القصر »

فتمصور عماد الدين الخطر المحقق به في هذه المهمة لكنه اكبر أن
يتخوف او يحسب للمحاطر حساباً وهو الزاهب لقتل رعيم الاسماعيليين .
فقال « انتظرنى اذاً خارج هذه المطرة والايك ههناك بعد العروب »

قال « حسناً .. سأمكنك في انتظارك تحت هذه الحيزة بجانب الخليج
فاذا رأيتك قادماً تقدمت نحوك ومعى الرداء الذي ينبغي ان تلتف به في
اثناء الطريق وعند الوصول الى القصر لتلا ينكر احد من أهل القصر هذا
اللباس » قال ذلك وخرج وخلف عماد الدين على مثل الجر من القلق .
فلما حلا بهمه استأنف البطر الى ذلك الكتاب واعاد قراءته وتذكر
المرّة الاولى التي شاهد بها صاحبة ذلك الشعر وما سمعه عنها بالامس من

امر صلاح الدين فرأى أنه قد يستطيع خدمة مولاه باجابة سؤلها فيحرضها على القبول به . ولما تصور ذلك هبت العيرة في قابه . ولكنه تعمد الاغضاء من هذا الشعور حباً بمصلحة مولاه

ولما سدل الليل ثقبه خرج باخف ملابسه وسلاحه حتي دنا من الحيزة فرأى شبكاً كانه امرأة قادماً نحوه فتقدم اليه وتفرس فيه فادا هو العلام قد التفت بملاءة كالارار أو المطرف ودفع اليه ملاءة التف بها عماد الدين ومتى العلام بين يديه في الدستان لا يرون شيئاً غير امتاح الاشجار تتراءى بينهما وبين الافق . مشياً مدة لا يكلمان ثم التفت العلام الى عماد الدين وأمهك بيده كانه يقوده الى نزلة فنزل معه الى حفرة . ومد العلام يده الى اعشاب ناسية اراحها فوصل الى باب من حديد فيه حلقة قض عليها واعاناه عماد الدين وفتح الباب فشرع عماد الدين بربح فيه رطوبة وعفونة فعلم انها اتت من ذلك السرداب . فقال له العلام « اتبعني يا سيدي اقتص خطواني »

فتبعه وشعر انه يمتشي على ارض مرصعة بالحجارة ولكن الظلام كان شديداً جداً وأحدث رائحة العمونة تشتد كلما معنوا في السرداب . فخاف عماد الدين ان يكون قد فرط بنفسه فقال « هل انت على ثقة من امر هذا الطريق ؟ »

قال « نعم وقد حثت فيه اليك اليوم »

فاطمأن حاطره وسكت وهو يخطو ويتلمس الجدران . ثم سمع وقع اقدام فوق السرداب فقال له العلام « نحن الان تحت القصر الصغير وبعد قليل نمر تحت الميدان وليس بعده الا قصر الحليفة فقصر النساء »

ولما أحس العلام انهما تحت قصر النساء أشار الى عماد الدين أن ينف موقف . فتقدم هو الهه بها حتى رفع باب السرداب فصعد عماد الدين

بالنور وبعد قليل اتاه العلام وأمسك بيده وأشار اليه أن يخرج . فصعد بضع درجات فاذا هو في عرفة فيها مصباح فطر الى نفسه وإلى رفيقه على النور بعد هذه السفرة في الطلام فرأى عليها التراب وسيج العماكب فنفض الرداء ونظر الى العلام وأشار بيده يستفهم عما يعمل فإوماً اليه أن ينزع الملاء ويتبعه ففعل فدخل حجرة مفروشة باحسن الرياش فتحقق انه في قصر الخليفة أشار اليه الغلام أن يقعد وينتظر وخرج هو . فقعده وقلبه يحقق تطلعاً لما سيراه في تلك الليلة وتذكر محبته الى هذا القصر من عهد غير بعيد — وكيف رأى سيدة الملك . وطال انتظاره حتى تولاه القلق . وادا بالعلام فد عاد ومعه ياقوتة الخاضعة خالماً وقع نظره عليها تذكر انه رآها قبل ذلك الوقت

اما هي فاسرعت اليه وحيته وأشارت الى العلام ان ينصرف فانصرف وظلّت باقوتة وحدها مع عماد الدين فقالت « لقد اتعباك يا سيدي واتينا بك في هذا الليل »

وقال « لا بأس يا سيدي وإنما ارحوان لا يكون لاستقداي سبب يوجب القلق »

فتسححت وقالت « لا والحمد لله . . ألا تذكر انك رأيتني يا عماد الدين ؟ » قال « بلى ادكر ذلك جيداً »

قالت « اما انا فلا اسى قدومك في ذلك اليوم العصيب . . وما اتبته من الارباحية والنخوة في انقاذ مولاتي سيدة الملك من خطر الموت . انها لا تبفك تذكر ذلك الفصل لك . وكثيراً ما تمت ان تراك لتكافئك على صيغتك ولكيك لم تعد »

فقال مسرعاً « لاني لم أفعل ما فعلته لاجل المكافأة . . وأنا غني عن ذلك بفضل مولاي صلاح الدين »

قالت « طبعاً .. ولكن المكافأة لا تعطى دائماً للحاجة اليها بل هي تدل على امتنان المعطي نحو المعطى له .. وعلى كل حال فليس ذلك من شأني بل هو يرجع اليك واليها فاذا التقيتما صرت انا عربية . أليس كذلك ؟ » قالت ذلك وضحكت وفي عينيها وعنة صوتها معنى لا يعبر عنه بالكلام فتوسم عماد الدين في كلامها معنى اختلاج له قلبه ولم يصدق نفسه لما يعلمه من البون البعيد بيه وبين سيدة الملك وهي أخت الخليفة اعظم نساء المسلمين بمصر . فقال وهو يتجاهل مرادها « كيف مولاتنا سيدة الملك ارحوان تكون في خير وعافية ؟ »

قالت « ألم تصلك رسالتها ؟ »

قال « كيف لا ، وما الذي أتى بي في هذا الوقت »

قالت « وخصلة الشعر ؟ »

ثم بدد واستحرجها من حبه وقال « هذه هي »

قالت « ألا تريد أي تردها اليها كما رددتها في المرة الماضية ؟ »

قال « بلى . وأنا جئت اجابة لدعوتك لانك قلت أن سيدة الملك

تستصرخني وهل هناك باعث هام ؟ »

قالت « انما بعثها على ذلك رعتها في مكافأتك . وفد كلمتي ان ادفع

اليك هذا العقد » واستحرجت عقداً من اللؤلؤ لم يقع بحضر عماد الدين عليه

حتى دهش . وقدمت العقد اليه فتناوله ولم يطرأ عليه بل اعاده اليها وهو

يقول « شكراً لمولائي . اني في غنى عن تحميلها هذه الثقة لاني لم افعل

ما علمته طمعاً بالمكافأة »

فاستعظمت هذه الانفة منه وقالت « اني مأثوره بايصال هذه الهدية

اليك فادا كنت لم تقبلها فاني ادعو صاحبها لتقديمها بمهرها .. ولكن احذر

أن تكون قاسياً يا عماد الدين »

فزاده هذا التعبير بياناً لما توسمه في عبارتها الاولى فسكت. وقد ارتبك
في أمره

الفصل السادس والعشرون

اللقاء

أما هي فنهضت وخرجت وتركزت العقد في مكانها على البساط وظل
عماد الدين وحده وهو مرتك لا يدري ما يقول أو يعمل. ثم عادت ياقوتة
وسيدة الملك وراءها وقد التفت بالقباب حتى لا يظهر إلا عيائها وبعض
حبيها فلاحظ في عينيها دبولاً وقد تعيرب عن دي قبل. فلما رآها دخلت
وقف لها وتأذب وأطرق فتقدمت اليه وهي تماسك وقالت « احلس
باعمد الدين .. انك دو فصل على حياتي وسري ولا حاجة الى الوقوف لي.
احلس . قد اتعماك بهذه الدعوة الليلة وارحماك فصباغت فصلك عليا .. »
قالت ذلك وهي تقعد وتشير اليه ان يقعد فتعد وطلت ياقوتة واقفة وهي
تتناول العهد عن البساط ثم دفعته الى سيدة الملك وقالت « هذا العقد دمعته
اليه حسب امرك فلم يقبله » فتناولته واتجهت نحو عماد الدين وقالت
« ارفض هدية صغيرة قدمتها اليك وانت قد اهديتني حياتي ؟ » ومدت
يدها نحوه والعقد في كفها وهي تتوقع ان يمد يده فيتناوله منها . فلما ابطأ
تصدت ياقوتة للكلام قائلة « ماذا أوصيتك باعماد الدين .. ألم اقل
لك لا تكن قاسياً ؟ »

تحلل ومدّ يده وتناول العقد وهو يقول « اني اقبله هدية لا مكافأة »
ولما مد يده ليتناوله لمست انامله كعها فاحس بردها وارتعاسها واحسنت هي
برعشة كبر بائية سرت في عروقها . وان البشري محياها فمدت ياقوتة

وهي تضحك وتقول « ها انه قبله منها ولم يقبله مني »
 فقطع كلامها قائلاً « لانك اردت أن آخذه مكافأة على خدمة فلم
 قبله طبعاً لاني اذا كنت قد فعلت خيراً فلم اقبله طمعاً بالمال .. و .. »
 فقطعت ياقوته كلامه قائلة « طمعاً بماذا اداً ؟ يظهر انكما تعارفاً قبل
 ذلك اليوم و .. و .. » وضحكت

فاستعرب تعريض هذه الحاضرة بحب متبادل بينهما وهو لا يعلم شيء
 من ذلك وانما يعلم انه استلطفها ومال اليها ولم يحلم انها استلطفته او مالت
 اليه . ولذلك لم يفكر فيها لاعتقاده استئحالة حصوله عليها . ولما سمع ذلك
 التعريض تحرك فانه وأوشك أن يسعر بالامل فاعتدّص افكاره صلاح
 الدين وما سمعه في ذلك اليوم من خطبته اناها فاذا ذكر على نفسه ان يتمسدى
 لامر يخلص مولاه وهو يهديه بروحه . واصبح يعد حديثه معها حيانه
 لكنه لم يحسر على التصريح بذلك فتجاهل وقال « انما فعلت ما فعلته
 يومئذ مدفوعاً بما تعرضه علي المروءة .. من يستطيع ان يرى سيدة الملك
 بين يدي الاسرار يريدون ان يباحقوا الادى بها ولا يهديها بروحه ؟ »

فالتقت سيدة الملك نحوه وقد ضايقها القاب وخافت ان ينعها عن
 الكلام فاراحته عن فيها وقالت « لا بأس من كسف هذا الوجه بين
 يديك فانك صاحب الفصل في بقائه .. انك استعرب وعود رجل يستطيع
 أن يراني في ذلك الخطر ولا يهديني بروحه .. لا تستعرب ذلك يا عماد
 الدين فقد كان في قصرى سمرايت من اهلى وعسيرتى لم يقدم احد منهم
 على ما افردت انت عليه وكأ انك كنت على موعد من تلك الساعة
 فدفع الي حصار السعري صباه لها ولي . هل ألام اذا انطرب اليك
 اضري الى ملاك دمع من السماء لا تنادى أما ان فلا اعلم كيف كان
 شعورك في تلك الساعة ... »

فرأى في اطرائها اسارة الى حبها الكنه كذب نفسه وعاد الى الاسكار فقال « أما شعوري فهو انا وأنا في خدمة مولاي السلطان صلاح الدين وقد امرنا ان نكف عن رمي النفط وقع بصري على زحاجة نعط سقطت في هذه الدار وانا على يقين انها ليست من عندنا فاستعربت وقوعها . ثم رأيت ندلاً ملثماً اغتتم اشتغال أهل القصر بانفسهم ودخل كالذئب الكاسر ومعه اناس ارادوا القبض عليك فلم اتمالك عن الوثوب عليهم ولم اكن أعلم انهم يريدونك ولا انك سيدة الملك أحت الخليفة . فلما وقع نظري عليك ورأيت هذا الشعر الذهبي علمت انك هي . وكانت تلك الحصلة في حبي فدفعتها اليك ... »

فلما سمعت اسم صلاح الدين احمات لكنها مالت الى معرفة قصة خصلة الشعر فقالت « من اين وصلت هذه الحصلة البك ؟ »

فتوقف عن الحواب حتى خاف أن ترتاب منه ثم قال « اتيت بها من دار السلطان نور الدين صاحب دمشق .. مالما ولهذا . وقد سألتني عن شعوري في تلك الساعة فهو انا شعرت بحمية لم أستطع دفعها ووثت لمقاومة أولئك الاشرار وانا لا أعرفهم ولا أعرف على من هم واثون . فلا فضل لي على سيدة الملك لاني لم اكن اعرف انها المقصودة بالادى وانما فعلت ما فعلته مدفوعاً بالمرؤة »

الفصل السابع والعشرون

التاميح

وكان يتكلم وهي تنظر اليه وتكاد تتلقفه بعيديها فلما وصل الى ذكر المرؤة صاحت فيه « ومن أجل هذه المرؤة شعرت بهذا الشعور ورعبت في استقدامك لا اعترف بحميلك »

فجعل من هذا الاطراء وقال « العفو يا سيدتي ان مثلي لا يستحق هذا الاطراء من اخت امير المؤمنين لاننا عبيد ويجب علينا التفاني في الدفاع عن صاحب هذا المقام السامي »

فاستدبرته قائلة « اسمع يا عماد الدين .. لست عبداً لا ... لو انك اندفعت الى هذه المقبة لاجل اخت الخليفة لقلنا انك فعلت ذلك تقرباً من امير المؤمنين . ولكم انما دفعك اليها نفس ابيه وهمة عالية واربحية ومروءة لا نعهد مثلها في من نعرفهم بين اطربنا من الامراء وانباء العلماء . وهذه الحصال رفعت قدرك وجعلتك في مصاف الملوك .. لا تقل انك عبد معاذ الله .. بل انت امير من اعظم الامراء وستكون كذلك قريباً اذا شئت .. » وظهر في عينيها معنى لم يترك لعماد الدين سبيلاً للتجاهل . وانجبه قولها انه سيكون اميراً وهو في ذلك اليوم اوتسك ان يصير من الامراء بما آتته من اعجاب نجم الدين به وتقديره . وتدكر المهمة التي هو داهب فيها وما وعده به نجم الدين اذا فارها . فمماثل من مطابقة قولها قول نجم الدين انه امير او سيصير اميراً عن قريب . ثم انتهت شأته انه قد مضى هريع من الليل خاف ان يطول الكلام في تلك الحادثة ولم تعجبه مقدمات الحديث اعلمه بما طلبه صلاح الدين من احبها وحيل له انها استقدمته لامر يتعلق بذلك الطلب اذ لا يزال يستبعد ان يكون هو المقصود به . واراد ان يتحقق طمعه فقال « اذا صرت شيئاً مذكوراً فاما يكون الفضل فيه لمولاتي سمدة الملك لانها احسنت الظن بعادها فقدمه مولاه السلطان صلاح الدين في مساء الامس حتى جعله اقرب اعوانه اليه »

ولما سمعت ذكر صلاح الدين للمرة الثانية احذلت وانقضت نفسها وتدكرت ما جرى لها بسببه ولم يعجبها اعلان اسمها اسمه في هذا الموضوع . اكدت اسررت لقوله ان صلاح الدين قدمه فقالت « لا عرابه في تقديمك

فانت اهل لاكثر من ذلك .. الملك امير وسيد وستنال مقاماً لم ينله صلاح الدين وان ياله هو ولا غيره من السلاطين أو الامراء .. هذا اذا شئت ..» وتلعم لسانها وغلبت على امرها وابرقت عساها وبان الحياء في محياها فاطرقت . وكأنها ندمت على ما فرط منها فجعلت تتشاغل بتثنية طرف حديثها المرسل على صدرها من تحت المقاب

أما هو فلم يبق عنده شك بما تعنيه واستعظمه منها وهاحت عواطفه واحسَّ بانعطاف جديد نحوها بعد أن سمع تصريحها أنها تحبه وأنها تفصله على صلاح الدين . لكنه تذكر ان مولاه صلاح الدين يريد ما مع انه لا يرحوان ترضى به فاستنكف أن يقوم مقامه أو يقف في سبيله أو يعتدي عليه وهو صبيته وقد صمم أن يقتديه بروحه . فلم يمالك عن الدهوض وقال « ان سيدتي بالعت في اطراء عمدتها كبراً فانا صبيحة مولاي السلطان ولا احبي عنها اني ذاهب هذه الليلة في مهمة تخصه واخاف ان تأخر عنها اذا أطالت المقام هما »

فامسكت بيده واقعدته وقد بانث ابهة الملوك في وجعها وقالت بصيعة الامر « لا است عبداً لاحد ولا صبيحة احد . وقد قلت لك الملك امير وسيد ... لا .. لا ينبغي ان تذهب في خدمة احد اني في حاجة اليك وقد استصرختك .. اين حميتك ومروءتك .. ؟ »

ولما قبضت على يده سرت الرعدة في كل اعصائه وقعد بالرغم منه لكنه لما سمع كلامها خاف ان يغلب على امره فقال وهو يتحمر للدهوض « ان هذه المروءة نفسها تحملي على الذهاب الآن لاني تعهدت بامر لا بد من الذهاب فيه وهو يخص مولاي صلاح الدين ... واذا كانت مولاي ترى في هذه المسأبة وأنا صبيحة صلاح الدين وخادمه فكيف لو عرفته هو ؟ »

فنفرت من هذا الخواب وكانت لا تزال قابضة على يده فتركها وأعرضت بوجهها وهي تطهر الغصب فصدت الحاضنة ياقوته وقالت « ما نالك يا عماد الدين ؟ تخاطبك مولاتي من السرق فتحييها من الغرب ألم تفهم مرادها ؟ »

قال « نعم فهمت ويسرني رضاها عني وقد عمرتني بفضلها وابعادها . ولكي صبيحة السلطان صلاح الدين وانا ذاهب في خدمته » وتحول نحو سيدة الملك وقال « لماذا غضبت مني يا سيدتي انما التمس رضاك » فسر لها عتابه والتفتت نحوه وعيهاها تعاتبانه وقالت « لاني اخاطبك واطلب الخواب عن نفسك فتحييني عن صلاح الدين ما لنا وله . دعه في سلطانه انه لا دخل له في هذا الخدب .. ألم تفهم ؟ »

فتحير عماد الدين في امره وارتح عليه وعلم انها لا تريد صلاح الدين واوتسك ان يغلب على عمله .. من تقف هذا الموضع ولا يعبه الهيام ويتسلط على قلبه ؟ اسكن عماد الدين كان قوي الارادة شديد الاحترام لصلاح الدين وكان تلك الليلة في ساعل عن كل شيء بامر رعيم الاسماعيلية وسفره فتحلده ونهض بلطف وهو يقول « فهمت يا سيدتي على قدر امكاني واذا لم افهم فلايني ارى نفسي لا استحق هذه المعزة . ولا ارال ارى مولاي صلاح الدين احق بها .. لا تعصي يا سيدتي ان صلاح الدين لم تعزيمه ولو عرفته اصربت بعماد الدين عرض الخائط .. ومع ذلك فاني طوع امرك ولكن ... »

فقطعت كلامه وتوسعت نوره وهي تتسهم والدمع يتلاذلي عينيها وقالت « لا تقتل ولكن ... بل هل انك تطيعني في ما ارادله »
فال « اطيعك في كل شيء ولكن بعد رجوعي من هذا السر .. ان سفري لا بد منه وقد اقدمت ان اكون في صباح الغد خارج هذا البلد .

ومضى بعض الليل وانا لم اتحرك من مكاني .. فبالله اسمحي لي
بالانصراف الآن .. »

فقلت والدهشة طاهرة في وجهها « تصرف الآن ؟ الى اين ؟ »

قال « الى مطرة اللؤلؤة ومن هناك اركب حالا واسافر .. »

قالت « تسافر ؟ ويلاه ! الى ابن ؟ »

قال « في غرض يختص بمولاي السلطان .. »

فاطرقت وهي لا تدري ما تقول تخاف ان يجر الحديث الى ما لا
يقوى على دفعه وقد احس ان الحب كاد يستولي على ارادته وهو حريص
على القيام بوعده ولا سيما بعد ان اقسم ومهم فقال « اسمحي لي يا سيدتي
بالانصراف اني رهين امرك ولولا ما سوس من تعهدي بامر السفر لما خالفتك
في تتيء وليكنني ساعود سالماً ان شاء الله وعند ذلك لا ترين مني الا
ما يرضيك .. استودعك الله الآن »

الفصل الثامن والعشرون

المباغنة

قال ذلك ومد يده لمصاحفها فلم تمد له يدها رغبة في استبقائه لتم
حديثها او لعلها تنبيه عن السفر . وادا هي تسمع وقع اقدام مسرعة خارج
باب العرفة فظرت الى ياقوته ورأتها قد امتقع لونها وتحفرت للدهوض . ولم
تكذب تقف حتى رأت علامها الذي جاء بعماد الدين داحلاً والمعة على
وجهه مع الخوف فصاحت فيه « ما وراءك ؟ ويلك ! »
فقال وصوته يرتجف « ان الاستاد بهاء الدين قراقوش يطالب
أن يراك ؟ »

فاجفلت عند ذكر اسمه وقالت « ولماذا ؟ وكيف .. ما له ولما ؟ »
قال « كنت ساهراً لمراقبة كل حركة كما امرتني الحالة اطل على القصر
من شرفة الايوان فرأيت شبحاً قادماً من الخارج نحو باب هذا القصر لم
اعرفه لانه ملتف بعباءة كبيرة كأنه جاء منكراً شعلت اراقبه حتى وصل
الى باب القصر وطلب مقابلة الاستاذ بهاء الدين . فناء لمقابلته ودار بينهما
حديث لم اوهمه والكني لحظت ان القادم الخ عليه ان يقتش داخل البصر
وتأكد لي ذلك لما رأيت الاستاذ بهاء الدين دخل القصر بسرعة ورجع
ذلك الرجل كما جاء . وسمعت بهاء الدين يأمر احد الحشاشين بالذهاب الى
سيدتي واسرعت لاخبرك بذلك »

فاستولت الدهشة على الجميع وطلوا سكوتاً الا سيده الملك فقالت
« تباً لذلك الحائن .. لا أعلم كيف اطلع على محبي عماد الدين انى هنا ..
حتى وثى بما الى الاساد »

فمالت ياقونه « اتظنين محبي بهاء الدين تتعلق بعماد الدين »

قالت « لا ابد من ذلك واسكنه سيعود حائباً »

فقال عماد الدين « لا تخافي يا سيدتي ان روحي فذاك ماداً حري ؟ »

قالت « لم يجرسئ .. ولكمي ساذن بذهاك رغم ارادتي . وهذا

يسرك ولكمه سوءني » والتفتت الى العلام وفات « يا علام عد بعماد

الدين من هذا السرداب كما حست به .. » والتفتت الى عماد الدين

وفات « احوال تبني على وعدك وان اذكرك في اثناء سفرك .. واعلم

ان صاحبكم بهاء الدين هذا قد قلع كلامه وحال دون اتمامه وادباً لا ارال

في اوله لسكنى اتركهم الملق الى فطورك وما بدالك اياه فمالك . واحسني

عرب عن مرادي بملامسى اكثر مما يداني .. كنت قبل استقدامك في

س شديد وكنت ارجو ان يرول كل رأس بحصرك . فادانت سلى

سفر وحاء هذا الاستاذ فلم اتمكن من اتمام شكواي فاقول لك بالاختصار
اني اكر فيك دائماً وانا سحينة في هذا القصر . . وياحبذا لو اني اخرج
به معك الساعة . . » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فكان لذلك وقع شديد على قلب عماد الدين وهو ساق في مستقبل
العمر وبين يديه ان يرف ساء مصر واجملهن تشكوله حبها وتدعوه الى
قربها . فهاحت عواطفه وكاد يعلب على امره ويسى مهمته وانما عصمه ادب
نفسه وعلو همته واحترامه لمولاه فتجلد وسكت . لكنه اشار برأسه وعينه
انه رهن امرها بعد عودته وارادت أن تستريده ايضاحاً فتصدت الخاضة
بلهفة قائلة « يكلمي يا سيدتي . يكفي . ان بهاء الدين يطلب مقابلتك بالخارج
ولا يستطيع استمهاله » وتقدمت الى عماد الدين فامسكت بيده وحرته حتى
خرج من تلك العرفة الى باب السرداب . وكان الغلام في انتظاره هناك
وقد فتح الباب فالتف كل منهما بردائه وذهما واغلق الباب وعاد كل سي
الى اصله . وتمس سيدة الملك الى عرفة الاستقبال فرأت قراقوش في
انتظارها هناك . فاطهرت الاستعراب من طلبه مقاباتها في تلك الساعة

فقال « بلعي ان رجلاً عربياً دخل هذا القصر الليلة اين هو ؟ »

قالت « تسألني سؤالاً انت أولى بالحواف عليه لان معاتيج القصر
بيدك وقد سددت عليا الطرق والوافذ فاذا دخل عرب علينا فانت
المسئول »

قال « لم يدخل احد من باب القصر . . »

قالت « هل هبط من السماء ؟ » قالت ذلك بغضب

فقال « لا تعضي يا سيدتي اني اما اتصدى للسؤال حرصاً على كرامة
سيدة الملك وعملاً بأمر امير المؤمنين »

فضحكت ضحكة استهراء وغضب وقالت « ما احرصكم على اوامر امير المؤمنين وكرامة اخته . من ابيك بدخول الرجال الينا خلصة ؟ »
 فحل بهاء الدين من هذا التوبيخ وندم على نسره وقال « لم اقل انكم تفعلون ذلك عنوة يا سيدتي . . . ولكني اقول ما بلغني ولم اسمع من رجل حقير أو حاهل

وفطمت كلامه وقالت « مهما يكن من امر الذي بامك فانه يدل كاذب هذا هو قصري ابحت فيه عن شئت » قالت ذلك وتحولت من القاعة نحو عرفتها والحاضنة تهرع في أثرها وقلها يرقص فرحاً للمحاة من تلك المهمة السنيعة

الفصل التاسع والعشرون

الحب ساطع

فاما حلت ياقوتة سيدة الملك في عرفتها اكدت عليها وحملت تقماها وتداعبها وهي ساكتة وقد عادت اليها هواجسها ثم انتشرت من بين يديها وقالت « دعيني يا ياقوتة دعيني وسأني اني تعسة شقية . . . ويلاه ما هذا البلاء . . . لم اكد انوسم باباً للفرج حتى افعلت علي الابواب وسدت دوني السبل . . . » واحدت في النكاء

فعملت ياقوتة على التحفيف عنها وقالت « لا تكري نعمة الله . . . ألم تطمئني ان يحبك وهذا ما كتب تطلبين معرفته و . . »

فقطعت كلامها ببعض وقالت « يحمي ؟ هل فهمت من قوله انه يحبني . . . ألم نريه كيف كان مرتكاً في أمره وكما ذكرت له ما في نفسي حول الموضوع الى مولاه صلاح الدين . . . انه يحب مولاه فقط . . » قالت ذلك ومسحت عينها بمديلتها وهمت ان تعود الى الكلام

فسبقته يا قوتة قائله « ولكن جبه هذا مني على همة عالية
وارحية .. »

قالت « وما يهيدني اذا كانت هذه المناقب فيه ولا يجبي . وزد
على ذلك انه مسافر في مهمة في خدمة مولاه ولم يتأ أن يتأخر ساعة لاحلي
وانا تركت حسبي وسبي وعرضت نفسي لعضب احبي وسائر اهلي من
اجله فهل يدل هذا على حبه ؟ »

قالت « لا شك انه يحبك وقد توسمت ذلك في عييه لكنه شهم
اذا وعد وفي وقد اقسم أن يسافر الليلة فلا يريد أن يحنث عييه .
وأؤكد لك انه لو طال جلوسا برهة لرأيت منه كل ما يسرك لانه لم يكن
في اول الحديث يصدق انك تحييه ولم يكن يحلم بهذه العمة . فلما دنا
من الموضوع جاء هذا الطواسى وكدر علينا امرنا . ولكن كوني مطمئنة
انه سيعود اليك .. »

فعلت عليها الامل — والمحب كثير الريب لكفه سريع التصديق
قريب الامل — فلما سمعت قولها انه يحبها وانه سيعود اليها اسرق وجهها
وبان الاتسام حول شفقيها واقلبت بوجهها نحوها وقالت « صحيح ؟ هل انت
على ثقة مما تقولين ؟ هل هو يحبي ؟ » ثم اطرقت كأنها عادت الى رسدها
وصمت خديها بين كففيها وصاحت « ويلاه ؟ ماذا جرى لي ؟ من أنا ؟
أست سيدة الملك العاقلة الحارمة امة امير المؤمنين واخت امير المؤمنين
سلالة فاطمة الزهراء بنت الرسول ؟ ما الذي اصابني حتى صرت كالمحونة
واصح فلي اسيراً بين يدي شاب عريب لا حسب له ولا نسب أتسقط
ما يحود به على من كلمة عطف أو تودد .. وهؤلاء ابناء اعمامى الشرفاء
يتمنون منى لفته رضى : لله ما اتد وطأة الحب وما اقوى سلطانه . »
فلما سمعتها يا قوتة تقول ذلك توسمت منها الرجوع الى الصواب لعلها

تجوز من لواعج الحب فنادرتها قائلة « ألم اقل لك يا سيدتي .. ؟ قد كنت في نعيم وراحة قبل أن ... »

فأسرعت ميسدة الملك وضعت كفها على فم ياقوتة تعجبلاً في اسكتها وقالت « ومع ذلك فإن الحب يعزيني عن كل شيء ... يكفي ما رأيته من اقتناعي بكلمة من عماد الدين لوقالها للسيت كل شيء ومع ذلك فإن املي بأن اسمعها منه انسابي القصور والخلافة والسب السري . انساني كل شيء . ذلك هو الحب يا ياقوتة . ليس في الدنيا له منه اذا كان متبادلاً .. وهو بيننا متبادل ان شاء الله .. أليس كذلك ؟ »

فعدت الى مسايرتها وقالت « هذا ما قلته لك يا سيدتي .. فأتكلى على الله واصبري فان الفرح قريب »

فاحبت سيدة الملك أن تحتم الحديث بهذا الوعد واخذت تهتم بالذهاب الى الفرائس وياقوتة تساعدها

اما عماد الدين فانه دخل السرداب مرعاً ولم يكن يريد الرجوع هارئاً من وحه قراقوش أو غيره . ولكنه فعل ذلك صيانة لكرامة سيدة الملك وفراً من التأخير عن المهمة التي هو سائر فيها — مرفي السرداب متحسناً والعلام يسير بين يديه حتي وصل الى الطرف الآخر عند مطارة اللؤؤة . فخرج وعاد العلام الى القصر مسمى عماد الدين بين الاتسحار يطلب عرفته واداه هو يسمع المؤذن يدعو الناس لصلاة الفجر فاحمل ولم يكن يعلم نفسه تأخر بهذا المقدار فأسرع الى عرفته وأمر باعداد جواده واستعد للسفر وهم بالخروج فمل طلوع النهار حسب وعده . واداه بصلاح الدين يناديه من غرفته فأسرع مائياً فراه قاعداً في فراسه فاك على بده يقبائها فقال له « أنت مسامر يا عماد الدين ؟ »

قال نعم يا سيدتي .. فقد ابطأت فاني لا نطلع على الشمس

الا حارج القاهرة كما قلت »

قال « كمت احب ان اراك قبل الآن وقد سألت عنك مراراً فلم يحدوك في حجرتك . احسنت أن اراك لعلني اتيتك عن عرمك وانت سائر في مهمة يمكن الاسغناء عنها وربما كما احوج اليك ههنا في الخارج » قال « اني طوع امر مولاي . لكنني قد تأهمت للذهاب فادع لى بالمجاح وادافرت فبركه سلطاني ومولاي . وادامت فان روحى فداء قال ذلك ووقف ينظر الامر فاحابه صلاح الدين « سر بحراسة المولى ولا اوصيك بالتجاعة فانك تسجاع ولسكني لا احب أن تلقى بهسك في التهلكه فانك عرير علينا . . سر بحراسة الله »

فعاد وقمل يد صلاح الدين وحرر فرك جواده وسار ولم تمض دقائق قليله حتى صار حارج القاهرة وهو عليم بالطرق ومسالكها . وحالما حلا نفسه عادت اليه هواحه بما لاقاه من العرائب المدهسه في الابل الماصى ولما اسرقت الشمس توهم أن ما مر به من ذلك حلم رآه فى مامه اذ استبعد وقوع ما لقيه من الحماوة والتقرب من سيده ساء مصر لسنه ما لمت ان حس حبيبه فوحد العقد فيه حتى تحقق أن ذلك حدث فى البيطة فليتركه فى هواحه واعد الى اهل القاهرة

الفصل الثلاثون

الهكاري وقرافوش

تركما قراقوس بعد مفارقة سدة الملك وقد استعرب ما سمعه . لسنه ما رال يتوقع أن يجد أحداً فى القصر لان انا الحسن اكده وجود رجل غريب فعاد الى التفتيش فى كل مكان فلم ير أحداً . فعاد الى غرفه قرب باب القصر ورأى ابا الحسن فى انتظاره على مثل الحجر . وكان ينتظر أن

يراه قادماً إليه ومعه عماد الدين يرسف في القيود فلما رآه وحده صاح به
« ابن الرجل ؟ »

قال « يا للعجب كيف لم يحده . انا على يقين من دخوله هذا القصر .. وأنت تعرفه »

قال « عماد الدين خادم السلطان صلاح الدين »

قال « أنا على يقين بأستاذ ابن عماد الدين دخل هذا القصر . وأما عرضه فيه . فلا أدري ما هو السكي سمعت من بعض غلمان القصر ان لهذا الساب معرفة بأهل هذا القصر قمل أن صار الاستاذ بهاء الدين زمامه والآمر بالهائي فيه . فاعني أنه دخل إليه في يوم واقعة العبيد و .. »

قال: «جادى وهو من العارض بلحائل المنصر وإذا سألت دعوتك إليك»
قال: «ادعه أم؟»

ولما دخل العلامة تذكر فراقوس انه من فائمة العادان في قصور الخلفاء
فقال له « كنه » فاعلم بدخول الاحبال في القوس « ومن ابناك بذلك »

فالتفت الغلام الى ابي الحسن وقال « هل أقول ما أعرفه ؟ »
قال « قل »

فالتفت الى قراقوش وقال « علمت بدخوله لاني رأيته داخلاً القاعة
السكرية »

فصاح منه « رأيته بعينيك ؟ »

قال « نعم يا سيدي وقد مكك هناك مع سيدة الملك وحاصمها مدة »
قال « ولماذا لم تخبرني ؟ »

قال « لم اتحاصر خوفاً من سيدي فبلغت الامر الى مولاي ابي الحسن
ليبلغك اياه وهو من أقرباء أمير المؤمنين وله داله ونفوذ .. وقد فعل »
قال هذا لا يمكن .. لا يمكن أن يدخل أحد هذا القصر ولا أعلم به
وليس للعصر باب آخر غير ذلك — الا أن يدخل من الدهليز الذي يمر
به الخليفة من قصر الذهب وهذا عليه الحراس يجمعون ايا كان من المرور
فيكيف يتيسر لهذا الرجل الدخول ؟ »

قال « ان سيدي الاستاد رمام الفصور حديث العهد في هذا العصر
لا يعرف دخائله وسرايمه ودهاليزه وفي حملتها سرداب بينه وبين مطرة
اللولؤة ربما جاء عماد الدين فيه . »

فلما سمع ذكر مطرة اللؤلؤة أحل المحت الى وقت آخر وحتم الحديث
بقوله « وعلى كل حال فان هذا القصر لس فيه أحد من الرجال العرباء
الآن وادا كان فيه أحد فانه لا يفلت منه . وسامال حراءه . لان مولاي
السلطان أوصاني خيراً بالقصر وتدد على بالحافنة عليه لصيانة أهله . . .
واني شاكر للترييف اني الحسن على غيرته »

فقطع ابو الحسن كلامه قائلاً « اني أفعل ذلك عيرة على النسب
النسري الذي سمعني ناهل هذا العصر . ولكن لا بأس سيظهر الحق »

ثم حرج وهو يقول « لقد أزعجناك الليلة بلا طائل » وانصرف
 فلما حلا فراقوس بنفسه عاد الى التفكير واستعاد ما سمعه من ذلك
 العلام عن وجود الدهاليز والسراديب . وبعد اعمال المكرة ترجح له صدق
 التهمة فأرى أن يرفع الامر الى صلاح الدين . فلما كان الضحى ركب الى
 مطرة اللؤلؤة . ولكنه رأى أن يلي صدقه ضياء الدين الهكاري
 ليستتبره في الامر فلما دحول على صلاح الدين لانه أصبح في تلك الاثناء
 اكثر محالطة له منه . فلما وصل المطرة سأل عن القمه عيسى الهكاري فقبل
 له انه مفرد في عرفته . وهم الحراس أن يرحلوا بمراقوس ويبلغوا خبره الى
 صلاح الدين فاسار اليهم أن لا يفعلوا وتحول عن فرسه وطالب غرفة الهكاري
 في بعض أطراف الستان . فلما علم القمه بدومه وقف له ورحبه . وكانا
 صديقين لصطحبا في خدمة صلاح الدين وتعا في اسناد الوراثة اليه بعد
 عمه كما تقدم . وهما بتعايان في مصاحته

رحب الهكاري بهاء الدين قراقوس ترحيماً كثيراً وقال له « ماذا
 جرى ، ابي لم أشاهدك من عهد بعد تناولك بحراسة النساء وما أحذرك
 بقيادة الرجال .. » واسار اليه أن يجلس على وسادة فوق الطفيسة
 فجلس بهاء الدين وهو يقول « ان حراسة النساء أصعب مراساً من
 قياده الحمد لانهما تستمل على حراسة النساء من الرجال وأنت ماذا تعمل ؟
 هل دبرت شيئاً حديداً في خدمة هذا السلطان العظيم . ابي لا أدكر اسمه
 الا وبتلبل فاني فرحاً .. »

فقطع الهكاري كلامه قائلاً « صوب حافت » وخصوصاً لما تذكر اننا
 اسمعنا أن يضعه في هذا المصعب كما تعلم »

فابتدري بهاء الدين قائلاً بأهجة « احذر يا صاح أن تقول هذا ويسمعك
 أحد اد ليس على الملوك أنقل وقفاً من التمس . والا ما تفعل ؟ »

فضحك الهكاري وقال « انا ساع الآن في أمر لا أستعني فيه عن يدك . واذا نجحنا فيه يحى لنا ان نفاخر بما اديناه من الخدم الجليلة للسلطان صلاح الدين »

فتناول بهاء الدين بعقه نحوه وقال « وماذا عسى أن نفعل فوق ما فعلناه انه سلطان مطلق وليس بعد هذا المصعب مطمع »

قال « بلى .. ان السلطان يقدر أن يطمع بالخلافة »

وحول وجهه عه باردراء وقال « لا فائدة من مطمع لا سبيل اليه » فقال « لم أعهدك متسرعا .. متى علمت الطريق الذي اخترته غيرت ظمك في الامر .. »

قال « وماذا عسى أن يكون الطريق .. »

قال « طريق الرواح وقد حطمت له سبيله الملك احت الخليفة فاذا تروحوا فابنه مها يكتسب حقاً في الخلافة اذا اتحدت معه القوة كفى ليل هذا المصعب كما اراد طعل بك السلحوقي أن يفعل و .. »

فقطع بهاء الدين كلامه قائلاً « فهمت ما تريده وهو نعم الرأي ولكن هل رضي الخليفة أن يروح أخته لهذا المولى الكردي (وصحك) ؟ لا أطمح برضى »

قال « اذا لم يرض طوعاً رضي كرهاً . وقد وعدنا بالجواب بعد قليل » فقال قراقوش « لقد أدكرتني امرأ حثت من أحله وسعلتني عنه بحديثك . ان عماد الدين حادم السلطان ارتكب سطواً لا أدري اذا علم به السلطان ما يكون قصاصه وخصوصاً بعد ما علمه من خطبته و .. »

فقطع الهكاري كلامه قائلاً « لا نقل حادم السلطان بل قل صاحبه وحارسه الحاس »

قال « ومتى بلغ هذا المنصب ؟ »
 قال « بلغه أول البارحة على يد الأمير نجم الدين — لله هو من رجل
 كبير العقل عالي المهمة .. »
 قال « صدقت أن نجم الدين جذير أن يكون والد هذا السلطان ..
 وابن هو عماد الدين ؟ أحب أن أراه لأتهنئه واسأله سؤالاً »
 قال « خرج من هذه المنظرة في هذا الصباح في مهمة لا يعلم أحد
 حقيقتها .. وماذا تريد أن تسأله ؟ »
 فقص قراقوش خبر الامس كما جرى . فاطهر الهكاري ارنيا في صحة
 الرواية وأكد له أن عماد الدين قصى طول ايله في الاستعداد للسفر وبرح
 المطرة في الفجر . فوقع قراقوش في حيره وعاد الى الارتياح في الامر
 وخصوصاً بعد أن سمع حديث الخطة لكه اراد أن يطلع صلاح الدين
 على ما سمعه واستأثر الهكاري في ذلك فقال « دعه الآن لا تحمزه لثلاث
 يغير ذلك من عزمه على الخطة وأنا أحب أن يتم اقتراحه لأنى صامس المستقل
 بادن الله »

الفصل الحادي والثلاثون

جلسة تاريخية

وهم في ثلاث وبندهم هـ فرانس أن سلكم دخل عالم الهكاري وقال
 « في الباب رسول من هؤلاء الاطالان »
 وقال القتيبة « مدخل »
 فدخل العالم ولما رأى فرانس هـ ما انت البعثة في وجهه وقال
 « سيدي الاستاذ بهاء الدين هـا كـب راهباً اليه ايضاً »

فقال الهكاري « ما وراءك ؟ »

قال « ان السلطان يطلب حضوركم في القاعة الآن وقد أمرني أن ادعو سائر الخاصة وكنت عارماً على الذهاب الى القصر الكبير لادعي سيدي الامتاذ فاذا هو هنا »

فقال قراقوش « اما داهبان وماذا عسى أن يكون الباعث على هذه الدعوة ؟ »

قال « لا ادري ياسيدي ولكنني رأيت نحائناً وصل في هذا الصباح قادماً من دمشق ومعه رسالة رفعها الى مولانا السلطان فما زال مند تلقاها وهو يقلب فيها وقد تعير وجهه وبان الغضب فيه . ثم تناور مولانا الامير نجم الدين والظاهر انهما اقرآ على عقد جلسة للبحث في أمر هام »

فاشار قراقوش الى الهكاري بده مستفهما عما يعلمه من هذا الامر . فآشار الى العلام ان يصرف ومتى مع قراقوش وخاطبه في اساء الطريق سرّاً وقال « ان امر هذا الكتاب علمت به في هذا الصباح وقد استقدمني السلطان واطلعتني عليه وعملت عملاً ترضاه مني »

قال « وما ذلك »

قال « ان الكتاب من السلطان نور الدين صاحب دمشق شديد اللهجة جداً »

قال « وما سبب ذلك ؟ »

قال « ألا تذكر خروج مولانا السلطان في صفر من هذا العام الى بلاد الشام لمحاربة الافرنج وقد حتمته في هذا السمر . فمازل حصص التوبك ثم طاب الكرك وحصره وضيق عليه وعلى من به من الافرنج حتى طلبوا التسليم والامان . لكنهم استمهلوه عشرة ايام فاحابهم الى ذلك . وكان السلطان نور الدين في دمشق فلما باعه ما فعله صلاح الدين ارتاب في امره

وانت تعلم ما بينهما من المحاذرة وما في نفس صلاح الدين من الطمع في سلطنة مصر لنفسه .. » قال ذلك وضحك فبادره قراقوش قائلاً « لا اظن احداً اطعمه فيها سواك وقد احسنت ... كمل »

فقال الهكاري « ألا تراه اهلاً لها ؟ ما لنا ولذاك .. ان نور الدين لما سمع بما فعله صلاح الدين في السكرك خرج من دمشق قاصداً حرب الافرنج لعنهم تضييق صلاح الدين عليهم من جهة ويصيق عليهم هو من جهة اخرى فيذهب مسلحهم وقد رأيت في ذلك خطراً على سلطاننا لان نور الدين متى ادلّ الافرنج واحصعهم تفرع للسلطان صلاح الدين وهو وزيره والباس اطوع له مما الى وزيره فذهب مطامع صلاح الدين بمصر ادراج الرياح والافضل ان يبقى نور الدين مشغولاً عن صلاح الدين بمحاربة الافرنج حتى يقضى الله امره كان مفعولاً .. »

فقطع قراقوش حديثه قائلاً « لله درك من داهيه واحسبك عرضت هذا الرأي على السلطان .. »

قال « عرصه علمه بعض الناس واسار عليه ان يرجع لمصر بحجة يتجملها ومما قالوه له « ان دخل نور الدين بلاد الافرنج وهم على هذه الحال انت من جانب ونور الدين من جانب ما كفا . ومتى زال الافرنج من الطريق واحد ما كهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين وان جاء نور الدين اليك وانت ههنا فلا بد لك من الاجتماع به وحيثئذ يكون هو المتحكم فيك . ان شاء تركك او لا فمد لا تقدر على الامتناع عليه . والمصاحبة ارجح الى من .. »^(١)

فرجع مولانا السلطان الى مصر كما نعلم تركب الى نور الدين يعتذر باختلال الديار المصرية بالامور الباهية من بعض سبيعه العلوان وانهم عارمون

على الوثوب بها فيخاف عليها من البعد عنها ان يقوم اهلها على من تخلف بها فيخرجوهم وتعود ممتعة — واطال في الاعتذار . فيظهر ان نور الدين لم يصدق هذه الاعتذار . فمعت اليه كتاباً يهدده فيه ان لم يأت الى دمشق . فلقيته في هذا الصباح وقد أخذ منه العضب مأخذاً عظيماً فاسر الى غضبه وانه لم يعد يستطيع صبراً على كتمان عرضه شفت غضبه واستمهاته ولا اراه مصغياً ولا اخال هذه الدعوة الا لامر يتعلق بالكتاب »

وكانا قد وصلا الى فاعة الاحتماع والحرس ما بها فاراحوا لها الستر . ودخل المسكاري اولاً وتبعه قراقوش وكانت جلسة حافلة اجتمع فيها نعمة الخاصة من رجال صلاح الدين وأهله وفي جملتهم ابوه نجم الدين وحاله سهاب الدين الحارمى وابى اخيه تقي الدين

فالتقى المسكاري وقراقوش التحبة ورد صلاح الدين عليهما وقال « مرحباً بالقيمه الحكيم ضياء الدين وبالمطل الاستاذ زمام العصر بهاء الدين » وأشار اليها بيده فجلسا وعينا المسكاري تراعى صلاح الدين فرآه رعم ما يحاول اظهاره من النؤدة وسعة الصدر وسكون البال قد تجلى العضب في عيه

فلما استقر المقام بالجلوس قال صلاح الدين « يا نخبه الامراء الابطال وحيرة الاهل والحلان ان السلطان نور الدين صاحب دمشق اقلق راحتنا بمراسلاته وهو يطلب اليها الذهاب اليه . ونحن في ما تعلمون من حرج المقام وما يحرق ما من الدسائس والمسكائد في لد كل اهل اعداؤنا يترقبون منا عقلة او ضعفاً ليأبوا ما . فلما اعمدرب له بذلك كتب الى يهددني انه حامل عاييا بحيله ورحله . واتم رحالى واهلى وما يعال لي كانه يقال لكم . فلم أنشأ ان افطع في الحوار ول ان اشاوركم ههنا ترون ؟ »

وكان صلاح الدين يكلمهم والاضور سكوت كأن علياً ووسهم الطائر

أن نور الدين إذا سمع عزمنا على معه ومحاربه جعلنا أهم الوجوه إليه ؟
 وحينئذ لا بقوة عليه . وأما إذا بلغه قولى واننا فى طاعته تركنا واشتعل
 بعيرنا ريثما تعمل الافذار عملها . . » ثم وجه كلامه الى الهكاري وقرأ فوس
 وقال « والله لو اراد نور الدين قصبة من فصب السكر بمصر لقاتله عليها
 حتى امعه او اقبل » قال ذلك وعينه تتلألأ

فهم صلاح الدين بيد أبيه يقبلها وقال « صدقت يا ابي . قد بطقت
 بالصواب وأنا فاعل ذلك بادن الله . . ما احوخني الى رأيك وتدبرك »
 والتفت الهكاري الى فرافوس ولسان حاله يقول « ألم اقل لك
 هذا »

فاكب فرافوس على يد يحم الدين مقبليا وقال « لاحرمنا الله من
 رأيك ناسيدى . . » وقبل أن يفرقوا سمعوا الآذان فذهبوا للصلاة ثم
 الى العدا

الفصل الثاني والتلاتون

الشلب

اما ابو الحسن فلما عاد بصفقة المعبون ولم يظاهر بعماد الدين ولا استطاع
 اعاطة سيده الملك رأى أن يبالغ ذلك الى الخليفة ناسلوب يحكمه من مراده .
 فصهر حتى بالغ الهار وهو صاح الاتس أحد اليومين اللذين يجلس الخليفة
 بهما الناس من كل أسوة والام الاحرهم الخيس . فدخل ابو الحسن
 الممبلد الى اليوم الثالث . ومن ذلك اليوم وهو يدر الجبائل ونصب
 المكائد . ونكرت السمماج المالى الى نكت الخيس السريه فرحب به
 مسأله من الخليفة فقال « ان ربي وقا . لمتا المرض عابه بالامس حتى
 شعل الماء »

فابتدره ابو الحسن قائلاً « يطهر انه انتكس لما بلغه خبر قصر النساء »

فلم يفهم الخليس مراده فقال « وماذا جرى ؟ » وأشار اليه أن يتفضل بدحل

فاظهر انه أخطأ بذلك التصريح وانه يريد الكمان محافظة على كرامة أحت الخليفة فقال « لم يجر شيء » وجعل يلع ريقه وهو ياول خام البعلة الى السائس ويمتني مع الخليس الى قاعة الاستقبال فانطلت الخيلة على الخليس فقال « كيف لم يجر شيء وقد قلت انه جرى ؟ قل لا تخف عني .. فاني لا احاطب الخليفة بسأله اذا أحببت كما به عنه »

قال وهو يعد ويظهر عدم الاكترات « ليس هذا وقت الكلام بما يكرر الخليفة واما بهمني أن يسمى من مرضه . ما الذي حدث عليه حماء الله من كل سوء »

قال « ما زال مسد اصيب بالحمى يوم ذلك الاحتماع وهو متوعك المراح . فلما كان صباح الامس وهو يوم الجلوس للامس لم يحضر فسألت عنه فقيل لي انه قضى يومه في دار النساء وعلمت بعد الظهر ان الحمى عاودته بسدة .. »

فاظهر ابو الحسن الاهتمام السيد بالامر وقال وهو يطر في البساط « قضى بهار الامس في دار النساء ! واصيب بعد الظهر بالحمى .. فلا بد ان يكون طي الاول في محله »

قال « وما هو ؟ قل يا ابا الحسن . ما هي تلك تخفي عني شيئاً .. قل ماذا جرى في دار النساء ؟ »

قال « لا احب ان يشيع هذا الخبر حفظاً لكرامة اهل القصر .. علمت ان غريباً دخل ذلك القصر مساء اول البارحة وقضى معظم الليل فيه . ولما علمت بخبره اسرعت الى زمام القصر (قراقوش) وطلبت اليه القمض عليه فاذا به قد فرّ في السرايب .. أرايت ؟ أرايت هذه الطياشه »

فاطرق المجلس دهشة واستبعد ذلك الخبر لعلمه انه ما من احد يجاسر على عرض الخليفة ولا يعقل انه يستطيع الدخول الى القصر مع ما حوله من الحراس . ثم ان اخت الخليفة بعيدة عن مثل هذه الطنون . ولحظ ابو الحسن ترده في تصديق الخبر فناداه قائلاً « اراك مطرقاً تفكر كأنك لم تصدق قولي . وحقك ان ترتاب . ولكن هذه المرأة التي تزعم انها لا تريد الزواج وراراً من ابي الحسن انما هي عالقة القلب اساب عريب من الاكراد اعدائنا »

فصاح « من الاكراد ! ماذا تقول ؟ »

فاحاب بهدوء ونألم « ومن خدم الاكراد »

فلطم الشيخ كفه بكفه وقال « يا للفصيحة ماذا يكون حال امير المؤمنين اذا بلغه ذلك الخبر ولكن .. »

فقال ابو الحسن « ومن يجاسر على تبليغه هذا الخبر ! لا ينبغي ان يعلم به او لعله علم وكظم ماضاته الحجي .. اتأسف كثيراً لاني اطالعت على هذه الفعلة ولكن ما العمل لا بد من تدبير حالة بمقدورها عرضاً من العار »

وتألم المجلس مما سمعه واعتمد بخته وهو سليم القلب كما علمت . فاوشك ان تدمع عيابه من العصب وبق ما هو عليه من الكدر على مرض الخليفة . وكان لا يزال واقفاً متمعد وهو حائر القوي . فاحدث ابو الحسن

يتظاهر بالتحفيف عنه . وهو يعد ذهنه لمكيدة يفوز بها بمرامه فقال
« يحق لما البكاء في هذا اليوم فلنبك باعريزي قلبك .. » واخذ في
البكاء حتى سبي المجلس حزنه واستغل بالتحفيف عن ابي الحسن فقال
له « لا بد من الصبر يا مولاي ان البكاء لا ينفعنا شيئاً .. لا بد من
تدبير طريقة .. »

فاصرع ابو الحسن الى مسح عييه وتظاهر بالحد والاهتمام والتفت
الى المجلس وقال « نعم لا بد من تدبير طريقة ولكن الامر اعظم مما
يظهر لك يا عماء »

قال « وهل اعظم من ذلك ؟ »

قال « ان الامر نفسه عظيم كما علمت ولكنني افكر في المستقبل
واراقب ما قد تأتي به الاقدار مما لم يكن بالحسبان »
فطل الخليس ساكتاً يفكر ولم يجب . فقطع ابو الحسن سلسلة افكاره
بالسؤال قائلاً « من هو طبيب مولانا امير المؤمنين ؟ »

قال « طبيبه الشيخ السديد رئيس الاطباء لا يثق الا به لسعة علمه
وطول اختباره »

فقال ابو الحسن « الشيخ السديد ؟ هل هو ماهر في صناعة الطب ؟ »
قال « كيف لا وقد نال الحظوى عند الائمة الفاطميين من ايام الامر
رحمه الله وكان صغير السن وانه طبيب قبله . ثم ورت هذا المصب
بعده ^(١) وما زال يطبب الائمة رحمهم الله الى الآن وقد اصبح شيخاً
طاعماً في السن »

فقال « وماذا يقول عن مرض مولانا . هل سألته ؟ »

قال « سألته ولكنهم لم يجني جواباً صريحاً »

قال « اني اخاف جواب الاطباء ان لم يكن صريحاً .. لانهم اذا خافوا على مريضهم الموت جعلوا كلامهم عنه مبهماً .. »
 فاجفل المجلس عند سماع لفظ الموت لانه كان يحجب العاضد وقال
 « لا سمح الله باسيدي .. لا سمح الله ان يكون على الامام العاضد بأس »
 فقال ابو الحسن « اعوذ بالله ان يخرج من في أوامر مذهبي سوء »
 يصيب اماماً واطلب الى الله اذا كان قد كتب شيء على امير المؤمنين ان
 يهديه بروحي .. واسكن العاقل من فكر بالامر قبل وقوعه ولا سيما في
 الامامة . لان الامام قطب تدور عليه امور الدولة و به تتعلق القلوب .
 والاصابة به غير الاصابة بأحد الناس .. وهذا معنى قولي لك ان المسألة
 اعظم مما تتصور . هل فهمت مرادي ؟ »

فادرك الخليلس انه يعنى لو مات العاضد كيف يكون حال الامة بعده
 فقال « فهمت يا بني ان الامر حليل ولكن .. »
 فاسرع ابو الحسن وهو يروع كالغراب وقال « كلما عميد الموت
 با عمه وعسى ان تكون حياة الاسام العاضد اطول من حياة كل منا . واصبر
 اليه تعالى ان لا يمتني الا في حياته » — ودمعت عيناه فتأثر الخليلس
 وتشاركه بذلك الشعور على مظهره وقال « ذلك ما تراء جميعاً وحسبوا
 لان مولانا حفظه الله لنس لما ملحاً سواء وقد كاد في امامته من اولئك
 الاكراد ما لم يكادوا سواء ولولا حزمه وتعلمه لا ادرى كيف كانت
 حالنا .. »

فاعتدل ابو الحسن في مجلسه كانه فليس الامر هام (وقال هذا ما يدور
 في خلدي ويحتمل في حالتي ويحوم حول اساني ولا يطاق من قاي عليه ..
 اذا كان هذا حالنا الآن فكيف يكون شأننا لو حدث ما نحن مومنا
 به .. لو ان في بيت العاصد رجلاً حارماً يحمله لكان حراماً وانكسرهم

اطفال كما تعلم وهذا المنصب لا يستطيعه الا المحنكون نظيرك .. كم كنت اود ان يكون لك يد في هذا الامر .. »

فاستعظم الخليس هذا الاطراء واحذ يتمصل من هذا الحق فقال « اني عبد حادم لا يقال لي مثل هذا القول وانما يطمع بهذا الامر من كان متلك يا ابا الحسن .. »

فاخذ ابو الحسن يهرأ رأسه هر الاسكار وقال « انا ! نعم كنت راغماً في هذا المصب كما علمت وقد قلت لي ان الامام رضي ان اكون ولي عهده . وهذا سرف لي اكمني الآن اتردد كثيراً في القبول .. »

فقال الخليس « لا ينبغي ان تتردد فان في قبولك انقاذ هذه الدولة » فوجد الفرصة قد سححت ليستشهد الخليس بان العاضد بايعه بولاية العهد فقال « وهب اني اردت ان اتفانى وارضى فهل يصدق القول ان العاضد بايعني ؟ »

قال « انا اشهد بذلك .. ألم يكن رضي على الشرط المعلوم ؟ وانما احل الامر مؤقتاً وقد اعترضته شؤون مختلفة .. »

فقرص قلب اني الحسن طرناً عند سماع ذلك الوعد فعاد الى المعالطة وقال « انا اعلم ان متلك اذا شهد فشهاده اوثق من عقد مرم .. ولكن ما لنا ولهذا الان ارجوان لا يجد ما يدعوا الى استشهاده وان يهض مولانا الامام صحيحاً معافى وتتمتع برؤيته ونقل يديه وبصلى وراءه .. » قال « عسى ان شاء الله »

وهما في ذلك سمعا وقع اقدام مسرعة ودخل غلام عرفا انه من علمان القصر فاحفلا وقال الخليس « ما وراءك »

قال وصوته يرتجف « ان مولانا الامام يحب ان يراك الان عاجلاً » فقال « وكيف هو ؟ »

قال « لا ادري لكنني رأيت الشيخ السديد عنده ومعه اطباء
كثيرون . . »

فنهض الجلباس وهو يقول « يظهر ان المرض اشتد عليه »
فقال ابو الحسن « لا بد من ذهابك اليه حالاً . ولو كنت اعلم اني
ابغمه لسرت معك ولكنني ساسعى بعد قليل للاطمئنان . وانا ذاهب
الآن الى المسجد لادعوه بالشفاء » قال ذلك وخرج وترك الخليلس
يتأهب للركوب الى الخليفة

الفصل الثالث والثلاثون

الدسائس

اما ابو الحسن فانه رجع على بعلته الى منزله . وخلا في غرفته واخذ
يفكر في حيلة يدبرها اميل بعيته . وقد تأكد له دواخل الخليفة فكيف
يمهد الامر لنفسه وهو يعلم ان شهادة الخليلس لا تكفي وان القول الفصل
لصلاح الدين . اذا اظهر رضاه عن مرسح للحلافة بالها . فانزوى في الغرفة
على كرسي واقفل الباب وجعل يفكر في الطريقة المؤدية الى عرضه وبعد
التفكير ساعة — لا يحرك رأسه ولا يده واما كان يحرك شفتيه وعينه —
وتب من مكانه وصفق فحاء الغلام فقال له « اسرح العلة »

وقال « لا ترال مسرحة يا سيدي »

مركها ومارقاصدا عسى الهكاري صديته . وكان الهكاري في
غرفته المعهودة يطالع في بعض كتب الفقه ولما أساءه الغلام بمحيي التمر بف
اني الحسن خب له واستأذنه اسس اسقمال لانه كان يتوقع ان يحياح اليه
في تدبير بعض الشؤون لمصاحبة صلاح الدين

وبدا ابو الحسن الحديث عن الفقه والتاريخ كانه يتمم ما دار بينهما

عند اجتماعهما في دار العلم فقال « اراك لا تزال تقتش في الكتب ... هل ترى منها نفعاً ؟ »

قال « كيف لا ؟ وملك لا يسأل هذا السؤال يا سيدي »
قال « صدقت لكنني لا أعني الفائدة الشرعية وصيانة الحقوق وإنما أعني الفائدة التي يطلبها الناس من أعمالهم .. أم أنت مثلي تهتم بالعلم لأجل العلم نفسه ؟ »

قال « اطلب العلم لأجل العلم ولكن العاقل قد يستفيد منه فوائد أخرى .. »

فادرك أبو الحسن أنه يتبرأ إلى ما يتوهم الهكاري أنه استبسطه من مطعامة تاريخ طبرل بك من تلقاء نفسه حتى حرض صلاح الدين على اخت الخليفة كما علمت . فعمد إلى أطرائه وتغيريره ليتوصل إلى مرامه فقال « انك حكيم عاقل وقد علمت الآن صدق حذمتك للسلطان صلاح الدين .. ألم تكن أنت اسرت عليه بخطبة اخت الخليفة ؟ . لا تنكر ذلك »

فأراد أن يتوابع ويتصل من ذلك الفضل فقال « ليس لي هذه الدالة يا أبا الحسن »

فقال « مهما يكن من تصلك فانا اعتقد نهود كلمتك والان اتعلم لماذا جئتك ؟ »

قال « لا »

قال جئتك لأمر اذا علمت كيف تفهمه وتعمل به خدمت مولاي خدمة حسنة .. وان كان فيه خدمة لصديقك أبي الحسن ولك ايضاً »

فتناول بهيقه وقال « رحم الله من نفع واستمع .. قل ما وراءك »
قال « اتعلم ان الامام العاضد في حال الاحضار الان ؟ »

قال « اعلم أنه مريض فهل اسند عليه المرض ؟ »
 قال « أنه في اشد حالات المرض .. واذا مات صارت الخلافة الى
 ولي عهده وانت تعلم انه غلام عنيد لا يعرف فضل الرجال .. »
 قال « ابي فصل تعي ؟ »

قال « اسمع .. اني مطلعك على سريهمك الاطلاع عليه .. ان
 العاصد مائت الليلة او غداً . وانا اكثر اهله معرفة بفصل السلطان
 صلاح الدين — لا اقول اني احب ان يتولى هذا الامر هو ويحرجه من
 ايدينا . ولوقات لك ذلك لا تصدقي ولسكبي اعلم ان مقاومة القوة
 العالة لا تفيد شيئاً . واذا صارت الخلافة الى ولي العهد الذي نعرمه كان
 ذلك باعثاً على القلاقل . اني اعرف اذكاره واعلم انه يدوي ان يشير
 السيمه ويحرضهم على ماواه السلطان ورجاله .. وهذا لا يفيد احداً من
 الحاسن . ولا اخفى عليك ان العاصد كان عارماً ان نحمل ولاية العهد اليه
 فأوصى لي بذلك على يد المجلس السربف وأوسك ان يكتب العهد لكن
 المرض معه . فأخاف اذا توفي في مرضه هذا ان يكر رحاله وأهله عليّ
 ذلك . فاذا أخذتم بيدي وصيرتم هذا الامر الى عرفت لكم فصلكم
 وأعيتكم عن التعب .. ارجوا ان تكون قد فهمت مرادني وأطس ما نسا
 من الصداقة العديمة يكفي للوثوق بي والبعويل على قولي »

وكان الهكاري اسمع كلام ابي الحاسن ويسكر فيه . فاذا وقف عدا
 هذه العماره قال « وبعد ذلك ؟ »

قال « اعني اذا حااطت السلطان صلاح الدين في الامر اعرض عليه
 هذا الرأي كله مات فيعرف لك هذا الفضل وان رايح من كل
 وجهه . . . ان ما أعرضه عليك . ايم الائمة وميه مع السلطان ولك ولي
 ما فذلك ' »

فرأى الهكاري كلام أبي الحسن معفولاً . وأدرك أن عمله هذا خيانة
 لأهل الخليفة لكبه نظر فيه من حيث مصلحة السلطان لأنهم إذا أعانوا
 هذا الخائن على تولي الخلافة كان عوناً لهم في ما يريدون ويهون عليهم أن
 يخلعوه في ما بعد إذا تناؤا فصلاً عن أنه يسهل على صلاح الدين التزوج
 بسيدة الملك على يده فيتم تدبيره . فطر إلى أبي الحسن نظر متفرس وقال
 « انت مقدم على عمل عظيم فيه نفع كبير لك »

قال « لا أسكر ذلك ولكسي أحدم مصلحة السلطان صلاح الدين
 أيضاً من كل وجه وإذا لم تصع لرأيي تعتم جميعاً لأن المصريين قلوبهم مع
 حلفائهم كما لا يخفى عليك أرني مهارتك في تمام هذا الامر واعلم أنك
 ستكون أقرب المقربين »

قال « لك عليّ ذلك . سأبذل ما في وسعي في هذا السبيل ونرى
 ما يكون »

فتحفر أبو الحسن للنهوض وهو يقول « أنا ذاهب وسنلتقي عدداً ولا
 حاجة لي إلى تنبيهك نأبى ما قلناه هما مكتوماً عن كل اسان »
 قال « لا حاجة إلى التوصية »

الفصل الرابع والثلاثون

اقطع الشجرة من جذرها

نهض أبو الحسن وركب بعلته وعاد . وطل الهكاري واقفاً برهة
 يعيد في دمه ما سمعه ورأى فيه خيراً كثيراً . فبادر إلى تفيذه وسار إلى
 صلاح الدين وراه مع ألبه في سرفة تطل على الخليج وقد جلسا هناك

للاستراحة فاستأذن عليهما فاذن له فدخل فامرهم نحم الدين بالجلوس فجلس
وتكاد عيناه تنطقان بما في خاطره فقال له صلاح الدين « ما وراءك
يا ضياء الدين »

قال « جئت مولاي بامر هام »

قال « كل ما تأتي به هام نافع . اني لا أسي بلاءك في مصلحتنا .

قل ما بدا لك »

وأخذ يقص عليه ما دار بينه وبين ابى الحسن من أوله الى آخره
والاهتمام ظاهر في عينيهِ . فلما فرغ من كلامه ابرقت عينا صلاح الدين
وبطر الى أبيه كأنه يستسيره في الامر . وكان نحم الدين يسمع كلام الهكاري
ويعحصه ويزنه ويتدبره . فلما رأى صلاح الدين ببطر اليه قال « انه
رأي جميل لكنه لا يرال فطيراً لا سيما والعاضد لا يزال حياً فاذا مات
نظرنا في الامر - - بارك الله في همتك يا انا نحمد » وسك

فعلم الهكاري انه ينبغي له أن يصرف ليحلوا الاميران ویتماحوا
فاستأذن وخرج

فلما خلا نحم الدين بابنه جعل يهرس في عينيهِ كأنه يطلب اليه أن
يقول ما في خاطره فقال صلاح الدين « ما رأي والدي بما سمعته »
قال « انما اسألك عن رأيك . . »

قال « اني أرى فرصة لا ينبغي ضياعها . لا انكر انها خيانة من أبي
الحسن هذا لكنها تعمدنا . وادا وليامد الخلافة بأمرنا راد بمودا وكان آله
في يدينا »

فاسم نحم الدين اسام استخفاف وقال « انك يا يوسف وحيد
حرب ورأي . ولكم لا تزال في حاجة الى الدرة والحيلة . . استمددا
من وساية هذا الرجل ان القوم اذا مات حلبهم تصعصعوا واختلفوا فيما

بينهم وهي فرصة لقطع تلك الخلافة من جذرها . لا نباع هذا ولا غيره .
وأما نقبض على القصور ونحس أهائها الذكور اصحاب الحق في الخلافة
حتى يبيدوا . وقد خطبنا للحليفة العباسي منذ مدة ولا بد من التدة والحزم
فيتهى الامر . أليس ذلك خيرا من ان نباع حليفة آخر ونعود الى التعب
من أوله ؟ »

فأعجب صلاح الدين برأي أبيه ورأى الصواب فيه وخجل لما فاته
ادراكه من الامر ولم يسمعه الا الاصغاء والادعان وقال « بورك فيك يا أبتاه
من حكيم حازم »

فقال « ولا يكي ذلك وإنما يجب أن تأهب من الآن ونجعل الحد
على استعداد للهجوم على القصور حالما يلفظ ذلك الحليفة السيء الخط
نفسه الاخير . وأتقدم اليك أن تكتم ما أقوله لك الآن عن كل أحد
حتى يأتي وقته فسفذه . واحذر أن تفعل كما فعلت بالامس فتكشف سرك
في جلسة علمية . فقد قيل استعيوا على قضاء حوائجكم بالكتمان »

شئ صلاح الدين رأسه اعجابا وطاعه وهم بتقيل يد والده اعترافا
بما قدره . فاحتدب بحم الدين يده وقال « ارحوان تستفيد من قولي
يا بني انك ستكون سلطاناً عظيماً فاعمد الى التؤدة والحرم واذكر وصية
أبيك . . »

أما ابو الحسن فخرج من عند المكاربي وقد امتلأ صدره املاً وتحقق
لديه الفور بالمكيدة وسارتوا الى دار الحليفة وهو يتسم حبر العاصد في
اتناء الطريق فعلم انه في أسد حالات المرض فأيقن انه مائت في ذلك
الليل فأعمل فكرته في الوصول الى غرضه . وقد توهم مرره بالخلافة وبقي
التمص على سيدة الملك فأظهر اهتمامه بمرص الحليفة وسأل عن الحليس
السر بهف فقبل له انه في عرفة الحليفة لا يادن بحرجه والاطباء وقوف

بين يديه يبذلون الدواء بالدواء بلا فائدة . فاحتال ابو الحسن في الوصول الى السيح السديد طبيب الخليفة فاستفهمه عن حقيقة حال العاضد فأجابه « ان يكاد يكون في حال الاحتضار » فبكي وبالع في البكاء حتى اشفق العلي عليه وأخذ يخفف عنه فخرج تَوّاً الى قصر النساء وقد مات السمير الى الاصيل وطلب أن يرى بهاء الدين قراقوش . فقبل له انه خرج لمقابلة السلطان صلاح الدين فجلس ابو الحسن في غرفة الاستقبال باب القصر ينتظر رجوعه

وبعد قليل عاد قراقوش وعلى وجهه علامات الاهتمام . وكان ابو الحسن يتوقع أن يسمع منه ترجحاً بعد رجوعه من عند صلاح الدين لاعتقاده بان السلطان لا بد من أن يكون قد خاطبه بأمره بعد ما كان من تدبيره مع الهكاري . ولما رأى بهاء الدين مقلداً على فرسه تصدى له بالباب وهو يتسم فلم يكترب له قراقوش واطهر انه لم يره مخاطبه ابو الحسن فـ «
« مرحباً بالاستاد كيف فارقت السلطان ؟ »

فالتفت اليه بهاء الدين كأنه رآه لأول مرة وقال « أنت هنا يا أبا الحسن ؟ »

قال « انا هنا في انتظارك منذ ساعة . . كيف حال مولانا الامام يا ترى الآن ؟ »

قال بهاء الدين وهو بقعد على مقعد في تلك العرفة « انه في حال الارض السديد شفاه الله » ولم يدع أبا الحسن للمعود كالعادة فبعد ابو الحسن من تلقاء نفسه وأخذ يطهر الاسف على حال العاصد ويفرك يديه ويعصر عيانه ويهر رأسه وهو مطرق ثم قال « هل أب مأ كد انه شديد المرض ؟ »

قال « هكذا قيل لي الساعة .. شفاه الله .. انه كان رضي الحاي »

فنادر الى الخواب باهتمام وقال « صدقت يا أستاذ ان الامام كان من أحسن أهلنا خلقاً وأطيبهم قلباً ولذلك ... » وتضحك وهز رأسه كأنه يحاول كتمان امر خطر له ثم التفت الى قراقوش وقال « لا بدامك لحطت بدقة نظرك يا أستاذ ماذا كانت نتيجة طيب قلبه وتساهله .. وان لم تر ذلك رأي العين .. أما انا فقد رأيته ... على ان الامر لآس أعظم مما تعلمه ويمضي لما ملافاة الخطر قبل وقوعه ... انا أعلمك ساهر متيقظ لا تحتاج الى تنبيه .. لكنني استميتك عذرا اذا رأيت في قلقلًا فاني اصن سمعة اهلي ان يلحقها ما يتوهها . وقد علمت ما كان بالامس من أمر ذلك الغرب الذي دخل هذا القصر ارسدوه الى طريق الفرار .. لا أقول ذلك طعمًا لأحد لاني اعتقد ذلك من عواقب الطاش عن حبل لاس سوء بية . فسيمة الملك هذا حالها وأحوها حتى فاذا أصابه سوء لا سمح الله كيف يكون حالها . . » وتضحك وتوحه ككايته بحوقراقوش وهو يظهر النقة فيه والاعتماد عليه وقال « ولا ينبغي لي ان أحيى عنك امراً أحتميه عن سائر الناس ولم يطلع عليه غير صديقي وصديقك الفقيه صياء الدين الهكاري . اعني ان الامام العاصد بايعني بالخلافة بعده وخطمت احته هذه وهي لاتعلم بعد . وإنما يعلم ذلك الخليلس الشريف ويعلمه أيضا صديقي صياء الدين والسلطان صلاح الدين وكان لي معه حديث طويل بهذا الشأن في هذا الصباح لا أدري اذا كان قد اطاعك عليه . » وصبر ليري ما يندو من قراقوش فاذا هو لا يزال مصمياً لا يبدى حراكا

فعاد ابو الحسن الى اتمام حديثه فقال « واذا كان لم يطاعك عليه لا بد انه طاعك قريباً . راما حتمك الآن استعيك في صيانة عرصي وعرض الامام شهاده الله ربنا يستمر الامر في صياحه ريسره عليه السلطان

صلاح الدين حفظه الله .. هذا أمر قد تم الاتفاق عليه بيني وبينه . . .
 وإنما أطلب اليك أن تحتفظ بهذا القصر وانت فاعل ذلك . لكنني أخاف
 أن يتمكن الأعداء من دخوله . ثم فأرى أن تأمر بنهل اخت الخليفة منه
 إلى قصر آخر ليس فيه سراديب . . . وأطن دار الصياغة أفضل القصور
 لهذا الغرض » قال ذلك وهو يتفرس في عيني بهاء الدين وينظر رأيه
 في ذلك

الفصل الخامس واللاثون

الفرار

أما بهاء الدين فظهر عدم الاهتمام وقال « لا أرى بأساً على هذا
 القلعي يا أبا الحسن والخليفة لا يزال حياً »
 قال « أما العاهل من مكر في الأمر فمل وقمعه أما إذا وقع فلا فائدة
 من التفكير اسمع .. اسمع . أليس هذا صياح النساء في القصر ؟ يظهر
 أن العاصد فارق الحياة .. مسكين » وأحد يترك كمنه ويكني
 أما بهاء الدين فلما سمع الصياح وقف والاهتمام نادى في محياه . .
 وأشار إلى بعض العاهل أن يمشي في مهمه وأومأ إلى أبي الحسن أن يمشي
 ريثما يعود وأن لا يخرج قبل رجوعه . وتحول قراقوش إلى مكان آخر في
 القصر وقد علا الصبح وفتح أبو الحسن موب الخليفة فاصبح منه انتمص
 على سيده الملاك . وأسبب الذهب قراقوش ولم يعلم سبب دهاشه . فبعد في
 تلك العرصة وهو مطمئن يفكر كأنه على الحر . ومع قرعته اللحم وصل
 الحبل فاطل من المائدة وأنت ترون . أنا أسرعون نحو القصر كلهم ثم دون
 به من كل ناحية فوجدت الملاك . . . رنيد مكرهه برعشه فالتفت فإذا
 بالعلام الذي كان قد انزل منه ووجد . . . اسمه على سبيل الملك في ذلك

القصر واقفا يرتعد والبعثة طاهرة في وجهه فصاح به « حوهر ! ما وراءك؟ »

فقال « هلم يا سيدي .. انج نفسك ؟ »

قال « الى اين ؟ لا .. ابي باق حتي ارى هذه اللعيبة وآخذها ..
ألم ترها ؟ »

قال « انج نفسك يا سيدي .. انج .. ان الامر على غير ما تظن ..
اخرج من هذه الغرفة قبل ان يتم النطاق حول القصر .. اخرج » قال ذلك
وحرره بكفه واعتنم اشتعال اللباس بالصياح والارتباك وحرص به من العرفه .
ولم يصدق انه صار خارج القصر وهو يلهت من الخوف فقال ابو الحسن
وهو يطاوعه في المسير « الى اين انت ذاهب بي ؟ »

فاحابه وهو سير المبه ان يتبعه « تعال يا سيدي . وسأقص عليك

الحبر انج نفسك .. »

وما رالا يمسيان حتى بعدا عن قصور الخلفاء ودخلا بيتاً من بيوت
العامة لا تقع عليه شبهة . وهو مرل لذلك العلام كان يحتجى فيه عند
الحاجة . فلما دخلا البيت اقفل العلام الباب وقعد وقد امتقع لونه
واو الحسن يستغرب ذلك منه ولا يزال يعتقد ان العلام محطى به وهو
اعتماداً على ما دار بينه وبين الهكاري

فلما اسفروهما الخلو قال ابو الحسن « قل الآن ما الذي حملك على

هذا الفرار ؟ »

قال « لو لم افر بك لكنت الآن في السجن »

فصحك ابو الحسن تهكم وقال « في السجن ؟ هه هه ... هذا
امر بعيد . ولا الوملك على هذا الخوف لانك لا تعلم ما دار بيني وبين
القوم في هذا الصباح .. »

قال « علمت كل شيء وعلمت ان تدبرك لم يهاج وان فراقوس

اللعن لما كنت انت في انتظاره بالقصر كان هو عند صلاح الدين ذهب
اليه امر مستعجل فامره ان يحيط بقصور الخلفاء بالجند . وحالما يموت الخليفة
يتنص على كل ما في القصور من النساء والاولاد والرجال والعلماء وكل
شيء .. »

سمع ابو الحسن هذا القول ولم يصدفه فقال « كيف عرفت ذلك ؟
ومن اطملك على هذا السر يا حاهل ... لا يبعد ان يكون صلاح الدين
قد امر هذا الطواشي ان يحتفظ بالقصور وما فيها وهو انما امره بذلك لئلا
يتعدى عليها احد من دعاة الامامة سوى . ولا الوكا على توهمك لانك
لا تعلم ما تم الاتفاق عليه بي وببينهم مما ساطلك عليه في وقت آخر »
وقال « فلت لك يا سيدي اني مطاع على كل شيء .. وما انا حاهل
كما تقول بل انا عاقل ساهر على مصاحبة مولاي الشريف .. وقد تحققت
ان صلاح الدين امر طواشيه هذا ان يقض على من في القصر وان سحت
عنه كل نوع خاص واذا كتب لا يصدق ارجع الى القصر وانظر ماذا
تكون النتيجة »

فاطرق ابو الحسن وهو يرتعد من العيظ واخذت سمته بالحية وهو
يراجع ما سمعه ويستغربه والعلام ساكت لا سدي حرا كما ثم التفت
ابو الحسن اليه وقال « يا حوهر ... هل انت واثق مما تقول ؟ »
قال « اني واثق تمام الله وان شئت ان تمحقق قولي اخرج متسكراً
وانظر الحشد يجمعون عن السرور ان الحاشين كما يحزن من سائر ابناء
الخلفاء في قصر النساء . فلا اضمن انهم لا يسمعون امرنا ويهضمون علمنا
ولو تكرنا »

فاما تحقق ابو الحسن صدق سلامه وابس بنفسه حي عصمه حتى
صبح صدره يرمع ويحتمس ويؤيد الى كالمرحل . وحين موقمه مع

غلامه واحذ يزحرج كالاسد ثم صار يرغي كالثعلب ويتظاهر بالتحلذ واتممت الى العلام وقال « مالبا ولهم دعما مهم .. لا اعلم السبب في نقتهم عليّ ايضاً .. اني بذلت الجهد في خدمتهم .. من يا ترى سيحلف العاضد على كرسي الامامة ؟ »

فقال العلام « لا يظهر انهم سيولون احداً مكانه لانهم ييرون القبض على كل من بقي من اصحاب هذا السب ولذلك حفت عليك »

فعاد الى الاطراق واحذ في تدبير حيلة للانتقام لان فتله كان مردوجاً — دهمت آماله في الخلافة وأعد ما بنده وبين سيدة الملك . لكنه لم يتك انها ستقدم عليه متى اكرهها صلاح الدين على ان تكون له أما سيدة الملك وتركها مساء الامس بعد ذهاب عماد الدين من عندها وقد دهمت الى الفراش . ولكن الوم لم يزرها وتراكت عليها الهواحسن . وبكرت في الصباح للاستحمام عن أخيها فميل لها انه مريض لكن الاطماء عمدته ولا تقدر ان تراه فصبرت وهي تتوقع الاذن في رؤيته فلم تستطع ذلك الا بعد الظهر . هادن لها وكان أحسن حالاً مما تطش فاطمأن خاطرها عليه وجمعت تحف عنه وتطمئنه . وتدكرت مقاومتها له في ديك اليومين ستأن خطتها وتعب صميرها لئلا يكون لمرصه علاقة بتلك المقاومة فدمت على ذلك

وبعد قليل ابى العاضد محيي الطيب والخليل فأسار الى سدة الملك بالذهاب وطأها انه في حير . فعادت الى عرقتها وهي في قلق على أخيها ولم يطمئن خاطرها عايه . وانتها ياقوتة وسألها فبكت وأعقرت في المكاء رغم ارادتها وطمت ياقوتة ان الخليفة مات فصاحت صياح المدب وسمعتها سائر الحراري فاقندين بها فعاب الصوصاء وابو الحسن عند فراقوس وطموا الخليفة مات كما تقدم وهو لم يمت

الفصل السادس والثلاثون

مقابلة هامة

وكان قراقوس قد استقدمه صلاح الدس في صحن ذلك اليوم على أثر ما جاء به الحكاري من ابي الحسن واسأه بما علموه عن داخلية القوم وأوداه أن يكون على حذر وان يجعل الحسد قرباً من القصور فإرا علم بوفاة العاصد أحاط القصور بالحسد وبعث اليه بحجر ذلك . ولا يأتد لاحد من أهلها بالخروج لاية علة كات . ومنه نوع خاص الى ابي الحسن والفضل عليه . جاء قراقوس فرأى ابا الحسن عمده فاستنمأ حتى يرى ما يكون فلما سمع الصياح داخل القصر وظن الخليفة مات خرج لمدر يب الفرسان وأمر أبا الحسن بالبقاء ريثا يعود . فلما عاد لم يجد هالك فبعث في طلبه فلم ينف على حبه فأسف لمحاته وب العيون للفض عليه وأخذ يهتم بأرسال الخبر الى صلاح الدين بوفاه العاصد . ثم علم أن الخليفة لا يزال في قيد الحياة فسر لا أن لم يتمحل في إرسال خبر الوفاة لصلاح الدين لئلا يأتي ويحد الخبر كاذباً فيؤبجه . على أنه أبقى الحسد حول القصر ليرى ما يكون . فلما دنت الشمس من المعيب جاء أحد العاهان يقول « أن . ولانا السلطان خادم بموكة »

تخف قراقوس للقائه . فرآه تحوّل نحو قصر الذهب حيث يقيم الخليفة فاستعرب الك ومكب في مكانه لا يدري سب محب السلطان في تلك الساعة . وإذا رصده به الحكاري بمسئوه فرحب به فسأله عن سبب قدوم السلطان فقال « لأن العاصد طلب أن يراه » (١)

فاستغرب قوله وصاح فيه « الخليفة طلب ان يرى مولانا السلطان ؟ »
قال « وما مكان الغرابة ؟ »

قال « أنت أدري مي بمكانها .. وسرى السبب بعد قليل »
فدخل قراقوش وادخل الهكاري معه وجلسا ودار بينهما الحديث
عن مقاصد صلاح الدين ودهاء نجم الدين ونحو ذلك

أما سيدة الملك فعلمت بعد قليل ان بكاءها وكاء حاضتها اشاعا
حبر وواة الخليفة فتساءمت وسكيتت ولكمها ابروت في عرفتها لا تريد
أن ترى أحداً وقلها يستعمل قلقاً على حياة احيها مصلاً عن متاعها الاخرى
ولما غربت الشمس انقبضت نفسها وهي في انواع من الشده كل منها يقض
النفس ويصع على القلق . لكن ساعة الغروب رادتها انقاصا واصبحت
شديدة الرغبة في رؤية أخيها وادا بالخاصة أتها مسرعة وقال « ان
سيدي أمير المؤمنين يطلب أن يراك »

فأخفلت لكنمها فرح وأسرعت في الذهاب . والتعب بمطروها
وحمارها ومشيت في الدهيلر والبور ضعيف لم يساعدها على تيسر الوحوه .
لكمها استأست بأصوات بعض اهلها واستفهمت الحاضة عما سمعته فمالت
« انك تسمعن اصوات ابناء احيك واحوتك . »

فأخفلت وتراحعت فمالت لها ياقرتة « ما نالك يا سيدي »
فقلت « ما الذي حاء هم الى هما ؟ ماذا جرى ؟ هل من بأس
على احي »

فالت « انه بعث في استمدهم كما بعث في استمداك . »
فست رركتها ترتعدان وقلها يحقق تطلعا لما عساه ان يكون من
حال احيها لانه لا يصب في طاب اهل الا وهو في اشده حالات المرض .
ولما لم أولاد العاصد تقدموا وسعوا لها وانصرفوا عنهم راد ولي العهد

من عتمته وقبل يدها فقبلته وهي تماسك عن البكاء تشجيعاً له . وصلت الى باب العرفة وركبتها ترتعدان واذاها مصغيان اعياناً تسمع كلاماً تطمئن له وسمعت صوتاً استغربه لا تذكر انها سمعته قبلاً . فالتفت بالحمار ووسع لها الحرسى وازاح الستار عن الباب والعرفة قد اضيأت فيها السموع فارسلت نظرة الى الداخل ورأت اخاها مستلقياً على السرير وعلى وجهه دلائل الصعف الشديد . لكنه لما وقع بصره عليها ابتسم وسبقته العبرات فترامت سيدة الملك عليه ولم تلتفت الى أحد من الحضور وأخذت تقبله وتمول « لا بأس عليك يا أخى يا سيدي .. لا بأس عليك »

فقبلها هو ولم يحب لكها أحسن بدموعه تتساقط على خدها فتجلبد ونهضت وهي تقول « لا بأس عليك يا سيدي انك في عافية الحمد لله » والتفتت الى حولها ورأت اللبس السرى فحائياً بجانب فراش الامام . ورحلاً قاعداً على وسادة لم تكد تنفرس فيه حتى ارتعدت فرائصها وبدا كرن انها رأت وجهه في بعض المواقف الرسمية من حلال الموافد وهو صلاح الدين . فأوشك ان ترتبك بأمرها وتطير الارتباك فيها فتجلبد ولم تشك ان صلاح الدين حياء ليحطها

وكان سائر ابناء الخليفة قد دخلوا في أثرها الى العرفة فأتوا العاصد اليهم جميعاً ان يتقدموا فتقدموا فقامهم واحداً واحداً وهو يبكى ومطره يعمت الاكباد . ولم يبق أحد من الحضور الا بكى حتى صلاح الدين اما العاصد فأتوا الى أمائه بالخلوس واوهموا الى سيد الملك ان تتقدم على سراسه بالفرد منه . فجلس وهي تخادع ان يباير وجهها بصلاح الدين

الفصل السابع والثلاثون

الوصاية

جلسوا والسكوت مستول على المكان مدة ثم تكلم العاصد ووجهه خطابه الى سيدة الملك قائلاً بصوت ضعيف مضطرب متقطع « يا اختاه انت تعرفين منزلك عندي . انك אחتي وصديقتي ومرسدي .. كم استشرتكم وكم عولت على رأيك .. والآن وقد دبت الساعة وشعرت باقتراب الاجل والذهاب الى حيث الى وحه ربي ... فاحببت أن اتوق من حالك وحال انائي بعدي (وتوقف عن الكلام ريثما يستريح والجميع مطرقون ثم قال) وقد علمت بالاختار .. ان لس حولي من رجالى أو اهلى من اتق به واعول عليه تشانكم ... وانت تعلدين ما كان في حاطري على السلطان يوسف صلاح الدين (وأشار بيده نحوه) وقد طالما شكوت لك من معاملته .. اعترف بذلك وانا في آخر ساعة من ساعات الدنيا واول ساعة من ساعات الآخرة ... اعترف انى شكوت من معاملته .. لكمي لا احسد الان من ابى نقوله واتحمى انه فاعل ما بقوله سواء . لا يي محاط باقوام مؤانس غير فعالس .. يتناسور في تملقى ويتساقون الى اترار اموالي او يبل المراب بالحيل والدسائس ... فمعت الى السلطان وكلفته مشتقة الحضور لاوصيه بكم خيراً » وأشار بانامله ان يمهود ريثما يستريح وسكت وهو يلهت

فاطروا وهم يمسكون ابماسهم ويكتسون ما يتردد في آماقمهم من الذم لا ياتمت احدهم الى الآخر تهيأاً من . سطر الخلفة وتطاعاً لما سيقوله . ثم عاد العاصد الى الكلام ووجه خطابه الى صلاح الدين قائلاً « يا سيد

يا صديقي اختي سيدة الملك التي بعثت تخطبها . . . وهؤلاء ابناي وكبرهم
داود هذا . . . انى تارك امرهم اليك خوفاً من ان يصيبهم مكر وه عدي .
واشهد عليك الله ان تأخذ ساصرهم . فهل نعدني انك ما فعل ما اقول ؟ »
فلما سمعت سيدة الملك ذكر الخطبة في انباء كلام اخيها اختلج قلبها
خوفاً ويأساً لتلا تكون اذا مات اخوها رهينة أمر صلاح الدين ولا سيما
بعد هذه الوصية . ثم سمعت صلاح الدين يثيب اخاها قائلاً « انت
يا امر المؤمنين في خير وعافية باذن الله ولا بأس عليك يدعو الى الاهتمام
بالوصية . . . فانك مبلت من هذا المرض قرياً ان ساء الله . اما وقد
ذكرت امر الوصاية فاعلم يا سيدي ان الخادم (يعني نفسه) فائم بما
أوصيت به وليكن المولى اعز الله على نمة من هذا الوعد ان اهلك هؤلاء
لا يصيبهم سموت ما دميت في بيد الحياة ولك على عهد الله بذلك »

فلم تكد سيدة الملك ذكرت لها في هذا الجواب فايقت لها واقعة في
ما نهجوه فغظم عليها الامر رسلاً عما في فيه من البلى على حياه اخيها
فاحذت بالمكاء رغم ارادتها وارادت الخروج تحميماً عن اخيها فهد يده
وفحص على ردها لمحاسنها فاحسب ناربعاس يده فافترس راسها وقعدت
وهي تنظر اياه فرأته يدهل الى صلاح الدين وعمها بلهعان والدمع يعتاشها .
وكانه اراد الكلام فادب عليه فاستار باصبعه الى اخته . ففهم صلاح الدين
انه وصيه بها فاحاله حالاً « كن مطمئناً على سدة الملك انها احتك وعم
الاحد من . . . لكما انتمما اختي وبنو الله وكفى »

فلما سمعت نعت ربه انما الله عز وجل ما هي منه من اليأس
والجزن او تكلمت ان الله عز وجل لا يهادن الا من لا يهادن الا
وقد عدل عن التزوج بها وهو غاب ما تراءى . لا سيما وقد من حاجتها
الى . . . ما من من . . .

خاظرها من هذا الوجه وقد شغلت عن الخطر الملم ناحيتها فاذا هو يسعل وينتفض في فراشه من شدة الرعثة . وهي نوبة عصبية توات عليه في ذيك اليومين . فبهض الخليس واسرع يدعو الطبيب السيح السديد من غرفه اخرى . فدخل الطبب واسار الى الحضور ان يصرفوا من المكان ليعالج المريض بما يراه ويضوا جميعاً . ومسى اولاً صلاح الدين متية الاسد وسيدة الملك تراقه واحست من تلك الساعة انها تحبه حب الاعجاب وهي من طمعها تعجب برحال المروءة والمعدة وهو ما يعتما على حب عماد الدين كما علمت . فاحست بارتياح الى صلاح الدين واطمئنان الى رؤيته . ثم اوما اليها الخليس ان تصرف الى قصرها وكذلك سائر الحضور من اهائها

الفصل المادى والنلاون

ياقوتة

فابعروها وزودت سيدة الملك بطرة من أحياها وحرحت وقلها مطمش وقد سبت حرما على حاله أو سمات عنه . وكانت حاصتها بطرها في الدهليز وتتوقع ان تراها ناكه وخصوصاً لما علمت برحرد صلاح الدين ثمالة فأحبدت تنأه لتخفيف عما . فادأ من سرده الوجه رعم ما يحول في عينها من الدمع ورعم ما طهر في أحماها من الدول فقصت على بعدها ومشت معها فعلمت من خطواتها وحركاتها انها فرحة وما صدق انها وصلت الى قصرها ودخات عرفها حتى امدرتها قائلة « كيف سيدي أمير المؤمنين ؟ ارحوا ان يكون في صحه »

فقالت وهي تبرع الخارع رأسها « انه في عابة الصنف وقد زادته الآن نوبة شديدة أوحت امر الطبيب باحراحماء من عماه لمعالجه .

وكان قبلها ضعيفاً يقطع الكلام تقطيعاً .. »

فقالت « شفاه الله .. من كان عنده وأنت هالك ؟ » قالت ذلك وهي تراقب ما يظهر منها

قالت « كان هالك السلطان صلاح الدين الملك السهم . . » وسكتت وهالت ياقوبة « لما اذا سكت وكيف عرفت أنه سهم ؟ يظهر أنك رقصته قماً لأنك لم تكوني تعرفيه حمداً أما الآن بعد المشاهدة فقد تبين لك أنه يستحق حكاك » واطهر المداعمة ثم قالت « لكنني لم اعلم سدد حضوره عند امير المؤمنين في هذا اليوم أعله جاء لامام طلحه وعقد الحطمة » قالت ذلك وهي تساعد في نزع المطرف عن كتفها

قالت سيدة الملك وهي تنظر في المرأة لتتحقق حال وجهها « ان احى بع اليه »

قالت « امير المؤمنين بع اليه » ولما د

فذكرت الخطر على حياة اخيها فانقمص نفسها وقالت « بع اليه ليوصيه بما حيراً . »

فبعثت يا مودة من هذه المفاجأة وقالت « يوصيه كم حيراً من تعين ؟ »

قالت « اعني انا وابناء احى واحوتي . لان اخي شفاه الله ايمن انه لا يبقه من هذا المرض واعترف انه لا يجد من رجاله من يتق به ليوصيه بما غير صلاح الدين فبع اليه واليا واوصاه . . »

معدت ما رجا الى المداعمة اتسعل سيدتها عن الحار وقالت « طمعا ان صلاح الدين وافى امير المؤمنين على طامه لانه مطالب بهاء الخدمة بواجب المصاهرة » وادست وعملها تراعيان عيني سيدة الملك لتبني ما تدلان عليه

فابتسمت سيدة الملك والدفع يتلأأ في عينيها وقالت « بل هو قال انه يفعل ذلك بحكم الاحوة واس المصاهرة »
 واستغربت هذا التعبير وقالت « بحكم الاحوة ؟ وأي احوة يا سيدتي »
 قالت « لما اوصاه أخي في فلانكي يؤكده العمل نوصيته قال له « كن مطمئنا على سيدة الملك اما احتك وهي ايضا اختي بعهد الله وكفى »
 فلم تمالك ياقوتة عمد ذلك من صم سيده الملك الى صدرها واحدت تقبلها ويقول « ان مصيبتنا بمرض سيدي امير المؤمنين كبيرة وادا اصابه سوء لا سمح الله فان المصيبة تكون اعظم كثيراً . ولكن في طلعات هذه المصائب المدلّمة نوراً قد انار قلبي واحرني من دبحور اليأس لان اكبر هم كل على من جهتك اما هو طاب صلاح الدين خطبتك واب لا تريدي به لانك عاقلة القلب بعماد الدين — وانا اعلم سلطة صلاح الدين وانه اذا اراد امراً لا يهدر احد على رده . وقد قلت الآن انه نحلى عن الخطبة وتهد بحمايتك كاذك أحبه . . . فاطمئي يا سيدتي ولا يهيك سعي الساعين او وساية الواس . . »

فلامت سيدة الملك اما تعي انا الحسن فاجاتها بعينيها وكل جوارحها مرواة على قلبها اكما انتهت نخأ الى حال احياها معادب الى الانقراض ولطمت كميها وقالت « ويلاه ان احى في حال المأس من الحياة . . . ماذا اعمل . كيف يصبر اسرنا اذا مات . . » وعصت بردها وعادت الى المكاء وأخذت ياقوتة تحفف عها

قضت معظم ذلك الليل باقلق ولم تفق الا صباحاً على اصواب المعاة . ولم يتع خبر موت احيها وقعاً غريباً عمد لها لكر وفعه كان تدبداً . ولم يمسر حتى تبال الصياح في العصور واجتمع الورراء ورجال الدولة

والكتاب وغيرهم وغص قصر الذهب وسائر القصور بالناس . وأراد اهل
الخلافة اقامة مأتم يليق بالخلفاء وهم رجال الدولة أن يبايعوا الداود ولي العهد
واذا بالقصور قد أحاط بها رجال صلاح الدين . ثم جاء بهاء الدين قراقوس
الى المجلس الشريف وقال له « ان السلطان يتقدم اليكم أن تعملوا المأتم
مختصراً خوفاً من وقوع الفلافل ومن مات فمات ولا يجدي الصياح
والعويل نفعا »

فلم يسع القوم الا الاصعاء والرصوخ وخصوصاً بعد ما شاهدوه من
استخدام الخلافة اصلاح الدين بالامس وان لم يعلموا تفصيل ما دار بينهما .
وانما دلم استخدامهم على رمع منزلته عنده . ومهما يكن من الامر فالقوة
سألبه وجد صلاح الدين فابض على المدينة بيد من حديد . فادس القوم
الى أمره

الفصل التاسع والتلاتون

قراقوس

أما سيدة الملك فلعلها التشديد مع أهل ذلك القصر من الخروح
ورأت الحمد محققاً له من كل ناحية فأكففت بالكاء وهي في سرورها
مدت أحاسها وركبته والخاصة من بدنها مكى معها
وهما في ذلك سماعاً دانية في باب البحر فحاف سيدة الملك فهبت
ياقوتة وهي تقول لا تخافي يا سديتي بعد ان يملك صلاح الدين أخته «
ولم تصل الى باب العرفة حتى سمعت ناعرا يترعه بالهت فسرى عنها
وفحخته ورأى قراقوس واقفاً بالحرام وهو يقول « هل مولانا سيده
الملك هما »

قالت « نعم ماذا تريد منها ؟ انها في أشد حالات الحزن »
قال « اريد أن اعريها واطمئن بها واطلب اليها أن لا تهتم بما قد تراه
من دخول بعض الناس الى هذا القصر او خروجهم منه . واحب ان
اسألها مسألة »

فصاحت سيدة الملك من الداخل « تفصل يا استاذ ماذا تريد ؟ »
فدخل قراقوش وهو ينظر اليها نظر الاستعطاء فالتفتت اليه وقالت
« ما وراءك الآن ؟ ماذا تريد . ها ان أمير المؤمنين قد مات .. فليسكني
روحك وروع اصحابك .. » وغصت بريقها

فحذا قراقوش بين يديها قائلا « ان موت أمير المؤمنين قد ساءني
يا سيدتي لكنه حري بقضاء الله ولا مرد لقضائه . وانما حثب الآن
لاخبرك ان مولاي السلطان امرني ان اقص على ما في هذه القصور من
الاموال وخصوصا ما في هذا القصر من النساء وهن كثيرات كما تعلمين .
وانما استثنى منهن سيدتي اخت امير المؤمنين ومن ثنات ان يصحبها من
اهل هذا القصر من غير اهلها و .. »

فقطعت كلامه قائلة « وماذا تعملون بأهلي .. أين هم ؟ »
قال « لا نأس عليهم لان المولى الراحل رحمه الله قد أوصى السلطان
بهم حبرا وهو عارم على نقلهم من هذا القصر الى قصر آخر يكون فيه
تحت رعايته لا نأس عليهم وخصوصا مولاتي سيدة الملك فمن تريدن
ان يخرج معك من الاتاع أو الحدم أو تحمله من الاناث والآنية أو
غير ذلك ؟ »

واطرقت وقد كبر عليها الحروح من ذلك القصر . ومع اطمئنانها
بما سئلته من الرعاية عند صلاح الدين لم تمالك عن البهور من هذا الامر
وقالت « تخرجونما من قصورنا وماذا تفعلون بمن فيها من النساء والرجال

والاطفال فانهم يعدون بالآلاف »

قال « يا سيدتي ان مولاي صلاح الدين سيعمل بما لا يمس كرامة أحد . فمن كانت من الحواري ذاب بعن اطلقها مع بعابها ومن كانت حرّة ولا بعن لها اطلق سراحها . واما الحواري غير الحرّاء فيهم بعض رجاله . اما اهل الخليفة فانهم سيقومون بساء ورحالا في عاية الاكرام والحفاوة تحت عنايته ويفرق فيهم الاعطية والالسة والاقوات بحيث لا ينقصهم شيء كلهم في قصورهم في حياة الخليفة رحمه الله . ولا سيما سيدتي فانها ستنال كل رعاية هي ومن معها .. »

فقطعت كلامه قائلة « ومادا تفعلون بولي العهد داود ألم يمايعوه ؟ » فلع ريقه وقال « لا أطهم يمايعون احداً فان السلطان نور الدين . ولانا الاكبر فد امر ان نابع للمسنضي بالله العباسي .. ولا يكون على الارض خليفتان . على اني لا اري الخلافة الا بعل اصحابها وحقاراً عليه ولا فائدة منها . اسسمح سيدتي عدداً في احصاء الحديد لاني مصطار الاستغال لتنفيذ أوامر مولاي السلطان بالتمس على ما في هذه القصور كما قلب لك . فاجبرني ما الذي تريد ان احتفظ به لك . » قال ذلك ونهض واطهر أنه يريد الحروح فقالت « اريد ان تصحني هذه الخاضعة وهي تحرك بما أريد ان آخذ من الاثاب أو الياق . » وحوات وحها عنه .

فأتمت بقاؤه كلامها قائلة « دسوا اسد العر » قالوا ان حار الالمسهما احد وانا اهي - فهدما ما يجب عليه . فادله الله فياكن أسد . » فدهول هراوس وخرج فلما حاب ناه به سيادة الملك قال لما « اريد لله ان صلاح الدين قائم لعماده . آتاك تادومس في السدال . وتسه ريس سدم الميايه اسدي داود . »

من بقي من اهل الخلافة كما فعل غيرهم في مثل هذه الحال . ألم يأمر ابو العباس السفاح بقتل كل من بقي من بنى أمية حتى لا يبقى واحد منهم يطالب بالخلافة ؟ فلو امر صلاح الدين مثل هذا الامر من بعد رعى رده .. أم تطمين ذلك المغرور أبا الحسن برده لعنة الله عليه «
فما سمعت ذكر أبا الحسن أحست براحة لأنها بحثت من حائله في ظل صلاح الدين وشتتت للحروح فقاتب « أعدي ما محتاح اليه من انعم المتاع واحفه ... » قالت ذلك ونهدت . فأخذت يافوثة تهتم بذلك . وكان يومهم هذا من أعظم أيام السدة لانهم في يوم الانتقال من دوله الى دوله

الفصل الاربعون

آخر الدولة

أما قراقوس فانه فمص على ما في تلك القصور من النساء وعرضهن على صلاح فوحد اكثرهن من الخرائر فاطمهن . وجمع الباقيات فوهمن وفرقهن في رحاله وأحلى تلك القصور من الناس . وأحد كل ما صاح له ولأهله وأمرائه والخواص من ممالكه وأولادته من الدخائر وغيرها . وأحدوا من الخواهر والمصوعات ما يحصره وصف مكمتي دقل عبارة مؤرج الدوليين في تعداد ما استولوا عليه منها قال « وأحلى دوره (دور العاصد) وأغلق قصوره وسلط حموده على المرحود وأطل الورن والعد عن المورون والمعدود وأحد كل ما صاح له ولأهله وأمرائه والخواص ممالكه وأولادته من احائر الدخائر ورزاهر الخواهر ونهاس الملاس ومجاسن العرائس وبلاد المراسم والاسرة المنيمة والمناجاة المألمة والمالقة الملهمة والمصحة الملهمة

التبرية والمصنوعات العنبرية والاواني الفضية والصواني الصينية والمسوحات
المعربية والممزوجات الذهبية والمحوكات الصارية والكرايم والتامم والعقود
والتائم والعقود والمنزوم والمنصود والمحول والمسدود والمنعوت والمنحوت
والدر والبافون والحلى واللوي العير والمبسر واللويير والمير والعيني
واللحيني والسط والفرس وما لا يعد احصاء ولا يحد استحصاء فومع فيها
الفناء وكسف عنها العطاء واسرف فيها العطاء واطلق البيع بعد ذلك في
كل حدب وعقيق ولباس وسحق ومال والمال ورخيص وعال وكل
مقول ومحمول ومصوع ومعمول واستمر البيع فيها عشر سنين وتناقلت البلاد
بأيدي المسافرين الواردين والصادرس « اه (١)

اما أهل الحليفة فبقاهم صلاح الدين الى دار برحوان في الحارة المنسوبة
اليه واحتضن سيده الملك بالاكرام والحماوة

وكانت مصر الى ذلك اليوم خلافة مستقلة ليس على ما يراها الخليفة
السيدي العاصد ليس الله نامر صلاح الدين ان تتحول الخليفة للمستعفي
بأنه الحابعة العامي كما كان نور الدين قد طلب منه على يد ابيه نعم الدين.
وكان قد اعتذر له في التأجيل خوف الفتنة والواقع انه احلها ليستعين بذلك
على نور الدين اذا اراد ان يأخذ مصر منه بالعمود. فمأخذ هو جانب العاصد
ويتقوى به وبالمصريين على دفع عسكر السام. فاما تأكد ضعف العاصد
وتسهمى استتعال نور الدين عن اعصيته عزم على اقامة الحطمة العباسية
مظهوراً بها الطاعة له والدين فلم يلبث ان يبدأ بذلك الا
رجلاً اعجمياً اسمه الابر العالم تصادى الحطمة. فذا كان يوم الجمعة صعد
المبر ودعا للمستعفي العباسي فوافقه الناس ولم يذروا معارضة مكسب
بذلك الى سائر بلاد مصر. وكان هذا في اثناء استدراك العرب على العاصد

وتوفي ولم يعلم به . فاصبحت مصر بذلك تابعة لمعداد من حيث الخلافة من سنة ٥٦٧ هـ ومعوا أبناء العاصد وسائر الرجال من اهله عن الرواح حتى لا يعقبوا سلاً يطالب بالخلافة

الفصل الحادي والاربعون

المواحيص

اما سيدة الملك فلما رأت نفسها في قصرها الخديد في دار برحوان اكرت ذلك الانتقال . ولما بلغها تحوّل الدعوة للعباسيين تحققت دهاب دولة العلويين فتش ذلك عليها كبيراً فصلاً عن وفاه اخيها . قصت اياماً وهي منزوية في غرفة من قصرها لا تكلم احداً الا ياقوتة تنردد اليها لتحف عنها ومهما يكن من مشاغلها المتقدم ذكرها وان امرها مع عماد الدين كان غالباً عليها . وقد فارقت في تلك الليلة المهولة رهي بين السك واليقين من امره . وكانت وهي في ابا ان احراما تود ان تقاها ياقوتة بحديثه لعلها تسمع ما يقوي املها بلقاءه وياقوتة لا تفعل ليس عن تهيب ولكها كانت ترى اشتغال سيدتها بحب ذلك الشاب من قبيل العبت وتود ان تساه وتحوّل عنه . ولا ترى من الحكمة ان تقاها بدكره او ان تحمل دكره من اسباب اطشاءها وراحتها على امها كانت قد استأذنت صلاح الدين في الجرح للثبته في البساتين ولم تكن يؤذن بذلك لسواها من اهل الخليفة ولكن صلاح الدين كان كبير المعانة بسدة الملك والاحترام لارادتها قياماً بهنده لاختيها وكان ذلك اكبر اسباب تدميرها على مصائبها . على انه سجل عنها مدة الحروب في التام وتوفي في اثناء ذلك انه (سنة ٥٦٨ هـ) وحدثت امور اخرى شعلته عنها لكسه كان يوصي بها الدين قراقوس بها

مضت مدة لم تسمع فيها شيئاً عن عماد الدين ولا هي تعرف مفهه ولا مصيره ولا ترى باباً للسؤال أو البحت وسفي سدرها واسنولى عليها الفنوط وتغلب عليها السويدا . واحسحت لا تفرح بزهوة ولا نرتاح الى حديث . وهل طعماها وتكاثر ارنفها فأخذت في الهزال وياهاونة نمدل تهدها في تسابقتها وكما رأيت ضعفها واتبعاصها تسير في أمرها . وكانت تضن طول عياب عماد الدين يسيها اياه ولما لم تعد نسمعها نذكره طمها سيمته لكها ما لبثت ان أدركت خطأها ذات ليلة وهى نائمة في غرفة مستطرفة الى عرونها اد اقام على صوب سيده الملك وهى تناديها « يا مربعة يا مربعة »
فوثب من مراتها الى فراش سيمتها فراه اود قعدت على السرير وتسمعها مموس وتمرت سحجها ورامت عليها وصاحت « مولائي حمايتي
« اذا بردين ؟ »

وقالت « عماد الدين .. عماد الدين ا اين هم ؟ » سمعتهم مدادونه «
وقالت « ايس هو ياسمديني ؟ » انا لست هما .. انك تريس حلقا .. ألا
تعالس انه مسافر ؟ »

فأراحت شعرها عن حجابها وتفرست في ما حولها وعماها تدلان على
اضطرابها وإربابها وقالت « انفسار آت ما أدبيل عدا السر . . اني سمعت
اسمه الخلم بالين طلعت نائمة لعل أسمع ذكره مرقنائة اور ما تری
لی طبعه . » قال ذلك وأعرق في الكاء

اکت یا قمتا ماہما و اکتا سہ . ہنھا و قمتل « مادا مچان فلات
باسیدتی . مادا ایاک داس ، و کات

فأجابته قائلاً : يا سيدي ، أنت الذي لا تتركني التعمق
والحكمة . لا تجعل لهما اسمك في الدنيا . الله دائما يحسن من دنياه
م أعد أحسن التصريح بما هي الحقيقة . حسنا ، ربما لم يكن كان

يقتلني . . تدبري الامر واسعفيني . . آه يا عماد الدين . . » وعادت الى البكاء

فخشت ياقوتة بين يديها وقالت « هونى عليك يا مولاتي وانكلي عليّ .
لماذا لم تفاتحيني بهذا الامر من قبل ؟ »

قالت « وما الفائدة من الكلام ؟ . ها اني فد كلمتك اجبريني أين عماد الدين ما العمل للوصول اليه . ألم نعلمى مقره . ألم تسألني أحداً عنه ؟ قولي »
قالت وهي تمسح دموع سدمتها بمنديلها « نعم سألت عنه وقد علمت من الاستاذ بهاء الدين قراقوس انه سار بمهمة سرية ادا نجح فيها صار رجلاً عظيماً يليق بسيدة الملك . . وهذا امر دو نال ياسيدي . لأن بنت الخليفة وახب الخليفة لا يليق بها ان تنزوح واحد من عامة الناس و . . . »

فقطعت كلامها قائلة « لا تمولي خليعة ولا عامه . اني اسيرة في هذا القصر وهو طليق . . وقلبي اسير ايضاً ولا ادري ادا كان قلبه كذلك . . »
وسرقت بدموعها

فاحذت ياقوتة تصمها وتمسح دموعها وتقبلها وتقول « خفي عنك ياسيدي . . وارحني الى رتدك . . واصبري . . لرى ماذا نعمل »
قالت « ماذا نعمل قد طال عيابه ولا أدوي ما اصابه . . »

قالت « لم يصبه سيء ولا بد من عودته ظافراً ويصير من كبار الرجال وادا علم صلاح الدين بميلك اليه زاده رفعة وتقدماً . . يظهر انك سبيت هذه النعمة . . نسيت النعات صلاح الدين اليك ومعاملته اياك معاملة الاخ لاخته . . »

قالت « كلام أس ذلك ولولاه لتقضيت حرنا وكآنة . . ولكن ما الذي اسمعي اسم عماد الدين في هذه الليلة ؟ »

قالت « لعل ذلك فاتحة القرب تمهلي الى الغد لترى ما يكون ... »
واسارت اليها ان تعود الى الرقاد فاطاءها ونامت وانصرف ياقوته الى
عرفتها وهي تفكر في سيدتها وقد ندمت لسكوها عن ذكر عماد الدين كل
هذه المدة على انها اعتقدت ان سيدتها لم تسمع اسم عماد الدين عثاً وانه
لا بد من شيء يحدث بسأله

وود تحفى ظمها في صباح اليوم التالي اذا جاءها قرافوس يقول « ان
السلطان صلاح الدين قادم بعد فليل لمقابلة سيده الملك ... »

فبعثت لكتبها توسمت تلك المقابله خيراً - وصاحب الناس يتوسم
من كل حديد فرحاً فقالت « هل يطلب مولانا السلطان ان يقابل سيدي
ويخاطبها / انه يفعل حسناً لانها مقتصة النفس وهي أساس برؤسه . انا
ذاهبه لاحبرها بقدرومه » ومضت اليها

الفصل الثاني والاربعون

المكيدة

وكانت سيده الملك قد نهضت من الفراش وهمت ان استدعى ياقوبه
فلما دخلت عليها قرأت السر في محياها خففت قلبها وقالت « ما وراءك ؟ »
فقالت وهي تاتسم « لعل الفرح قريب . ان السلطان صلاح الدين
آب لمساعدتك »

قال « هو طلب ذلك من لقاء نفسه / » ونوردت وحماها من البغية
فانت « نعم اسديتي فاعل عديد خيراً يسرك . هوى والى بيابك »
فهمضت وساعدتها ياقوتة في الاين فارادت ثوباً بسماً واصلحت
شعرها وتجمرت وحرخت الى قاعة الاستقبال وركبتا بربعين من التائر

وبعد قليل سمعت وقع خطوات في الدار واذا بهاء الدين قراقوش قد دخل وهو يقول « ان مولانا السلطان قادم . »

فهيأت سيدة الملك للملاقاة ثم دخل صلاح الدين وهو يتلطف في القاء التحية فهمت بالهوض له فأشار اليها ان تقعد وهو بتسهم وقال « احلسي يا اختي . . . قد ابطأت في ريارتك هذه المرة لعيابي عن مصر . . كيف انت ؟ ارجو ان تكوني في خير »

فلما سمعته يناديها بالاخوة انسطت نفسها وقالت « طالما كنت مستحولة برضى السلطان صلاح الدين فانا في حير الحمد لله . . . »

قعد صلاح الدين على وسادة بس يديها وهو يتير الى قراقوش ان يقعد . وظلت باقوتة واقفة فقال صلاح الدين يحاطب سيدة الملك . ارحو ان تكوني حائزة على اسباب الراحة في هذا القصر »

قالت « نعم انى من نعم السلطان لا ينقصني شيء من اسباب الراحة لان الاستاذ بهاء الدين لا يدحر وسعاً في هذا السيل . . . ويكفيني من اسباب السعادة ان يدعيني السلطان صلاح الدين اخته »

قال « فادا كنت راضية عن هذه الاخوة لم بقى باع لوضع هذا المقام على محمالك . » وصحك

فازاحت النقاب عن وجهها وقالت « نعم صدق » واطرقت حياء ورأى صلاح الدين الضعف في وجهها فقال « اراك محرفة المراح ياسيدة الملك هل تشكين من شيء ؟ »

فسكتت وطلت مطرقة فالتفت الى ياقوتة فعلمت انه يستهزئها عن سبب ذلك المحول فقالت « انها لا تسكو ألما ولكمها محرفة المراح قليلا . . » قال « لا بأس عليك يا اخية . . وارحو ان لا اكون قد تمتت بهذه اليازة . وانما احلني عليه الاطمئنان عليك . . وانكى اسألك عن امر

لا احب ان يطلع عليه سواك واظنك اعلم الناس به »
فتطلعت الى معرفة ما يريد و قالت « اني رهينة ما تريد ياسيدي »
وشخصت في وجهه لترى ما يريد
فالتفت يمينا وسملا كأنه يتحقى خلو المكان من العرباء وقال « انت
تعلم ان اخاك رحمه الله اوصاني بك وسائر اهلك خيرا واطمني فمت
بواجب الوصية . »

فاشارت بعينها ورأسها ان « نعم »
فقال « واطمني لم اقصر ايصا في نوحى كل وسيلة لاسعاد حال هذه
البلاد من كل وجه . فرفعت كثيرا من المظالم التي كانت في عهد الدولة
الماضية وقد اناها الدين كانوا محيطين بالمرحوم احيك وكنت اذن هذا
كافيا لاجماع اوائك القوم على الطاعة . . . وسك
فقالت « انهم مجمعين . لان مولانا السلطان لم يذخر وسعا في تخفيف
الصرائب واجراء العدل »

فال « وكان في امكاني لما تحولت هذه الدولة الى يدي ان اقتل كل
من كان من الامراء والوزراء على رأي الدولة الماضية لكسي لم افعل ذلك
رغبة في ان يعرفوا لما هذا الفصل .. »

فاستعربت قوله وتوسمت من ورائه شيئا حديداً وأشارت بعينها
كأنها اسمهم عما حدث فقال « ولكسي علم ان هؤلاء الامراء والاعيان
يتآمرون علينا . »

فرفعت بصرها وقالت « يا مرون على السلطان »
فال « نعم . . . ولو تأمروا فيما بينهم فقط لكان سرهم لكسهم بسنعميون
علينا بالاعداء . . . انهم يجابرون اعداءنا الا فرنج من ساحل الشام وصقاية
يحرصونهم على مناوأتنا ليتاح لهم ان يام عليا او يخرج هذه البلاد من أيدينا »

قال ذلك وقد بان العصب في غنة صوته «^(١)

فاحفلت وقالت « يتواطأون مع الافرنج على سلطانهم يا لها من خيانة .. » وأطرقت لحظة ثم قالت « هل توثق سيدي من هذا الخبر ؟ »
 قال « اني واتق تمام المقة مما أقول . لان حرمهم جاءني من رجل اتق به وثوقي بعمسي .. فصحهم الله .. ادا كانوا يعدون خروج الدولة من الخلافة العبيدية الى العباسية سرّاً وكلاهما اسلاميتان فكيف بانتقالها الى الافرنج وهم اعداؤنا الالاء مذهماً ووطماً . فبدلاً من أن نتعاون على صيانة بلادنا منهم ندلهم على عوراتنا ونحرصهم على فتح بلادنا ؟ هل رأيت اصعب رأياً من هؤلاء . ألا محل قتل الساعين في ذلك ؟ » قال هذا وقد ارتفع صوته وأرقت عيناه رعم ما حاوله من تلطيف غضبه بين يدي سيدة الملك وقد عمت بهتمونه يحكه

اما هي فاهيا تشاركته في العضب وأحسب بوع من الحجل لان الذين فاموا تلك المؤامرة من رجال أحياها فقالت « نعم .. انها خيانة عظيمة . ولكنني استعرب وقوع مل هذا العمل من قوم عملاء .. فر بما كان الساعون فيه من بعض العامة الجهلاء »

قال « انهم من اكر الامراء والاسيان وفيهم رجل يزعم انه من سلالة العبيديين اقر بائكم . ولم نوفى الى الفص عليه مع من كان في القصر منكم . وحسبنا اكتفى بالهجة من القمل واحفى لكسه الآن من اكر المحرصين على هذه الحياة .. أظنك عرفتة . ولولا دخوله في هذا الامر لم اتملك في ترح هذه الواقعة . وانما أردت الاستعانة بك في استطلاع حاله لعلك تعرفين عنه شيئاً لانه كان أقرب المقر بين لاحك رحمه الله .. حتى انه كان طامعاً بولاية العهد بعده .. أظنك عرفتة .. »

فعلت سيده الملك انه يعي أبا الحسن فاهمع لونها عصباً وقالت
« عرفه نعم .. أظنك تعي ذلك الشريف الكاذب .. انه يدعى السب
فيما وليس هو منا ... ألا تعي أبا الحسن ؟ »

قال « اياه اعنى . انه من اكر المداقمن الجائس لانه حانا والمرحوم
العاصد على فراس الموت وتوسل اليها في نمل ولاية العهد اليه على ان يكون
عوباً لنا في كل شيء فلم نوافقه . فانقلب الى دس الدسائس وبصبت الحماثل
فأطاعه جماعة من المارقين وسدال كل منهم حراءه ... وانما المس منك
أن ترسديا عما تعاميه من مكان ابى الحسن » قال ذاك وهو يملط في
السؤال بضمض صوته

وظلت ساكنة وقد تمت أن يكون ما بقوله صلاح الدين صحيحاً لبيع
ابو الحسن في سر أعماله ونفاحس منه وأحسنت ان تحقق صحة تلك الدعوة
فقلت « نعم أعرف » هذا الرجل وسوء حاله ومطامعه وسأشمت عن
مكابه .. ولكني أرحو ان يكون سيدي على ثقة من الخير واذا ساء أن
يزيدن بيانا فانه يعنى على المحب »

قال ان هذا الخير تانيه من عله معمار فسكك فيه حتى اناني
استأنه كتاب من رجل لا أسك في صاقة كتب الكتاب بخطه وود وصاى
في سر الامس سرّاً مع وود ارسله الا فرنج الموالون لاوائك الجائس
بحجة أنهم يحملون الى هديه من بعض المراكز وهم اما يخالون في قتاله
تلك العصاة لنسوا المكائد وهذا هو الكتاب اذا طالعه اعدائى عن
رأده الانجاح قال ذاك وود رده الى حبه واستخرج المائدة دفعها الى
قراوس ليقرأها

الفصل الثالث والاربعون

نص الكتاب

ففتحها بهاء الدين وأحد يقرأ « اكتب هذا الكتاب الى مولاي
السلطان وانا في اعماق السجن في بيت الممّس . لا يسعي الوقت لتفصيل
سبب سجي فان الكلام فيه يطول واما اسرعت الى كتابته لاقبل الى
مولاي خبراً هاماً عرفه عن ثقة وأخاف اذا تأخر وصوله ان ينتهي مما
أكره وقوعه — علمت بعد حروحي من مصر بموت العاصد وانتقال الدولة
الى مولاي السلطان وسمعت وانا في هذا السجن ان بعض رجال تلك الدولة
يحتمعون سرّاً في المسطاط يآمرون على احرار هذا الامر من حورته . وقد
خابروا الافرنج في هذه الديار على أن يهاجوا مصر بحد كتيّف يجمعونه
من هما ومن صمليّة وان أهل مصر بكونون معهم على حدم . وان اولئك
المؤتمرين يرأسهم رحل من العلويين اسمه ابو الحسن وهو الذي أغرى
الفاثين على هذه الدولة فوافقوه واستمحدوا الافرنج . وقد وافقهم الافرنج
وأحدوا يتأهبون لهذه الحملة وهياًوا جماعة بصورة وفد يحمل هدية
الى السلطان صلاح الدين من ملك الافرنج لكرمهم بالحفنة يريدون
الاجتماع بتلك العصاة واثام المؤامرة . وقد وفقني الله بواسطة صديق لي
هما ان اطلع على ذلك وان أرسل هذه الرسالة مع حامل هذا الكتاب
وهو بحسب الظاهر من حملة حدم الوفد أو هو دليام في الطريق وقدفعت
اليه هذا الكتاب فاذا وصل اليكم ادفخوا الى حامله مئة دينار واكموه —
اما أنا فلا أزال ها وسابقي حتى يتاح لي الخروج للقيام بالمهمة التي رزمت
حياتي لامامها في خدمة مولاي السلطان — وأنا طائر مها دن الله فاما
ان أعود اليكم فاتراً مصوراً أرأمرت في هذا السبيل فداء لمولاي لان

حياتي وحياة كل رجاله مبدولة في خدمته .. »

وكانت سيدة الملك تسمع الكتاب ونفسها تحدثها في اثناء ذلك ان الكتاب يتعلق بعماد الدين فلما سمعت قوله في الفقرة الاحيرة يذكر المهمة التي انتدب لها خفف قلبها وسادر الى ذهنها ان يكون هذا الكتاب من عماد الدين نفسه لانه يقول برح مصر قبل وفاة أخيها .. فمدت النغمة في وجهها وتسارعت دقات قلبها ولم تمالك عمدا الفراع من تلاوه الكتاب ان قالت « هل يأمر السلطان ان أعرف من هو صاحب هذا الكتاب ؟ »

قال « ينبغي لنا حفظ اسمه لكي نقرأ لما بدا لي من غيرتك وصدق لهجك لا أرى ما عاين من ذكره انه ساق جمع بين المروءة والحماسة وصدق المودة .. كما انه اهداه الامر هام لا يحسر عنه سواه لا أطلقك تعرفيه » ووقع نظر صلاح الدين وهو يتكلم على اثار مهاء الدين قراقوش فقرأ في وجهه شتياً يستدعي الموقف عن التصريح لكلمة لم يدرك السبب ولا استطاع التوقف بعد ان وعد بالتمسك ودار الى سيدة الملك وراها مطاوله بعنفها وعيناها شاحصتان في سعيه تكاد تمثل الكلام من فيه احتلافاً فقال « ان صاحب هذه الرسالة اسمه عماد الدين »

لم يكذب يتلفظ باسمه حتى صاحبت سنده الملك « عماد الدين آه عماد الدين » واعني عليها . مدهس السلطان ونهض وامرعت نافوته الى الماء وأحدث برس سيدتها به وتفرق يدها واقترب بها الدين من صلاح الدين فاضعى اليه فقال له « كتب اسررت الى هراي ان لا يذكر هذا الاسم .. » فقال « وما الذي يعيها من آه .. هل تعرف شيئاً عن ذلك »

فقال هرساً في اذنيه « سررت شيئاً له قبل بمرور الكثر من ايام الدين الهكاري معنى من ابلاسه الى هراي مخافه ان يسمع سعيه يرتد في حطبة هذه السيدة » وصحك

فقال صلاح الدين « وما هي علاقتها به ؟ يظهر أنها تحبه .. »
 فأومأ إليه ان يتبعه الى غرفة أخرى ريثما تفرغ باقوتة من معالجة
 سيدتها فتبعه فلما خلا به قص عليه ما كان من امر عماد الدين ليلة محبته
 الى القصر في السرداب وكيف وتى به ابو الحسن ولم يتمكنوا من القبض
 عليه الى آخر الحديث

فوقف صلاح الدين يفكر في ما اتفق وقوعه في تلك الجلسة وفد
 سرّاً لاطلاعه على ذلك السر لانه يحب عماد الدين ويريد اكرام سيدة
 الملك وسكر الله لانه لم يوفى الى خطبتها لنفسه فقال لبهاء الدين « لقد
 سرتني اطلاعي على ذلك فيجب عليا أن نسعى في جمع شمل هذين
 المحبين .. والحمد لله أن سعى الهكاري لم يتكامل بالمحاح »

فقال قراقوش « وبمكنا ان نتخذ سعيها في مصاحبتها وسيلة لسعي هذه
 السيدة في المساعدة على كشف تلك المؤامرة لاهما من اقدر الناس على
 ذلك . فادا أخلصت الخدمة في هذا السبيل ساعدناها على مرامها .. »

فصاحك صلاح الدين وقال « لله درك يا بهاء الدين .. انك لا تنظر
 في خبر لا حد ان لم يعد حائبٌ منه عليك .. احسنت »

قال « انما يهمني القيام بخدمة مولاي اعره الله »
 ثم تحول صلاح الدين نحو القاعة وسأل عن سيدة الملك فقيل له
 انها افاقت ودخل فراها حالسة على وسادة وقد اطرقت خجلاً وبان
 التعب في محياها وذبلت عيناها فتقدم نحوها وقال « قد علمت امرك
 وسرتني ما علمته من علاقة حبها عماد الدين بك . واعلمي اني نادل
 اقصى الجهد في تقصير مدة عيابه .. ولا يكون الا ما تريد وقد اوصيت
 صديقي بهاء الدين ان يظفر في ما كما فيه . استودعك الله »

فوقفت لوداعه والحجل عالب عايبها ولم تحب بلسانها لكن عينها
ادنا واجب الشكر . على انها لم تستطع السكوت عما يخالج قوادها من
الخوف على عماد الدين فعالت وصوتها يرتجف « واماكنه في اعماق السحن
يا مولاي »

قال . انه سيأتي باذن الله وادا طل في السحن فاننا نفتح بيت المقدس
لسحره منه وان في فتحه تعريزا لدولة الاسلام .. لا تخافي « وابتنس
ومسي مسية الاسد وهي تشيعه بمصرها وترداد اعجابا بعلوهمته وكبر نفسه .
ورأت انتقال السيادة اليه وذهاب دوله احيها امرأ طليعيا لا بد من وقوعه
لما كانت تعامله من صعب نفوس رجال اخيها وفساد آرائهم وتنازعهم على
النافه من الامور شأن الدولة في أواخر عمرها
وبعد خروج صلاح الدين تقدم بها الدين اليها فقال « سأعود اليك
بعد قليل ريثما يرتاحس كوني مطمئنة » وصحك

الفصل الرابع والاربعون

جوهر

ولم يبق هناك الا سيده الملك وياقوتة . فقالت ناقوتة ووحياها مسرق
« الحمد لله قد صدق ظني وبأن ما كنت اريده »
فسهبت سيده الملك وقال « ما الذي نالناه وقد تمين لي من نص
ذلك الكتاب ان عماد الدين في اعماق السحن عند الافرح وأنه مصمم
على مهمة يظهر امها في عابة الحنظل وأنه اذا لم يفر بها ملل هناك او .. »
وعصت بريقها

فقالت « ألا يكفي يا مولاي اننا علمنا بوجوده حيا ، وان صلاح

الدين عون لك في الوصول اليه ؟ وسيقتص من ذلك الحائن ؟ هيا بنا الى الطعام واتكلي على الله »

فمهضت وقد سرّني عنها وتناولت طعامها وحديثهما في اثناء ذلك عن المؤامرة واني الحس . وبعد الطعام اتى قراقوش — وهو يدخل المكان بلا استئذان — وقال « يا سيده الملك اهنتك برضى السلطان صلاح الدين وانه اوصاني بك خيراً .. انما ببغي لنا ان نكتشف مكان تلك المؤامرة فهل تعرفين عنه شيئاً ؟ »

فاطرقت تفكر ثم قالت « انى لي ذلك وانا لا اعرف سارعا من سوارع هذا البلد لاني قصيت عمري محبوسة في القصور »
فتصدت باقوتة للكلام وقالت « ان كسف هذا المحمّا على »
فقال قراقوش « اين هو ؟ »

قالت « لا اعلم ولكنني ارحو البلوع الى حبره . ألا تعرف العلام

حوهر ؟ »

قال « اعرفه .. ألم يكن من علمان القصر ؟ »
قالت « نعم . وهو جاسوس ذلك الحائن كان يحمل اليه اخبارنا ويطلعه على اسرارنا »

قال « ومن الفائدة من معرفته ان كان هذا شأنه وهو حائن لنا ؟ »
قالت « ان الحائن لا يدب في الامانة لاحد . كان في الامس امياً لابني الحس عليما وهو الآن سيكون امياً لنا عليه »
قال « اين هو ؟ »

قالت « هو في هذا القصر وقد اخبرني بعض العلمان انه عاضب على ابي الحس لانه اساء معاملته ولم يبق له فيه وطير بعد حروح مرلاتي من ذلك القصر ودحوها في حياطة مولانا السلطان . فنفرمه وحاء يترفل

الينا .. هل استقدمه اليك الآن ؟
قال « افعلی »

فامرت احد العلمان أن يستقدمه وعاد . فرأى ستمها قد ابرقت
عينها من السرور وقالت لها « بورك فيك يا ياقوته انك ساعرة »
قالت « لا بد ان يعود كيد الحائن في نحره » ثم جاء جوهر وعيانه
تقصان في وجهه من الاضطراب — وكذلك بصر المنافق لا يستقر
في مكانه

فمطر اليه قراقوس نظر المتعسر وقال له « يا جوهر بلعنا ان انا الحسن
خدعك حياء حتى اخرجك عن طاعة مولانا .. لكن سرّ بي انك رجعت
الى الصواب وعلمت انك لا تنال خيراً الا بصدق الخدمة في مصلحه
مولانا سيده الملك ومولانا السلطان .. »

فما ك جوهر على يد مها الديس يعلمها ويتظاهر بالندم والاحلاص
وقال « يعلم الله اني كنت مغسوساً فان ذلك الرجل خدعني واوهمني انه
يد الامام المرحوم بفعل ما يساء ثم علمت انه يريد به سرّاً وانا قد
وبيت في خدمة مولاي فلا باي في ان اغدر به . فلما تحققت سوء قصد
اني الحسن تركته لاني اكره الخيانة . ولا سيما بمن احسن اليّ وانا
صنيعته وعمده »

فقال قراقوس وهو يظهر انه صده « بارك الله فيك .. واعلم اني
حسن الظن بك وسأرد في عطاياك ولا اسألك عما مضى . واما اطاب
اليك امرآ واحداً هو هير عليك وميه انتقامك من ذلك الحائن هل
تطيعني ؟ »

فلم يصدق جوهر انه نال هذه الرعاية بعد حماياته الماضية فقال « اني
هير الاتارة يا سيدي »

قال « اطلب منك أن تخبرني عن المكان الذي يجتمع فيه أبو الحسن
واقراه هل تعرف ابن هو ؟ »

قال « ذلك هو يا سيدي .. نعم اعرفه وأعرف الذين يجتمعون
معه .. قبيحهم الله .. كتب عارماً أن اطلعكم على ذلك وإن لم تسألوني عنه
فانه فرض علينا .. وكان يعني الجبل من خطأي الماصي »

فربت له على ظهره وصحك وقال « عافاك الله هل المكان بعيد من
هنا ؟ »

قال « هو في الفسطاط يا سيدي .. »

قال « الآن تحققت صدوق لاني كنت عالماً انه هناك . فانا واضع
ثقتي منك من هذه الساعة . وانت تعلم ان ثقتي هي ثقة مولانا السلطان
ولا يخفى عليك ما يستميده صاحب هذه الثقة . اصاح ما افسدته
با جوهر . وقد اوصيتي مولانا سيدة الملك خيراً بك واخبرتني كم كنت
مخلصاً في خدمتها قليلاً . ولكن ذلك الخائن اغراك على هذه الحيانة .
مصى ما مضى .. تعال معي » قال ذلك وتحول وتمعه جوهر ووداد الى
العمل فمل ان يحدث ما يغير عزم ذلك الغلام المتفاني . وصمم ان لا
يفارقه قبل الوصول الى المطلوب

على انه تذكر امراً احب ان يقوله لسيدة الملك قبل الذهاب ورجع
اليها وقال « يدعي يا سيدي ان نسلكي على كل ما يحطرك .. ولا بد
انك تدكرين اطلاعي على محيى عماد الدين الى قصرك واحمد الله على
انه نجا ساماً »

فاغتسمت تقر به اليها وتناطفه في طأنتها وقالت « اما وانت مستعز
معي وود رأيت السلطان راضياً عني اتهدم اليك ان تزيدن بياناً عن حال
عماد الدين »

قال « لا أعرف عن حاله الآن غير ما في كتابه الذي تلوته عليك الساعة .. »

والت « اعى هل عليه خطر هناك ومتى تظنه يعود ؟ »
قال « لا اعلم متى يعود اما الخطر فلا اخافه عليه لعلمي بشجاعته وتغلبه ولا بدّ من الاتكال على الله .. كوني مطمئنة في كل حال » قال ذلك ومشى

فهرع جوهر في اثره وقد سرّه ما يؤمله من الفور بالمكافأة — لا يهجمه ما يترتب على عمله من قتل النفوس وخراب البيوت — ان امثال هذا الحائن يقتصهم السعور الى الذي يسمونه الصمير . فهم يطرون في الاعمال من حيث ما يعود عليهم من النفع ولا يسعون بغير ذلك . والدنيا عندهم لها وحيان وجه منفعتهم وهو ما يسعى بقاءه واما الوجه الآخر وهو كالعدم في نظرهم فلا يبالون ان ينجى من الوحود أو يساقى اعجاب الى المحارر . وقد يسرهم ما يرونه في الآخرين من الاذى وان لم يبالوا هم منه خيراً لانفسهم فكيف اذا كان لهم منه نفع --- يعود بالله من هؤلاء .
لكمهم بحول الله قليلون ولو كانوا كباراً لخرّب الدنيا من عهد بعيد

الفصل الخامس والاربعون

الهسطاط

مسي فراقوس وجوهر في خدمته وكان جوهر مملوكاً حاسياً وفيه دكا اكبه لم يكن له صمير كما عانت فالتفت فراقوس اليه في اداء الطريق وقال « يا جوهر ما العمل الآن ؟ »
قال « الامر اولا .. »

قال « أنا متكل عليك في الوصول الى العرض .. اريد ان اطلع على
مجتمع القوم واسمع حديثهم هل يتيسر لك ذلك الليلة ؟ »
قال « نعم يا سيدي نذهب بعد العروب اذا شئت »
قال « الى اين ؟ »

قال « الى الفسطاط لان الفوم يجتمعون في بيت هناك أعرفه ولا
يمكن ان يبتدي اليه سواي .. فانه في دار حربة لا يتصل اليها الا من
أزقة ضيقة مظلمة .. ولا بد من التسكر »
قال « وماذا ترى ان نفعل ؟ »

قال « ارى ان يتسكر مولاي الاستاد بلباس طيب نصراني وانا اكون
في خدمته اعمل له حراب العماقير واقود بعلمته »
قال « هدا هين »

ووصلا بعد هنية الى منزل قراقوس ودخلا فامر قراقوش ان لا
يدخل البيت احد من الناس ولوانه السلطان صلاح الدين نفسه . وامر
جوهر ان يعد ما يلزم للتسكر وسأله عن محل الاجتماع اين موقعه في الفسطاط
فقال « قرب جامع عمرو » وعين المقطه . فتركه يهيء ما يلزم واحذ في
اعداد فرقة من الخند تسبقه لتبرص في حان قرب ذلك المجتمع ودبر
الوسيلة للاحاطة بالمنزل عند انداء الاشارة

اعد كل شيء قبل العروب ولم تعب الشمس حتى كان قراقوش قد
تربا بزني اطباء المصارى بالربار على وسطه والعمامة على رأسه واعدت له
البعلة ومسي جوهر في مكانه ولا تشك من يراها مهما الطيب وغلامه
برحا القاهرة عند الغروب ووطعا المسافة بينها وبين الفسطاط بسرعة .
ثم اطل قراقوش على الفسطاط من مرتفع فرأى آثار الحريق لا تزال ظاهرة
فيها وقد حربت اكثر ابنتها بامر ساور مند بصع سبعين (سنة ٥٦٢ هـ)

اذ خاف شاور الوزير من وصول الصليبيين اليها واستيلائهم عليها فامر اهليها بالخروج منها الى القاهرة والى الدار فيها وأمر بنهبها . فانتقلوا ونهبت المدينة وافتقر اهليها وذعبت اموالهم . وطل الخريف عاملاً فيها ٤٤ يوماً .^(١) فاختلطت الازقة حتى استبقت على المارة . ولولا جوهر ومعرفته الشوارع جيداً لاسبحال على قراقوش الوصول الى المكان المطلوب . ولكن ذلك الحسى كان يقود المعلة ويتحطى الخرائب كأنه ماشى داره . ودليله الاظهر مادته جامع عمرو فليها كانت باررة في الفسطاط دون سواها

لم يتحاورا جامع عمرو حتى حيم العسى واطلمت الدنيا وقل الناس والشوارع والمتأمل في الفسطاط يند فرقاً كبيراً بينها وبين القاهرة فان هذه اكثر عماره وسعة واصخم خانات واعظم آثاراً . سكن الامراء فيها لامها خاصة برحال الدولة ولما الفسطاط فليها من الباه والاصماغ وبكثير فيها السوقة والملاحون لمرها من الميل ومد رادها ذلك الخربى حفاة

وكان قراقوش لما ترسب المدينة ورأى نفسه مفرداً هناك مع جوهر حطرت له ان ذلك الحسى ربما ينمى العدر به وهو حائى لا يركن اليه فالقت نيموه وقال « اين نحن يا جوهر يظهر انا فد بعدنا عن المكان الذى ذكرته وتحاوزنا جامع عمرو . »

قل تى يا مولاي اينى ذاهب بك الى المكان المطلوب وقد تحاوراه الآن حققة كما قلت ولكن اريد ان اسرف عليه من منزل آخر ناه في شارع آخر . ألا تريد ان ترى اليوم متمسك وسمع ما يدور بهم ؟ »

قال « بلى . لكن تملى فليلا » قال ذلك وترسب ما يشاوره وعلم انه على معرفة من الخان الذى اوصى الخمدار بمردهموا انه بمال « احببى

يا جوهر اين هو البيت الذي يجتمعون فيه ؟ دلني عليه ناصبعك من هما «
فاشار باصبعه قائلاً « ألا ترى هذا النور المعلق على تلك السارية »
قال « رأيت »

قال « ترى وراءه بيتاً حرباً انهم يجتمعون في داخله »
فتحول قراقوش سمعته الى الحان فليمه قائد الفرقة بالباب فاوصاه ان
يفرق حمده حول ذلك البيت من كل ناحية بحيث لا يشعر به احد ولا
يطهر احد من رحاله في الطرق وقال « اذا رأيتم مصاحاً يتحرك فوق احد
هذه الاسطحة حركة رجوية اهمموا على هذا البيت من كل ناحية واقبضوا
على من فيه » وعاد فادار تسكيمة بغلته وجوهر يقودها حتى دخل الرقاق
المطلوب ووصل الى باب دقه وفراقوس لا يزال على المعلقة ففتحت خوخته
واطل رأس رجل سيخ قد تدلى سالفاه على حديه وقال « من الطارق ؟ »
فتقدم جوهر وقال « الطبيب سمعان . افتح .. »

قال « وماذا يريد الطبيب منا ليس عندنا احد مريض »
قال « لم يأت للتطبيب لكنه يريد المبيت هنا وهو من اهل القاهرة
وقد جاء للسفر في النيل فوجد السفينة التي يريد السفر عليها قد اقامت
فاراد المبيت في الفسطاط الى الصباح حتى يكر الى الساطى ويرك
سواها . افتح يا عمه . »

قال « لماذا لم يذهب الى الحان انه قريب من هذا المكان »
قال « لا يريد المبيت في الحان وهو لم يتعود ذلك وانا انيت به الى
هما خدمة لك » وهمس في اذنه قائلاً « يطهر انك لم تعرفني يا معلم حاييم »
فتفرس فيه السبخ وقال « عروتك يا جوهر اعفواي لم اعرفك »
من قبل «

قال « لا بأس .. وأنا جئت بهذا الطبيب ليبيت هنا وهو كريم الخلق
كثير المال لا يبالي كم تأخذون منه .. والاحسن ان تخلوا له البيت برمته
واطلعوا عن كل حجرة منه ديناراً وإذا قال لكم انه يحتاج الى حجرة
واحدة فقط قل له انك لا ترصى الا بأجير البيت برمته .. »

وفرح حاييم بهذا الرأي ولم يكن في بيته كاه ما يساوى دينارين من
الاثاث . فلما قال له جوهر ذلك رفع صوته وقال « لا تقدر ان ندخل
رجلاً عرياً ليبيت معنا فاداءه الطيب ان نؤجره البيت من بابه فعلمنا »
فقال جوهر « كم احرته ؟ »

قال « هو خمس عرف واحرته خمسة دنانير »
فطاهر جوهر ان يخادع قراقوش بالمساومة وقال « ان خمسة دنانير
كثيرة يا معلم حاييم ألا يكفي أربعة ؟ » وصعط على اصبعه ان لا يقل
فاجاب « كلا اذا لم يعجكم وهذا هو الخان قريب من هنا »
فطهر انه رضى وقال « لا بأس .. طيب ان مولانا الطبيب كريم .
وانتم ابن تمارين ؟ »

قال « ليس عندي الا امرأتى العجوز فبيت عند صهرنا وهو قريب
من هنا »

فتحول جوهر الى قراقوس قض منه الدنانير ودفعها الى السيح وهو
يقول له همساً « هذه هي الدنانير لكن دعني ان تحتص منها دينار بدفعه
الي عدا صا حاً مهم »

قال « حسناً » وهو يده ان لا يبع اليه شيئاً بل سدهم ان يدفع
حجته في الصلاح بقص بها ديناراً سادساً فدعى لهم الدنانير ستماً من
الاثاث او نحو ذلك

ثم تحول السيح الى الداخل وعاد بعد فئيل والمضاح يده ومعه

امراته وهي تقول « يطهر ان هذا الصبف عزيز عليك حتى اخرجتي من البيت لاحله »

فقال « كيف لا » وأشار الى بهاء الدين ان يتفصل . فتحول بهاء الدين عن بغلته فادخلها جواهر تحت قنطرة بجوار المنزل شدها الى حلقة دقت هناك لمثل هذه الغاية ودخل . ودفع حايم المصباح الى جواهر وانصرف وهو يوصيه بالبيت حيراً

الفصل السادس والاربعون

الجلسة

وما صدق قراقوش انهما دخلا البيت ولم نال بما يتصاعد عن دهاليزه من الروائح القذرة . فاقملا الباب واوصداه ومتى جواهر بالمصباح بين يدي قراقوش وهما يسترقان الخطى اثلا يسمع لهما صوت . ولم يمتيا طويلا حتى سمعا صوذاً عميقة فقال جواهر « نحن بجانب مجلس القوم ايس يساو بدتهم الا الحائط ... اصبر قليلا »

وكان قراقوش منذ خروجه من منزله يتحمر للدفاع عن نفسه وده على خنجره ليعمده في صدر جواهر اذا آس منه خيانة . فلم يلحظ منه شيئاً فلما استمتهل وقف وهو يحدق فيه فادا هو يتسیر اليه ان يصعد على سلم صيق يؤدي الى سميعة في اعلى العرفة . فصعد معه ومن هذه السقيفة اتصلا الى السطح من باب صمى كالمور . ورأيا السماء فوق رأسيهما ونظر بهاء الدين الى ما يحيط بهما وادا هما والاسطحة حولهما فقال جواهر بصوت ضعيف لتترك المصباح على السقيفة ونمسي في الطلام لئلا يمتضح امرنا »

فاطاعه ونمسي والصوذاً تزداد وصوحا حتى انتهى به الى حائط فقال

« هذا حائط آخر من حيطان قاعة الاجتماع »

فرأى بهاء الدين في أعلى الحائط كوة قد انشق النور منها فنقدم نحوها
مسبقه جوهر وقال « انظر هنا »

فنظر فرأى قاعة عاصية بالناس قعوداً على وسائد مصفوفة حول الغرفة
فوق ساط . وقد عات الضوضاء . ووقف بالماب رحل أسده بظاهه كأنه
يمنع من ساء الدخول فهمس جوهر في اذن بهاء الدين قائلاً « هل ترى
جيداً »

قال « نعم لكسي لم أعرف احداً منهم عبراني الحسن .. من هذا
الحالس الى جانبه ؟ »

قال « ان الذي تراه الى يمينه عمارة بن ابي الحسن الساعر البني . والى
يساره الناصبي العويرس وبعده داعي الدعاة والى الخانب الآخر عبدالصمد
الكتاب وعيره .. وكلهم من الشيعة كما تعلم . أنظر في وسط العرفه
ماذا ترى ؟ »

قال « أرى سيقاً ومصحفاً أطعمهم يخلفون عليهما »

قال « نعم »

وأحد فراقوش ينفرس في الحضور يعرفهم عند الحاجة . وادا هو الي
الحسن أسار بماه يطالب الاغناء فانصتوا فقال « اسرهم ايها الامراء ان
أعمالنا نكالت بالمجاح وحاء وقد الافرجح في هذا الصباح يحمل الهدايا
الى ذلك الكردي . وقد فرح بالمدة ودها وراءها . . جادما كتب
أنحاسا الى ساحل السام ايهم على أهله الرحيل سداً أو امدارة فابسروا
ببيل المراد »

فقصاى عمارة البني وهو ساعر مسهر ورحسه انظر الى الناصبي
العويرس وداعي الدعاة وشاه . أرباب المائات الشيعة في الدولة وقال

« ان مولانا الشريف ابا الحسن أهل لما يبعاه عليه من الخلافة لنسبه الشريف ولان مولانا الامام المرحوم قد أوصى له بولاية العهد كما سمعتم ذلك من الجالس الشريف قبل الان . فيجب ان نخلص له الطاعة لنعيد هذه الدولة الى روعها وكانت قد فسدت بمن دخل في أمورها من الاعاحم بسوء رأي المحيطين بالخليفة السابق وهم الذين أثاروا عليه باستجداد نور الدين صاحب الشام فكان ذلك سبباً في صيرورة الامر الى يوسف هذا (صلاح الدين) ولكسما متى تم لما ما دبرناه وقبضنا على أرملة الامور صرنا نتجنب هذا الخطأ في المستقبل . ولا نولي الماصب الا الذين تتق باخلاصهم وتفانيهم في الدعوة العلوية من العرب . . . انما عرب ونحن مادة الاسلام والقرآن عربي فلا ينبغي ان نسرك في امرنا غير العرب كما فعل غيرنا . . »

فقال عبد الصمد الكاتب « بارك الله فيك يا أخا اليمن (عمارة) قد مضى زمن الضعف والحمد لله . . . ان خليفةنا هذا (وأشار الى ابي الحسن) جمع بين الحرم والدعاء ووريرنا هذا (وأشار الى العويرس) لا متيل له في اصالة الرأي و . . »

فقطع كلامه رجل كان حالساً مد ساعة لا يسكلم كانه يهكر في امر هام لا يلتفت الى ما يدور بينهم فلما سمع كلام عبد الصمد سأن الوراة رفع رأسه وقال « ان الوراة لم يتم الاتفاق عليها بعد . واما مع احتراى للقاصى الاحل لا أرى له حقاً بالوراة وانما هي لسلالة الورااء آل دريك فاهم تولوها في عهد الأئمة السابقين ولهم عايها فصل فلا يليق تقايها الى سواهم . . »

فتصدى رجل آخر كان قد نهض في تلك الاتاء وأحدهم في اذن ابي الحسن وابو الحسن يهر رأسه له هرة الرضا والاسمحسان — تصدى

هذا وقطع كلام الرجل قائلاً « مهلاً لا تتنازعوا على منصب هو حق لنا
وكان في غيبتنا بالامس »

وصحك صاحب وراة بى رزيك وقال « تريد أن ترجع الوزارة
الى ساور ؟ ألم تكن هذه المصائب كلها من وزارته ألم يكن هو الذي أحرق
هذه المدينة الراهرة بسوء تدبيره ؟ ان الوزارة لا تكون لغير آل رزيك .
ونحن اصحابها الاولون .. »

فتكلم ابو الحسن وهو بدش ويتأطف وقال « خففوا من غصصكم
وارجعوا الى صوابكم .. لسنا الان في معرض التسارع على المصائب انما نحن
في الاتحاد على اخراج هذا العدو من بلادنا ومتى أخرجناه نعمل ما يتفق
عليه الرأي .. »

فقال صاحب وراة آل رزيك « طمأناً ان ابا الحسن لاهمه البحث
في المصائب الان لانه ضمن لنفسه الخلافة بسند سبه في العبيديس .. ولم
يداره أحد في ذمة سبه لان الخناس السر هم شهد بصحته بما على ما سمعوه
من الامام المرحوم .. » وتلك تحكة استحفاف

الفصل السابع والاربعون

المحوم

وكان فراقوس مصعباً لما دار وفد شامد كال حركة وجهر واقف بين
يديه يتناول ليرى ما راد فاكفى ما سمع من اهل هذه وانفت الى
جوهر وهال بالانسابة « آيس المصباح » الى ..

ففرل الى السقيفة وانى المصباح مساولة فراقوس ومعه الجوهر . نزع واداره
ببده بمركا رجوية كما انتهى مع قائد تلك الرحلة . ثم نزل واحوى المصباح

وعاد الى الكوة والناس يتحاجون ويتناقسون . واذا بالصوضاء قد تعاطمت ولم تَمْضْ دقائق قليلة حتى صار رجال قراقوس داخل القاعة وأخذوا في القبض على من فيها . وليس فيهم من يستطيع دفاعاً لانهم لم يكونوا قد أعدوا من وسائل الدفاع غير أسلحتهم واصواتهم

ووجه قراقوش التفاته خصوصاً الى ابي الحسن فلم يجد به المتقبض عليهم فظنهم اخرجوه الى خارج القاعة . ولما أيقن بغرور رجاله بالقبض على المتأمرين أسار الى حوهر النزول للرحوع الى القاهرة . فزل بين يديه بالمصباح وقراقوش يتبعه ولم تطأ رحله السقيفة حتى سمع وقع أقدام مسرعة في أرض الملت تحت السقيفة فاحفل فتفرس قراقوش على المور الضعيف فرأى سبجاً بالعمامة والحمة لم يعرفه فقال له حوهر همساً « هذا ابو الحسن هلم اليه » فبادر الى اطعام المصباح حتى لا يعرف مكانه واسرع في النزول ليقبض على ابي الحسن وهو يحسبه دخل هذا المنزل بتواطؤ ساس مع صاحبه لمثل هذه الساعة على ان يبيت فيه ليلته ثم يفر في الصباح

نزلا الى ارض البيت وحوهر يقود قراقوش لانه يعرف دواخل المكان واصاحا فلم يسمعا خطواً ولا صوتاً كأن ذلك السح كان طلاً ورال . فاراد قراقوش ان يير المصباح ليرى المكان في المور فاشار الى حوهر ان يفعل واستل خنجره وتهياً للهجوم على من يظهر امامه . ولم يكك حوهر يمدأ بالاشتعال حتي سمعا صرير باب الدار فركضا اليه فوحدا الباب مفتوحاً وليس هناك احد فاصاء المصباح واحذا في المحت عن ابي الحسن في كل مكان فلم يجداه فتأ كدا انه نجا مهال قراقوش « هل انت منأ كد يا حوهر انه ابو الحسن ؟ »

قال « يغلب على ظني يا سيدي انه هو ومع ذلك قد يكون سواه .. هلم بنا للمحب عنه في الاماكن المحاورة فاذا لم نلحه فلدا . في حملة المتقبض

عليهم والا فانه قد نحا قبضه الله »

فخرحاً وركب قرافوش بغلته واخذ في البحث عنه في تلك الدار وما يجاورها فلم يقف له على أثر فدهما الى القاهرة وبهاء الدين يحاف ان يكون أبو الحسن قد نحا وكان خوفه في محله

اما سائر المقبوض عليهم من المتأمرين فحكم عليه بالصلب وفي مقدمتهم عمارة التميمي المتقدم ذكره فصلوا في ٢ رمضان سنة ٥٦٩ هـ ^(١) وارتاح بال صلاح الدين من هؤلاء الكفرة ما زال يذكر في ابي الحسن سبب تلك الدسائس

اما سيدة الملك فاصححت في ثاني يوم القمص على المتأمرين وكلفت ياقوتة بالبحث عما تم . فلما ابأها بالقمص عليهم فرحت لكر ساءها فرار ابي الحسن وهو مصدر مناعها . وتعلم انه لا يال الى ماذا يفعل في سبيل عرصه . لا برعى ذمته ولا يفت حراماً فمطرت الى اقربيه قائلة « ان صلاح الدين قد فار بما برىد ... »

فمالت ياقوتة « ان نخاة ذلك الخائن كدرتى كبراً ولكن ما العمل . لا بد من ان يرجع كده في نحره . لان الله عريمه . ولم يعد يهمنا أمره ونحن في حياطة صلاح الدين . والآن جيتك سيء يعريك على هذه المصيبة »

فمعب سيدة الملك وقد اصححت سمعت اسكل حديد تبوقعه لمرط فاقها على خاد الدين فقالت « ما وراك ؟ »

فصحكت وقالت « ابى سائمة عليك السلام عن مراد الدين . كيف تعامل بمحى رسول من تملكه رآه قبل سمعه وحاطه واما من كارهه انه سجن ولا تسألين عن ذلك الرسول حتى تسمن دنيه ايضاً ما هو آتاه رساله ؟ »

فتمهدت سيدة الملك وقالت « آه يا باقوتة قد أقلقتك بكثرة الاسئلة.. هل تتوهمين اني غفلت عن هذا الفكر ؟ . ان رسول عماد الدين يؤسي اذ رأيتة.. وكنت عارمة على استدعائه أين هو ؟ . »
 قالت « أخبرني مها الدين الآن أن ذلك الرسول يطلب أن يراك وان عماد الدين كافه بذلك .. »

فتوردت وجتهاها وقد أحدها الفرح ولم تماك أن صاحت « عماد الدين كافه أن يراي . الحمد لله انه يفكر في .. هو اداً يحبني .. » ثم تراجمت وقد بدمت على تلك اللفظة وخجلت وادارت وجهها الى حائط عليه ستاره موساة بالالوان الخيمه تتساعلت بالنظر اليها فقالت باقوتة بصوت ضعيف « يا لله من الحب ! كيف يجعل سيدة الملك سلاله الخلفاء ونزيلة السلاطن يستحها الفرح ادا سأل عنها شباب من . »

فقطعت سيدة الملك كلامها قائلة « لا تقولي شيئاً عن عماد الدين انه عدي فوق الخلفاء والسلاطين .. صدقت ان الحب.. آه .. صرت اذكر الحب بين يديك ولا حياء .. ان الحب يفعل كثيراً .. والآس أين ذلك الرسول دعيه يدخل .. »

الفصل الثامن والاربعون

رسول الحبيب

مخرحت باقوتة وعادت بعد قليل ومعها شاب في ري أهل بيت المقدس الذي يلبسونه في الاسفار . حول رأسه الكوفية كالحجار وقد تسمر بل

والمرأويل القصيرة وحول خصره منطفة عريضة من الخلد غرس في مقدمها
حجرًا صغيراً ولف حول سافيه لفافه من النسيج نسهل عليه المسمى
السريع

فلما دخل وقف مهبطاً متأدباً فارسلت سيده الملك حمارها ورحلت به
قائله « ما اسمك يا سلام ؟ »

قال « اسمي حرحس »

قالت « أنت مسيحي ادا ؟ ! »

قال « نعم يا سدي »

قالت « من أين انت آ ؟ »

قال « حئت من بيت المقدس برسالة الى السلطان صلاح الدين وود
أدبتها بالامس ولكن صاحب تلك الرسالة أصر الى أمرها خصوصيا كالمسمى
به بمعلق بسيده الملك »

فأجاب « وما هو ذلك الامر ؟ أنت من يدي سيده الملك الآن »

فاطرق احتراماً وقال « ايكا هي ؟ »

فتقدمت باقوتة وقالت وهي تسير الى سيدها « هذه مولانا سيده

الملك قل ما عندك وأرجو أن تكون صادقاً في ما تقول »

قال « وما الذي يخشى على الوقوف من يديها ان لم أكن صادقاً في

مسمى وخصوصاً لان الامر الذي حئت به لم يطلع عليه أحد سداي.

ولولا ذلك لم أكن لاسئدك العيب وأسدي »

فأنت باقوتة « حرمك يا ساد رايل اند فمك » « وورث ان مولاي

في السائل عن زاد الدين « قالت « كتب بامره - اد لادين ب. »

قال « لم يمس اسمه ساد الدين د سيدي بل منه ادسني انك

عبد الجبار »

قالت « ونعم الاسم . كيف عرفته ؟ من أسرّ اليك هذه المهمة ؟ »
 قال « عرفته في ارح المواقف وما لبنت أن تعرفته حتى تعشقت
 أخلافه وصر ب أفديه بروحي .. انه شاب نادر المال بالمرءة والحمية »
 ولما سمعت سيدة الملك اطراءه اشرق وجهها وحقق قلبها وتناولت
 لتسمع بنية الحديث . اما ياقوتة فاجابته وهي تطهر السداحة قائلة « امر
 غريب ! يظهر انك عاسى له .. قل كيف وقع ذلك . وما هي المهمة التي
 حثت بها ؟ »

فقال « كان عماد الدين ماراً ست المقدس في طريقه الى نواحي
 حلب في امر لا اعلمه فقمص عليه الافريح حداً وسحبوه . وكنت انا
 مسجوناً مثله فتعارفنا في السجن فرأيت فيه احلاق الملوك وتحدثت قلوبنا
 فاحببناه واخلص لي وتكاثفنا في امور كثيرة فلم يدكر لي شيئاً يتعلق
 بسيدة الملك . ثم اتيت لي الخروح من السجن وتقررت من صاحب بيت
 المقدس الافريحي واصبح همى انتقاد صديقي سالم من السجن فلم يسعدني
 الحظ بعد لكسى كمت اتردد عليه دائماً واتفقده مما يخفف عنه .
 وسمعا في اثناء ذلك بماحدث هما من موت الامام رحمه الله وتغير الاحوال
 وانزال أهل الخليفة في هذا العصر بالاكرام وكنت اقص عليه كل ما اعلمه
 وفي جملة ذلك المؤامرة التي تلميها وقد دعني صاحب بيت المقدس دليلاً
 للوفد الذي جاء لتقديم الهدايا وحث لوداع سالم فكلمني بايصال كتاب
 الى السلطان صلاح الدين . ثم أسرّ اليّ ان انحى عن سيدة الملك واطمئنه
 عن حالها وها انى بين يديها »

وقالت ياقوتة « وما الذي اطلعك عليه من علاقته بها »

قال « لم يدكر لي مصيلاً كثيراً لان الوقت لم يكن يآذن بالتطوّل
 ولكسى هممت من عرض الحديث انه يجمل سيدة الملك كثيراً . وقد

خطر له انكم تستغشونني ولا تصدقون قولي فمدفع اليّ هذه الحوهره على سبيل الامارة » ومد يده الى حبيب في منطقته واستخرج حوهره دمهها الى ياقوته فنفرسن فيها وافتربت من سيده الملك خالما رأيا قالت همسا « هذه احدى حواهر العفد الذي اعطياه اياه تلك اللبلة وتأكدت ثمه عماد الدين به والمفنت الى الساب وقالت « صدقت .. قد تأكدا الان انك رسول مـهـه . كيف هو ومتى يخرج من السجن واذا خرج ألا يأتي الى هنا ؟ »

قال « سيخرج قريباً ان شاء الله وهو في حير وادا خرج لا اظنه يأتي توا الى هنا بل عليه مهمة لا اعرفها . وقد كلفني ان اقول لك انه سيعود الى هـا مـى ورجع منها »

فالتقيت نـهـسـها وأطروفت ثم رفعت بصـرـها اليه وقالت « ادا هو في خير وهذا يكفي .. ادا دعهما الملك امانه هل توصلها اليه ؟ »
فوضع يده على رأسه وقال « كيف لا يا سيدني أتمى حـامـة اودها له .. »

فاسارب الى ياقوته وهدنت منها فامر بها ان تسحر بعض الحواهر بعبع بها اليه وان تكتب اليه كتاباً تؤكده فيه بما ها على حـمـه وانها تتوقع رجوعه بفارع النسر

فعملت ووصعت الحواهر والكتابات في كدس خاطئه ودمعته الى الرسول . ودمعت اليه صره فيها حـسـون دياراً وذات عـمـده احـرن الطريق
فأحدها وسكر واسرف وطأت سيدة المالك برهه بيد دهانه وهي تحاطب ياقوته أساتنه وياقوته تصدحها حتى احمده

الفصل التاسع والاربعون

السلطان نور الدين

واما ابو الحسن فقد علمت انه محا تلك الليلة من القبض عليه لانه كان لفرط دهائه وحذره يخطا لكل شيء . وكان قد اعد منفذاً من فاعة الاجتماع الى بيت ذلك اليهودي حتى اذا داهمهم مداهم فر من هناك لا يبالى بما يصيب رفاقه — وانما هو بطال الحجة لنفسه

قصي بصرة ايام محتثاً في بعض المسارل حتى علم ما كان من عاقبة رفاقه الممارين وكيف قضى عليهم بالصبا فيئس من مصر ورحلها . ولكن مطامعه ما رالت تريه المحال ممكناً — والمرء اذا رغب في شيء وان كان بعيداً فان رعمته فيه تريه اباه قريباً — فاعمل فكرته في سبيل آخر اسعى فيه الانتقام من سيده الملك . وقد علم في اثناء تربصه انها هي التي استعانت بحادمه حوهر على كسف امرهم فارادد حقاً عليها فخطره بعد التفكير ان يسعين بالسلطان نور الدين صاحب السام . يحمل اليه اسراراً هو مطاع عليها تتعلق برعة صلاح الدين في الاستقلال بمصر وما صرح به ضد نور الدين . فيسي به الى نور الدين ويحمله على محارته واخرجه من مصر عنوة . وان تشهد هو ذلك الفصح فيجعل عنمته به سيده الملك . واستسهل كل صعب في هذا السبيل وراه قريب المال

واما اقمع بصحة رأيه احتمال في الفرار من مصر طالماً دمشق السام وواصل المسير وحد في فوصل دمشق متسكراً سوب تاجر مصري ونزل في خان من خاناتها قرب من القاعة وهي يومئذ مقر السلطان نور الدين ردمسى راهبة بذلك السلطان العظيم راعها في حون ما ناله من الابدان

المتوالية على الافرنج في مواقع مختلفة من بلاد الشام . اسكنه لم يكذب
يستقر به الخلوس في الحان حتى سمع لغط القوم بالبحراف حنة السلطان منذ
ايام وقلق الناس على حياته لانه اصاب بالحوادث . فاختار الحسن بمكر
في وسيله ينصل بها الى مخالسته والمداولة معه في امر مصر .

وسأل عن طبيب له خاص وعلم انه الرحي وهو من حذاق الاطباء
وكانت له معه معرفة . فسار اليه فوجده في منزله فاستقبله الطبيب احسن
استقبال وكان قد لقيه بمصر وعرف منراته من الخليفة العاضد فسأله
او الحسن عن حال السلطان فقال « انه مصاب بالحمى وقد استد عليه
المرض لانه ابى المصدا » فظهر اسمه وقال « ألا تيسر لي ماحقته اعلى
افعه بالمصد . ولي معه حديث اذا اطلعت عليه . ربي عه »

فرأى الطبيب ان يستعين به على ذلك وهم مطلع على قاذ السامان
نور الدس من جهة مصر وطبه يرب في استئصال ابى الحسن لعل يستطاع
منه امراً حديداً فيأذن بمقابله وله كان مريضاً فاستعمله الطبيب الى
صباح اليوم التالي

وحاءه ابو الحسن في الصباح فقال له « ان مولانا السامان احسن
حالا الان وقد ذكر لك له فاحب ان يراك »

فخرج ابو الحسن به ولواورك مع الطبيب الى الناحية وكان السلطان
مقيماً في غرقة من عررها اصابا المرض وهو في اشد حاله . فاحل الطبيب
اولاً واستأذن لاني الحسن فادخله الى حلقه . فالتفت اليه بوجهه وادخله
وكان قد عرف السلطان من قبل فادخله مع . فمر مره ومره في الناحية
مسرق الوجه فآد قد عذب . وكان السامان من الدس استد الناحية
لوييل القامة ليس له حية الا في حركه . وكان واسع الناحية من السور
سور العمدن ولكن المرض به . فاحل السامان . فاحل السامان

داخلاً ابتسم له على عادته بالملاطفة والمحاملة
فاكب أبو الحسن على يده كانه يريد تقييلها فامتنع نور الدين عن
ذلك وأشار اليه أن يتعد . ولم يكن في تلك العرفة شيء من الرياس لانها
ليست القاعة الي يهابل الماس فيها وانما اتفق وجوده هناك عند الاصابه
جلس أبو الحسن على وسادة وقال « كيف مولانا اليوم أرحوان يكون
في سحرة لان سلامته سلامة الدولة وفي سفائه سفاء الاسلام وأرحوان لا
أكون قد بقلت عليه بقدمي »

وقال نور الدين وصوته ضعيف من الخوايق « الحمد لله على كل
حال .. وأما قدومك فمد سري لعلمي انك قادم من مصر وفيها حينما
ووريرنا الملك الماصر كيف نارقته ؟ »

فلما سمعه ياقب صلاح الدين بالحبيب اساءم لكه عرم على المراوغة
« قال « هو في حير بظل مولانا السلطان الملك العادل »
قال « كيف فارقت مصر ؟ »

قال « فارقتها واهما ياتشوقون الى طلعة مولانا السلطان أعره الله ويخمنون
لو أنه سرفهم بالرياره ليرى مملكته الجديدة . »

فاسرق وجه نور الدين وسره أن يسمع ذلك من أمير مصرى كان
من المهرس للدولة الماصية فقال « ولكن دعنا أن نعصهم تأمرنا على حلع
الطاعة . فهل ذلك صحيح ؟ »

قال « نعم ما سدي أنهم تأمرنا ولاكن ليس على حلع طاعة السلطان
نور الدين »

قال « وكيف أدن ؟ .. » وبدب المنة في عنيه وسى مرضه وأخذ
يعت بحاج لحيته عند الحملك وتهرس في عيني الى الحسن ليرى
ما يبدو منه

فقال ابو الحسن « ان اهل مصر من أقرب الناس الى الطاعة ولكن .. »
 وبلغ ريقه وتخنخ وأطهر أنه يكتم امرأ لا يحب التصريح به
 فقال نور الدين « ما نالك ؟ ... ولكن ماذا ؟ »
 قال « لا أحب ان ازعج سيدي السلطان بامور لا اطمئنها تسره . »
 فمدا الغضب في وجه نور الدين وقال « قل .. قل .. تأمر وا على
 خلع من ؟ »

قال « انهم تأمر وا على خلع طاعة السلطان صلاح الدين »
 قال « أليس طاعته طاعتي ؟ »
 قال « بلى .. هكذا يحب أن يكون ولو طلب طاعما باسم السلطان
 نور الدين لما وجد مخالفاً »
 قال « وكيف طاعها اذا ؟ »
 قال « يطهر أن اجاب البريد بحموض الحقنة عن مولانا السلطان فادا
 ادن لي تكلمت »
 قال « قل .. قد ادب لك »

فانقب ابو الحسن الى الطيب كأنه يستشيره في هل يقصر العصب في
 صحة السلطان. فقدم الطيب الى السلطان وقال « أرى مولانا السلطان قد
 بان العصب في وجهه وهو مرخص ألا يوحد هذا الخديف الى وقت
 آخر »

فقال « لا .. اني في خير . ما اصابني »

فاعتدا ابو الحسن في مخاضه وقال « ان رايي في صلاح الدين لم يطلب
 الجامعة المصرية باسمك واسمك طابا باسمه وريعه ان هو راحب الامور
 وليس للسلطان نور الدين في منه عهد فوماد وآمر عليه لا ما لا يريد
 ان يعرف غير مولانا نور الدين سلطانا . انا اسمعك احبوا ذلك عنه . »

وقد صرح صلاح الدين بذلك في حلقة علنية — حتى ان اناه نجم الدين انتهره وأمره بالكتمان . قال ذلك وسكت

الفصل الخمسون

الفصل

وكان نور الدين حسن الفراسة فاطرق هنيئة يفكر في ما سمعه وهو يعجب بالحيثية فلم تعجبه تلك الوثاية من عدو طبيعي لها ولا سيما بعد أن سمع اعترافه بأنه كان من المتآمرين على صلاح الدين . وأدرك انه لو كان صادقاً في طاعته انور الدين لم يساعد على خلع الطاعة بتلك الصورة بل كان عليه أن يعمل حراً صلاح الدين اليه ويرجح لديه كذبه فقال « وماذا ترى الآن ؟ »

قال « أرى ان لا نسحق مولانا السلطان العادل بمطامع وريبه فانه قد حاهر باسفلاله بمصر قبل موت الامام العاصد وكيف به الان ؟ فاعلى السلطان الا أن يجرّد عليه ويخصمه وأنا في خدمته أفديه بدمي »

ثم افاق السلطان نور الدين عينيه السوداوين وكاد السرر يتطاير ممها لسدة العصب وقال « لو كنت صادقاً في نصحتك لملت اليها هذه الوساية من قمل فصرك عليها حتى الان حمده عليك وعلى أختائك المتآمرين . اما انتم تأمرتم على خلع طاعة نور الدين . بل أردتم نفذ بيعة الامام العباسي لانه مبني . وطمعتم باسترجاع السيادة لانفسكم ... » وكان تشككهم وهو مستلق وأخذ يرتعد من العصب فاعتدل يريد الخلو فاعانه الطبيب على ذلك وندم على الادب له في الكلام

فأخذ أبو الحسن يتصل من تلك المهمة وقال « لم أحسن التعبير عن مرادى يا سيدي . اني أصدقك الخبر . ان ما قلته هو الصحيح . نحن طائعون لسلطان نور الدين و .. »

قال « لو كنتم صادقين لالعلم وزيرى وبائى صلاح الدين .. لكنكم تعودتم التملق والتدبدب .. ما الذى أساءكم به صلاح الدين ؟ ألم ترسلوا اليما شعور أسائكم تستعيثون بما فاندنا اليكم معه سير كويه وقد انقذكم ، وهذا صلاح الدين أخذ العصيان وأصلح الملامد وأبطل الصرائب . وكان ينبغي أن تعرفوا له فضله . . . ولكن قوماً يبلغ بهم الدل حتى يستشفعوا بشعور سائهم لا يرحى منهم وفاء .. لا أزال أذكر سوء وقع ذلك في مجلسنا يوم أتتما تلك الشعور في المناديل وقد عقد المجلس للنظر فى طلب امامكم . وكان بين العلام ساب صغير لم يملك حين رأى تلك الشعور أن تقدم الى ان أعطيه خصلة منها حمراء ذهبية وكان مفرطاً من صلاح الدين ودفعها اليه لارى ما يندوم منه . فلما فرس فيها قال « ان صاحبة هذا الشعر الحميل لا تمتهن وهي اما بنت الخليفة أو اخته فاني معيده اليها . فاذنت له بالحصله فأخذها في منديلها ولا أدري اذا كان قد وفق الى ما اراد .. فكيف ترحو أن اتوقع منكم وفاء ؟ وقد حنتي الان تريد الايقاع بي وبين نائبي . هب انه اراد الاستقلال بمصر فليأخذها هو فان البيعه واحدة ولا ترحو لكم . » ولما بلغ الى ههنا ان التعب عليه وحول وجهه عن ابي الحسن باحتقار وإدار له ظهره وعاد الى الرواد وهو يهاب من التعب

أما أبو الحسن فحمد الدم في عروقه من الفسل وأحسن كأثك صببت عليه ماء بارداً . وأحد برعد وقد وقع خبر خصلة الشعر عليه ووقع الصاعقه لعلمه انها من شعر سيدة الملك . فاسار اليه الطلب أن يخرج حالاً لان الساطان أصابته نكسة بسبب العصب . خاف أبو الحسن أن يأمر السلطان

بالقبض عليه فخرج مسرعاً واختفى في مكان لا يعرفه فيه أحد ريثما يرى ما يكون

وفي الصباح التالي طاف المبادون في المدينة يبعون السلطان نور الدين (توفي في ١١ سول سنة ٥٦٩) وتناقل الناس عن سب وفاته بعد أن تحسنت صحته انه غضب من بعض الناس فاصابته بوبه دهمت بحياته . فاسقط في يد ابي الحسن وعمد الى الفرار وقد تولاه اليأس واطلمت الدنيا في عينيه

حرج من دمتق وهو يرغى ويزبد من شدة الغضب والحادم في ركابه لا يجسر على الطر الىه . حتى اذا مرَّ بالعوطة وصل الى عين ماء حارية يظللها ويحيط بها أشجار التماح والسرحل والمشمس وسائر انواع العاكة وقد دخل الربيع^(١) وتفتحت الارهار وتعت الاطيار . والطبيعة ضاحكة الا ابا الحسن فانه لم يكن يرى شيئاً غير القتل نصب عليه . واما نبهته البعلة الى الوفوف هناك لانها رأت الماء حارياً فهاجها العطش فالت الى فاة الماء لتسرب . فانتبه او الحسن وقد صارت الشمس في الضحى وهو في الحلاء لارقب عليه . فلاح له أن يهزل هناك ليستريح وترجل وسلم المغلة الى الحادم يهتف بامرها . وتغلغل بين الاشجار على عفلة من الستاني لانهم لا يتوقعون نزول الناس هناك في مثل تلك الساعة

أما او الحسن فلما حلا نفسه قعد الى جدع ممتشة نذلت أعصاهما تحمل نوعاً من المشمس يفاحر به أهل الشام سائر المسرق ويعرف الآن بالمشمس الجوى يصبح في انا ان الربيع وفيه لذة وفكاهة والاس يقصدون العوطة للتمتع بمطره وطعمه

(١) يقع شهر شوال من تلك السنة (٥٦٩) في ماو ويويو ١٩٧٤ م

(التقويم العام)

أما أبو الحسن فلم يحظر بماله شيء من ذلك لكن اشراق الطبيعة أدركه ماضيه وأوصح له ما هو فيه فازداد انقباضاً . مكث رهة يفكر وهو في غفلة عن زقزقة العصافير وتطابيرها ومداعبتها ولبس فيها من يضاف الفسل لأمها مثل سائر الاحياء لا نطلب من الطبيعة غير ضرورات النماء وهي مأسورة أما الانسان فمن مطالبه ما لا يبال الا بالجهد والعناء وهو لا يبالى أن يرتكب في سبيل نيله أنواع المحرمات

وبعد السكوت مدة نبهته حمرة اسانت لحامه بين العصب فالتفت الى ما يحرق به من جمال الطبيعة ومهائنها واتصحت له الطلعة التي هو عارق فيها . ومرت تارديح حياته في خاطره مرور السهم فلم يردد الا انقاضها وتمس له ان سبب هذا السماء اما هو رفض سنده الملاك له . وانسحب منه عليها واعتنم غيباب حادته وأخذ يباحي نفسه قائلاً :

« ويل لك يا لعمرة . مصاص ذلك العلام على » اما كان الافضل لك أن تكون أبو الحسن روحك ويبقى هذا المالك لك . كمت قادراً أن تقتل صلاح الدين ولم أفعل لاني أريد ان استمر تعبي بهدي لأن يستعمله سواي . سلمت أنك تتكبر في صحة نسي ولا تعتقد من أبي من يسمي الله . أصابك لست منهم ولكن سرف النسب وهم . انما الرجال الاعمال وهم انتحلت ذلك النسب لان الناس يحترمونه . وطابته يكون وسيل اليك والى المملك ما أوسكت الوصول الى العرض عرفت مساعي عقر سناك وعلمك بذلك الخادم .

ثم أحبل اسمه له سمسة وقعت على الخشيش الياس فاحدثت حفيقا متحديا مكثاره الى متى أح . بعد كرميهما فقال « وانت يا راشد الدين قد آن الموت لاسمع منك على هذه الما . لا لاتزوحها بل لاذنقها العذاب ثم رأينا رأي المرسلات بها فبذلك من لا يدعها الم . » وكذا .

عزم على أمر توسم المحاح فيه فارتاح ناله وانفتحت السويداء عن محبته
وقد أحس بالمحوع والتفت الى ما حوله فلم يجد أحداً فصفق للخادم وناداه
فأتى فأوعر اليه ان يأمر الدستاني يهـ له طعاماً وفاكهة . فاطاعه فاكلا .
وعاد ابو الحسن الى تدبير ما عزم عليه فليتركه في تدبيره ولنسحت عن
عماد الدس وقد طال ما السكوب عنه

الفصل الحادي والخمسون

في السجن

عادت من سباق الحديد ان عماد الدين لاقى في سفره عذاباً اد
فمنص عليه الافرنج بقرب بيت المقدس لاعتمادهم انه حاسوس وسحبوه
مدة نعرف في انائها الى حرجس هذا كما تقدم . ولم يكن حرجس مسيحياً
كما قال واما هو من كبار العدائين الاسماعيليين واسمه الحقيقي عبد الرحيم
بعته راشد الدين لقتل أموري الامر ببحى صاحب بيت المقدس . فتكر
باسم حرجس واحتال حتى جعلهم يقضون عليه ويسحبونه ليتمكن في اناء
سجنه من التعرف الى صغار أهل الملاط ويطلع على خفايا العصر بحيث
يسهل عليه الوصول الى عرصه . وعادة أولئك العدائين في تنفيذ أمر
مولاهم راشد الدين ان أحدهم اذا كلف قتل احد الملوكة جعل نفسه من
أصغر حده . والمالب أن يجعل نفسه سائساً لحواده ليتيسر له الاقتراب
اليه عند الركوب والنزول فيعتم غفله منه يعرض بها حنجره في صدره
في أساء اقامة عبد الرحيم (او حرجس) هذا في السجن تعرف الى
عماد الدين وأخيه وتمكنت العلائق بينهما وكاتفه عبد الرحيم بحقيقته
وكيف انه . ولم وانه احتال بالبحس المتوصل الى عزمه وقيل صاحب

بيت المقدس بإشارة مولاه راشد الدين وأخذ يرغبه في هذه الطائفة ونبالة مقاصدها وتدة تأثيرها محمد عماد الدين السبب الذي جرّه الى ذلك السجن لانه كان وسيلة الى هذا التعارف وسهل عليه مهمته . فظهر ارتياحه لذلك الرأي ووعده انه ينتظم في سلك الاسماعيلية بعد خروجه من السجن وهو يصمر أن يجعل ذلك الانتظام وسيلة لتنفيذ مهمته التي حاء من أحبابها لقتل راشد الدين . وبذل جهده في اكتساب ثقة عماد الرحيم واطاعه في تغيير اسمه فعمله عند الحبار »

أيام السجن طويله لانها خالية من العمل فيملّ المسجونون الفراغ ويضطرون لقضاء الوقت بالاحاديث او الالاعاب . وكان عماد الرحيم يقضي معظم الوقت في الحديث عن راشد الدين وكراماته ومهدرته وكيف انه يعلم العيب وتنبأ عن المستقبل ويحدث الاحجار ويأتى بالمعجرات . وانه يفعل ذلك لا اطمع في الدنيا وانما هو يمصر الاسلام . واستشهد على صحة قوله بالمهجة التي أتى هو بها لقتل صاحب بيت المقدس . وكان كلما ذكر راشد الدين نارت الحمية فيه وهاجت عواطفه وأصبح كله ألسنة تطلق بفضائله . وكان لافواله مع التكرار تأثير على عماد الدين فاصبح يرى وجود راشد الدين قوة عظيمة يمكن الاستعانة بها على الافرج اذا تمكن من اكتساب صداقه على ان ما سمعه من معجرات ذلك الرجل وكراماته وعن جنته وسائه حبت اليه الاطلاع على حقيقته ذلك

تلكم هذه الصحبة اليها ثم اتى عماد الرحيم في السجن وخرج وأهل البلاد يحمله ويرون بوجوده نفعاً لهم لانه مسبحى يعرف لغة البلاد وعادتها . فقرر به وهو بمثل هذه في مرضاهم توصلاً الى عرضه فلما دارت المحاربة بين الحارب العميدى في القاهرة وبين الافرج وادبته بإرسال الوفد احتاروه ليكن دليلاً . وذهب له داع عماد الدين فاستمر اليه

ما تقدم ذكره فمذلل جهده في خدمة صديقه رغبة في ادخاله سلك
الاسماعيلية لانه آنس فيه من السحابة والدكاء ما يندر مثاله وهم في حاجة
الى السجعان

ولما عاد من تلك المهمة توسط في اخراج عماد الدين من السجن وأبلعه
ثمرة كتابه الى صلاح الدين وكيف انه قبض على المتآمرين وقتلهم صلباً
الا أبا الحسن أخبره انه محا . ثم دفع اليه كتاباً من صلاح الدين يتي فيه
على حميته . وصدق مودته وبعث اليه مالاً يستعين به

ثم أطلعه على ما عرفه عن سيدة الملك ودفع اليه كتاب ياقوتة
والخواهر . فتناولها واعطى قسماً منها الى صديقه عبد الرحيم فازداد تعلقاً
به — وليس كالسجاء يحب صاحبه الى الناس مهما يكن فيه من العيوب .
حتى جرى على ألسنة العامة قولهم « ما من عيب الا والكرم عطاء » وكيف
اذا كان الكريم قليل العيوب أو لا عيب فيه ؟ ولو علم الاغنياء ما يعطيه
الكرم من عيوبهم لكرهوا البخل وبعثوا عنه — وكلما يذهب الكرم بعيوب
الاغنياء فالمحل يخلص بهم عيوباً ليست فيهم

واسرع عماد الدين الى كتاب ياقوتة فقرأ فيه قولها :

« سلام عليك يا عماد الدين . حاءنا صديقك وسرنا انك في حصة
ولكن ساءنا ما أصابك في السجن . على ان ما عرفناه من حب هذا الصديق
لك وما يظهر فيه من المروءة والتهامة طأنا عليك . اما نقيم الآن في
دار الاضياف تحت رعاية السلطان صلاح الدين — انه شهم وفد أكرمنا
عايه الاكرام . ويسرنى ان أحبرك بأنه جعل مولاتى سيدة الملك اختاً له
وهو يعاملها معاملتة الاخت من كل وجه . وجاء دكرك مرة أمامه فاكتر
من المراء عليك وما يرحوه لك من المستقبل السعيد . انما ساء سيدتي انك
في السجن على ان صديقك جرجس اشترنا بقرب حروحك منه سالماً معافى

ولكن عظم علينا لك ستبطل في المجي، الننا . محل ولا تقطع أخبارك وعليك السلام »

ولما فرأ الكتاب أحسن بسىء حديد لم يشعر به من قبل . وقد كان الى تلك الساعة مضطرب الامكار من جهة سيدة الملك اعلمه ان صلاح الدين خطبها لنفسه . ورأى من الجهة الباقية ما أظهرته من الميل اليه حتى أوشكت أن تقول له سر بجا أنها عاشقه له تتفانى في حبه . فوقع في حيرة وإنما سئل عن ذلك بالاسماع وملاقة الاخطار يرى ما تأتي به الاقدار . ولما اطلع على كتاب يافوثة وعلم ان صلاح الدين لا يريد الراح سيما الملك ورأى سلفها عليه في ذلك الكتاب مع اخنضاده أحسن أنها له وحده . واضطربت نيران الحب في قلبه دفعه واحده لأن لم يمنع تلك المدة كلها احدهم في ذلك اليوم وظهرت دفعه واحده . فأصبحت صورته سيدة الملك نصب عينيه كعنا توجه وهو لا يزال يدير مغارعا من البالد وهي واهمه تودعه ومعجل بدوله في السراديب . ولم يكن معه من ذلك العواطف

الفصل الثاني والخمسون

السفر

وبعد حملة الدم الحراء وكيفية . على أنها من سر الدين وهو سلام لا سأل الله بغيره ان يكون الدين . أحدهم . كيف وفق الاحياء بصادق اولى في الدنيا رأيتها يدع إليها السعيد من ذال . كانه يدهه في حفاة معيش ان الهادير أعدت له من انسة العزة والدين الى آلامه . به . انه . الى . السعد . الى .

ولا سعادة بدون الحب .. اختلف الناس في تعريف السعادة فجعلها بعضهم في المال وآخرون في الشهرة وآخرون في الصحة ودهموا فيها مذاهب شتى . لكن المحسن يعلمون أن السعادة في تبادل المحبة بين حمائيين يرحوان ويحافان يلتقيان ويمترقان وهما في كل حال في سعادة الاجتماع اما بالفعل أو بالامل . لا فرق في ذلك رافقهما الغنى أو الفقر أو الشهرة أو الضعة .. انهما سعيدان في كل حال

شعر عماد الدين بعد تلاوة الكتاب بما لم يسعه به ميل . وأصبح شديد الرعدة في سرعه الرجوع الى القاهرة وكان عبدالرحيم في خلال ذلك واقفاً يراقب حركات صديقه مخافة أن يكون في ذلك الكتاب ما يبعثه على تغيير خطته وهو يحب أن يدخله في طعمة الاسماعيليه . وانه عماد الدين لنفسه فرأى صديقه قاعداً محابيه فقال له « انى أشكرك ايها الصديق على هذه الخدمة الثميه حراك الله خيراً »

قال « هذا واحب أديبه لافضل لي به . وهل اذا اتيتك لك أن تخدمنى مثل هذه الخدمة تأخر ؟ »

فماتت المحوة في رأس عماد الدين وقال « اديك بروحي » ولم يقل ذلك حتى أحس سيء في داخله . يعترض ذلك القول لأنه شعر من تلك الساعة أن روحه ليست له أو هو يود المقاء ليرجع الى حبيبته ويتمتع باللقاء أما عبد الرحيم فاحببه ذلك التعبير منه وقال « ستري من هو اولى مي - بالعدا . ان السمح راسد الدين اماما ومولانا بعديه كلما نار واحما . وستدوق هذه اللذنه متى صرت واحداً ما . هل أنت عارم على الدخول معنا في هذا الامر ؟ أم غيرك هذا السكتاب ؟ » ويحك

قال « لم يعيرني سيء وما هو السبيل الى ذلك ؟ كيف أذهب والى ان

وما هي الطريقة . أرجو أن تساعدني وترشدني »
 فصرح عبد الرحيم وقال « اني طويع ارادتك . سأعطيك كتاب توصية
 الى دبوس نائب مولانا السيخ الاكبر وهو يقيم معه في قلعة مصاف من
 جبل السماق من أعمال حاب ثم ألقى بك بنفسه --- يمكنك السفر اليوم.
 هل تعرف الطرق ؟ »

قال « أعرفها جيداً لاني ربيت في هذه البلاد »
 فاحذ عبد الرحيم رقه وكتب فيه توصية الى السيخ دبوس نائب سيخ
 الجبل فتناولها عماد الدين وودعه وركب حواده قاصداً جبل السماق . وهو
 جبل عظيم من أعمال حاب استعمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع كلها
 للاسماعيلية وفيه اساتين ودرارح سكن المياه الحارة فيها قليل الا ما كان
 من عيون ليست بالكثيرة في مواضع مخصوصة ومع ذلك كانت فيه جميع
 أسرار الفؤاد وغيرها حتى السمسم والعطل والسمسم
 وقد اسهر جبل السماق بالقلل التي فيه للحشاشين الاسماعيلية وهي
 عديدة أشهرها مصيف وكبف والحواني وعليمة ومروف والرافعة وغيرها .
 بهما منها هما مصيف وفيها تقيم رعية الاسماعيلية راسد الدين وهي على
 مسافة ١٢ ساعة من حماد عركا

الفصل الثالث والخمسون

دعوة مصيف

المهرت شاه القلعة في زمن الاسماعيلية اذ تسيح بغداد الخائنة فيها
 وهي واقعة على جبل مصاف وهو جبل سابع محيط به من الشرق والغرب
 مستمتع واسع . يدهى من الشمال قمة عالية فوقها قلعة مميعة بقي مقر
 شيخ الاسماعيلية وهو اسباب مداعبه اما قائمة على صخر حواما سوداء

يعسر تسلقها . وتشرف على ما يحيط بها من المستنقعات من كل ناحية .
ومن جملة ذلك واد يقيم فيه بعض الفلاحين يزرعون الحنطة والتعير .
وعلى مسافة من الجبل بلدة مصياف يسكنها طائفة من العامة ^(١)

اما القلعة فاهما محاطة بسور غليظ ليس له الا باب سقفة عقد متين
اذا دخل الرجل منه سار في دهليز كله معقود يتصل من الداخل الى ثمة
القلعة وما وراءها وفوقها من العرف . وكلها مبنية من الحجر الصلد . وعلى
السور ابراج متلاصقة تقيم فيها الحامية ترعى المهاجرين عليها بالسهم أو
الحجارة قبل وصولهم الى الباب بمسافة بعيدة بحيث يستحيل احداها بالمحرم
الا بعد قتل المئات والالوف

برح عماد الدس بنت المقدس على حواده . وله الى جبل السماق عدة
طرق لكنه احب ان يمر بدمشق مرتع صباه وقد اسماقت نفسه الى
رؤيتها ومشاهدة سائنها . فوصلها بعد بضعة ايام وكان وصوله اليها قبل
وصول ابي الحسن بيومين وظل متبكراً لم يطلع احداً على حقيقة حاله .
لكنه طاف المدينة ورار القلعة وشاهد كثيرين ممن يعرفهم . واتفق رجوع
السلطان نور الدين من الميدان فراه عائداً على حواده وحوله الامراء
والاعوان . وفرح برؤيته لكنه بدل جهده في التسكر لئلا يتعثر به احد
وهو يعلم ما بين نور الدين وصالح الدين من الفتور ويود رواه لكنه
يميل ان يكون مولاه صالح الدين الرابع

قصي معظم البهاري دمشق — أكل من طعامها وفاكهتها وتمتع
بمناظرها ومرّ عند حروجه بعوطتها ولعله مرّ في نفس المكان الذي اجتازه
ابو الحسن بعد يومين . وبنات تلك الليلة في قرية بصواحي دمشق . وفام

(1) Burckhardt Travels in Syria and the holy Land London 1822 150

في اليوم التالي فاصداً جبل الساق وبات الليلة الثانية في بعض الخانات وقضى معظم اليوم التالي في الطريق . وكان في مكانه الوصول الى مصياف في اصيل ذلك اليوم لسكنه فتمثل الوصول اليها في الصباح التالي فبات في بعض القرى وركب في الصباح وبعد ساعتين اطل على جبل مصياف وعلى قمته الغلعة تناطح السحاب . وباله ما رآه من مباعها ورسج في اعتقاده انها امع من عقاب الخو . ترحل هناك ثناءه تتيح من الفلاحين يعرض عليه خدمة يؤديها وقد طمعه من كوار الاسماعيليه وهم يهدون فيهم السدة والمسوة . وكثيراً ما سهدوا المال بدمهم ورس من حاء لماسحهم من الحمود السامة او الحمية او المعصية مصلاً عما يتماقلونه من كرامات السيج راسد الدين وهم بسمونه سيج الجبل باسم الحسن بن الصباح مؤسس هذه الطعمة . حتى اوشكوا امرنا ما اسولى تلاميذ من الاعتقاد بكرامته ان لا يمدح عباد عرب محيف الا بسبوه اليه ولو كان من المعارض الطبيعية كالطر والرعد والبرق واصبح اسمه مراعاة لاسدائه وتعود لمريديه

وكان هم عماد الدين عند وصوله ان يلقى السيج دبوس ويدفع اليه كتاب التوضيه الذي محمله من عند الرحيم هاما حاه دلات الملاح السيج سألته عماد الدين عن راشد الدين اين هو فاحمل الرجل وتفرس في عماد الدين وقال : « يظهر الملك يد عن هذه الديار نا سيدي »

قل « نعم »

قل « وما الذي حاء لك الى هما وادار يند من بين الحلال »

قال « ان احل كما بنا الى قائمة السيج دبوس »

قل « دبوس ! طيب ما تاتك اب التمدد والندابور »

فانه لا يطمع احد برؤيته . حتى اصحابه واعوانه اهم لا يرويه ولا يؤذن لاحد برؤيه الا في بعض الاحوال الخصوصية »

فقال عماد الدين « وانت من انت يا عماد ؟ أملك من رحاله .. »
فقطع الشيخ كلامه قائلاً « حمداً ذلك .. ان متلى لا يطمع بهذا السرف وكفيا من حواره ان تقوم بخدمته بما نعرسه من الخطة أو نرعه من المناسبة له ولرحاله في مقابل نقائنا في قيد الحياة »

قال « والان احب ان اقابل الشيخ دبوس فهل ذلك مسمور ؟ »
قال « لا ادري . اعطني الكتاب اذا سئت لاوصله الى بعض رحاله فيوصله اليه ثم آتيك بالحواب »

ودفع اليه الكتاب فحاوله وركض نحو الخيل ومكت عماد الدين في انتظار عودته وقد أمسك رمام فرسه بيده وادار بصره في ما يحيط به من السهل المستمع وذلك الخيل الشاح المائم في صدره وفوقه قلعة مصياى وقد أحرق بها السور والارواح . ولم يقدر أن يتمين طريقاً يتصل به اليها كأن أهلها بصعدون اليها على أحججه السور أو في الماطيد . وهاله ذلك وتمثل له الخطر المحدث من يموي براسد الدين سراً . لكنه ارداد رغبة في استطلاع أحوال ذلك الرجل — فاما أن يفتك به أو يقرب ما بينه وبين صلاح الدين

الفصل الرابع والخمسون

الشيخ دبوس

قصي في ذلك ساعه ثم رأى الشيخ الملاح راجعاً ومعه شاة في لباس السهام والسر أو يمل القصيرة حاسر الرأس حاك القدمين عارى الصدر

كأنه من العفاريت . فلما وصل الى عماد الدين حياه ثم سأله عن غرضه فقال
« أحب ان اقابل الشيخ دبوس ؟ »

فمد يده وفيها كتاب التوصية وقال « هذا هو كتابك وما هو
اسمك ؟ »

قال « عبد الحمار »

قال « وتريد أن تقابل الشيخ دبوس ؟ »

قال « نعم »

قال « اتبعني »

فتبعه ماشياً بقود مرسه والشاب يسير من يديه وهو يتلفت اليه بحيل
نظره فيه كالتمرس فاستعرب عماد الدين تلفتته وتغسه ولو كان حياناً
لوقع الرعب في قلبه ولكنه كان شجاعاً لا يعرف الخوف

وبعد قليل وصلا الى قاعدة الحمل فاسار اليه الشاب أن تترك الخواد
هناك ويتبعه فتردد عماد الدين لحظه فقال له « لا بد من ترك الخواد هما
والا فارجع من حيب أتيت »

فاطاعه ومضى في أثره في طرق متعرجة بعضها مقفورة في الصخر وبعضها
سلام من الحجر بصعب سلقها . والرجل يقهر من يديه كالمر لا يبالى بالتعب
وعمد الدين يحاربه لئلا يظهر عليه الضعف وهو أثير النفس

وبعد الصعود ساعة في تلك الطرق المتعرجة وصلا الى باب القلعة وهو
عليق ميس . فوقف الشاب واسار الى عماد الدين أن ينتظر وتقدم هو
الى الباب ودقه دقا خصوصياً مفتوح وكان المنفذ صرير شديد فدخل وأعلى
الباب وراءه وظل عماد الدين واقفاً ينتظر الى ذلك السماء المميع وهو لا يرى
منه غير السور العليظ وعاليه الازاح . ولح من سقوف الابراج أو نوادها
الصيقة اساساً مدهبون ومجبتون لهم الحامية

وبعد قليل عاد الرسول وقد لطف لهجته وأشار الى عماد الدين ان يدخل فدخل من ذلك الباب تحت العقد العليظ ومتى في دهليز طويل مسرج سقفه معقود وأرضه من الصخر الحسن . وقد وقف الى حانبيه الحراس بالحرب والسيوف كأنهم أصمام لا يتحركون . فهاله ذلك المظر لكه تشدد وتخلد وصمم على الصبر الى النهاية

سار في ذلك الدهليز مسافة واسهى منه الى منفذ يستطرق الى ساحة حولها أبواب مغلقة فأشار اليه الرسول ان يتبعه ففعل حتى وصل الى باب منها فطرقه . ولما فتح تقدم الرسول الى عماد الدين ودفع اليه كتاب التوصية وتراجع وأشار اليه ان يدخل فتقدم رأى نفسه في حجرة ببابها حراس بالحرب أساروا اليه برؤوس الحرب أن يدخل فدخل . ثم وقف وتلفت فإدا هي غرفة واسعة قد فرشت بالسجاد وعطيت جدرانها بانواع الاسلحة . وفي حوائطها صروب من الآلات العذاب كالقيود والاعلال . وحول جدرانها مقاعد من الحجر المحبوس في ذلك الصخر فوقها غطاء من حلود الذهب والامد . وليس في تلك الحجرة حينئذ احد غير الشيخ دبوس رآه جالسا في صدر الحجرة على حائط من ذلك المقعد وعليه حمة تكسوه كله وعلى رأسه عمامة حصراء كبيرة فالتى التحمة وقال « أألي في حصرة الشيخ دبوس ؟ »

فأشار الشيخ برأسه ان « نعم » وأومأ اليه ان يتقدم ويعطيه الكتاب ففعل فساوله وهضبه وقرأه . ولما فرغ من قراءته أومأ الى عماد الدين ان يجلس وهو يقول « ان ولدنا عماد الرحيم بوصيدا بك خيرا . تفضل يا عماد الجبار اقعد »

فقعد على طرف المقعد وهو يسطر ما يكون فقال له دبوس « يقول لما عبد الرحيم انك بطاب نعمة القرني من سيحما وامامنا راشد الدين »

قال « نعم يا سيدي وهل هذا ميسور لي ؟ »

فاطرق يسكر ثم قال « ايه ميسور على سرور »

قال « وما هي يا سيدي ؟ »

قال « اعلم يا عبد الجبار انك فعل كل شيء يسمي ان تنق قلبك

وتصفي بملك وتستسلم الى هذا الامر فكيفك هل انت فاعل ذلك ؟ »

قال « نعم »

قال « احذر ان تمدهج نفسك فاني لا اقدر ان اعرف حفايا قلبك

ولكن المولى التمش لا كبر لا تحي عليه حاميته .. انه فاحص القلوب

اذا نظري عينك عرف مكروبات قلبك . فاذا كنت في شك من بملك

واستسلامك ارجع من هه ولا تعرض نفسك للخطر .. اني افسح لك

اء على ما مرأه في كمال الوضعية من الماء على شجاعتك وصدائك ..

واما اذا قد كنت اوتت العمة والهمم الانتظام في عهد السالك

والخصوا على العهد فقد سمعت لنفسك الدنيا والآخرة . واما باركان

يوما كاملا تفحص فيه صمرك وبحبري ما نرى عليه رايك .

فومع كلام السبع من نفسه وفعما شديداً وعلب عليه البردد وقام في

اعتقاده صدق ما سمعه عن سبيح الجبال من اسمطلاح حفايا القلوب .

واسكنه تملد واطهر الثياب في عزمه وقال « اي على ما فانت وسأعبر يوم

آخر حسب امرك وأحييك »

و . أنه سمع انما وقال له « فاحلج ما عايتك من السلاح وهاب

ما سئل من الالهات او المرد او غيرها . تلك عاديا في مثل هه

الجال ولا شاع له سائى ما اعمل من هذه الاسيا . تمى عدي باسمك »

معظم شدا الثلب عايت وعنده الخواهر . وقد سق عليه ان بهار

هه اعلى التمه ولم

فقال له دبوس « اعلم يا بني أن طالب الحصول على عهد مولانا الشيخ لا بد له من الاستسلام لكل ما يؤمر به بلا تردد . وقد خيرتك في الدخول أو عدمه عملاً بتوصية عبد الرحيم لأنه ذو مقام عندنا . فإذا رأيت العدول عن عزمك رددنا أشياءك إليك »

فلم يردّ بداً من الطاعة لأنه لم يوفق إلى دفاع مد يده واستخرج خنجره من مطقته ودفعه إليه ثم استخرج ما كان عنده من الحواهر أو القود ودفع كل ذلك إلى دبوس وقد أحس بالخوف من الخديعة لكنه اطمان نوعاً لما رأى الشيخ يدشله وقد وضع أشياءه كلها في منديل وأخفاه في حفرة بأسفل المقعد . وأومأ إليه أن يخرج إلى عرفة أخرى يستريح فيها . فخرج وفاده أحد الحراس إلى حجرة حلا فيها بنفسه وأخذ يهكر في ماسمعه وتحقق الخطر الذي أوقع نفسه فيه وأصبح لا يعرف ماذا يعمل — أيعدل عن مهمته بعد أن وعد صلاح الدين بها أو يعرض نفسه للخطر بالدخول . وتذكر ما سمعه من صديقه عبد الرحيم عن كرامات راشد الدين وما هو سائع من هيئته واقتداره فوقع في حيرة لأن رجوعه عنها يحط من قدره عند صلاح الدين وعند حميته أو على الأقل ينحط قدره عند نفسه فأنها لا تطاوعه على الخس . ودخوله يعرضه للقل أو لحيانة صلاح الدين

وكان يهكر في ذلك وهو يمتشي في تلك الحجرة وليس فيها شيء من الأثاث سوى حصير وساط قديم فاطل من نافذة صغيرة فاسترف على ما يحيط بحل مصيف من المستنقعات والسهول والروابي والأودية إلى مسافة بعيدة واستغرق في افكاره حتى سبي موفقه . ثم اجفل لأنه سمع وقع خطوات وراءه فالتفت فرأى رجلاً كالخادم اتماه بالطعام ودعاه إلى الأكل وخرج . فاستار عماد الدين شيئاً كراً وعاد إلى تفكيره ونهسه لا تطلب الطعام

لمرط اهتمامه وقلقه . وحانت منه التفاتة وهو يجيل بصره في ذلك الفضاء الى سور سال يحيط بواد لا يطهر منه غير السور فظلمه فاعلة أو حصناً ياحاً اليه الاسماعيليون عند الاضطراب

الفصل الخامس والخمسون

المعجزة

وعاد الى هوا حسه وهي تعاطم وتتكايف حتى صاق صدره من كثرة البردد وهو الى تلك الساعة لم يدق طعاماً فاحس بالجوع فتحول نحو الطعام الذي ابوه به وهو فاصر على بعض الأثمار وسمى من الحمر والاحمر قد بده الى الرعب وكأن شيئاً ارجعها عنه وحظر له سوء الظن فقال في نفسه « قد يكون هذا الطعام مسموماً » ثم تذكر صديقه عند الرحيم وتوصيته لدبوس فعاتب عليه حسن الظن واكل ما اسد ربه واقصر على الأثمار لانها ابعد ما يكون عن التسميم

وهو يأكل سمع نوصاً في الساحة فبهس ونظر من الباب فرأى جماعة من أهل القلعة وفيهم الحراس والاحماد يتهامسون ويصاحكون والسرطاهر في وحوهم . تخاف أن يكون لذلك علاقة بوجوده هناك أو ربما كان عليه حظر فاصاح سمعه واداهم يتكلمون لغات مختلفة لان رجال الاسماعيلية انخراط من أمم سنى وفيهم العربي والبركي والفارس والمكردي والسركمة يتكلمون كل هذه اللغات وانما تعاب العرب على أسديهم

وبعد التفتت وانما الفكره سمعهم يدكرون السلطان نور الدين وكلهم يدكرون مته فعالط سمعه ولم يعاً باليه تاف الساطان . يدبوس بصحه تامة وراه عائداً من المصدر على حماد والاسد وسمعتهم

يتبعون ذلك رغبة في اجتماع كلمتهم . وهو يفكر في ذلك جاءه رسول من الشيخ دبوس يدعوه اليه فاسرع في اثره الى مجلس دبوس فراه قاعداً في صدر العرقة وبين يديه جماعة من الامراء بلباس متسابه وعلى رؤوسهم العائم ففرب من عمامة دبوس . فعمل على اعتقاده انهم من رجاله وكلهم مستبسون ضاحكون

ولما وقف عماد الدين امامهم خاطبه دبوس قائلاً « أنت قادم من بيت المقدس ؟ »

قال « نعم »

قال « ألم تحمل طربقك على دمشق ؟ »

قال « بلى »

قال « كيف كان سلطانها الاناك نور الدين هل شاهده ؟ »

قال « نعم شاهده على حواده عائداً من الميدان نحو الطهر »

قال « ومى كان ذلك ؟ »

فاطرق عماد الدين وهو يحسب الوقت ثم قال « مسد يومين وبعض

اليوم »

قال « لكه مات في هذا الصباح رحمه الله »

فاحمل وابت المعتة في وجهه وقال « مات اهل ايم على ثقة من ذلك ؟ لا اظن الخبر صادقاً .. ثم كيف يموت في هذا الصباح ويصل خبره الى هنا الآن وانا وبين دمشق اكثر من يومين ؟ »

فصاحك صحكك استخفاف وصحك الخلوس معه وهم يتلفتون بعضهم

الى بعض ثم قال دبوس « لا اوم عليك يا بني وانت لا تعرف مصدر هذا

الخبر انه لم ياتنا بالبريد واما هو وحي هبط على مولانا الامام الشيخ

الا كبر نفعا الله ببركته وكراماته -- كذلك فعل يوم مات الامام العاضد

بمصر فقد جاءه علمه في يوم موته — ومصر ابعد من دمشق. وكذلك خبر
المؤامرة التي قتل فيها عمارة وابخابه « ثم نظر الى الحلوس كأنه استشهدهم
فبدت على وجوههم امارات المصادقة

فدهش عماد الدين ومع ذلك ما رال يظن في الامر خداعاً للإيهام وان
نور الدين لم يميت وقال في نفسه « اذا تمت موته بورود المرسوم من دمشق
على جاري العادة فان لهذا الشيخ لساناً عظيماً »

ولحظ الشيخ دبوس تردده ودهشته فقال له « لا تسمعرب ما تسمعه
يا بني امك اذا تمت النعمة عليك ووفقت الى الدخول في طريقتهما رأيت
اعجب من ذلك . ان مولانا الشيخ الا كبر يخاطب الحجارة فتحجبه حتى
الميت اذا كلمه احابه في الحال » والتفت الى القوم وقال « واريدهم بياناً
ان مولانا الشيخ حرسه الله اخبرني عن سبب موت هذا الساطان قال انه
توفي بعلة الخوانيس » ثم حول نظره الى عماد الدين وقال « ونحن مملوك
الى العبد ريتما يأتي المرسوم اذا شئت »

فوقع عماد الدين في حيرة عظيمة مما سمعه ورآه واوشك ان يعقد
بكرامات راشد الدين . لكسه تمهل الى ورود المرسوم وعظم امر هذا
الشيخ في نفسه . فقال له دبوس « تفصل يا بني الى غرفتك حتى يستقر
رأئك وانا انما دسوتك اعلمي انك قادم من دمشق لعلك علمت شيئاً من
مقدماب موت نور الدين واتعلم ايضاً ان صديقك عد الرحيم اخلص
الصبح لك . اتم الله نعمته عليك وعليه لانه هو ايضاً رشح الارتماء في هذه
النعمة اذ ببال المتحد فيها نصيبه - هذا كلام لا تقممه الآن واسكن
سوف تفهمه . تفصل . » وامار اليه ان يصرف

« عاد الى غرفته وهم كالعائت عن انيس لا يعرفه كيف يعلل ما
شاهده من العرائب المدهشة . وعزم في عمره اذا سميت بموته عن موت

نور الدين ان ياتمس الدخول في تلك الطغمة بلا تردد . وود لو كان
صديقه عبد الرحيم هناك ليستفهمه عن بعض ما اشكل عليه ويستريده بياناً

الفصل السادس والخمسون

عبد الرحيم

بات تلك الليلة كالثائه في البحران وتوالت عليه الاحلام وافاق في
الصباح على نقر باب حجرته . فذعر وحلس حالاً فاذا بصديقه عبد الرحيم
واقف بين يديه فاحسَّ عند رؤيته بارتياح عظيم وقد خف قلقه واطمأن
بانه لقي اياه واخاه واستأنس به كثيراً فاكب عليه وعانقه واوشك
الدمع يتساقط من عينيه لشدة التأثر

فعانقه عبد الرحيم وهو يتسهم وقال له « يظهر من تليفك للملاقاة انك
كنت في ضيق »

قال « لم اكن في ضيق ولكنني متردد في امور لا ارى لي فرجاً الا
على يدك . واشعر انك اخي او ابي والفي اتكالي عليك وهناك اسياء احب
ان استشيرك فيها »

وهش له عبد الرحيم مطمئناً . فاسار اليه عبد الحمار قائلاً « اقعد . .
من اين انت آت ؟ »

فقعده وهو يقول « انى آت من عند الشيخ دبوس وقد قص عليّ
ما اعجمه من ذكائك وسجاعتك . وانه تلتطف في معاملتك وامهلك حتى
تتمكر في أمرك »

قال « نعم . وهذا ما أحب الاستفهام منك عنه . ادهشني أمر لم أفدر
على تفسيره »

قال « وما هو ؟ »

قال « أخبرني الشيخ دبوس في ظهر الامس ان السلطان نور الدين صاحب دمشق مات في الصباح . وانا رأيتُه بعيني قبل ذلك بيومين راكبا على حواده سليما معافا والصحة تنحلي في وجهه بعد أن قضى يومه مع سائر رجال دولته في الساق »

فقال عماد الرحيم « هذا كله صحيح - نعم انه عاد من ذلك الميدان صحيحا معافا لكنه لم يصل القاعة حتى أحس بالحم في حلقه ظهر بالمحص انه الخواشي »

فألقى عماد الدين وقد ناب الدمنة في عينيه وهان عليه ان يعصاب نور الدين الخواشي على أثر رؤيته اياه على حواده فقال « بطر أن المرحس حاده سدا لم يملك له بقاء . لكن اذاه صا وقع مع ذلك فعلا ومات به في الدس صاحباً فكيف وصل الجهر الى هنا قبل الفجر ؟ »

فصاحك عماد الرحيم وقال « ان ذلك ما عبيد الجاهل من كرامات مولانا الشيخ الاكبر مع ما الله بمركبته . ألم اقل لك شدا من ذلك ونحن في بيت المقدس انه طالما انما لا اخمار حال وهم عنها واركن بيما وبها مسافة ايام وليس هذه أعجب كراماته كما ستري . وهل تضن سبطونه وفوة نفوده لا أساس لها . كيف يحضه الى الالوف من الناس ويهيم العمال والسكران ان لم رما فيه ما سمعوه ذلك . اتعلم ان أماعة اليهم يندون على سمس القام من الناس وبه السبعان والاضطار و مواد وكل واحد منهم طوع ارادته يفعل معه في طاعة . انما ان يجمع هموا فلا ان يحدق »

فقال عماد الدين « أنت نسار على أن أن ابي على »

قال « هذه مصاصتي لك »

قال « انهم أساؤا به »

قال « لاخوف عليها . فاذا رجعت عن هذا الامر انا ضمن ارجاعها اليك . ولا أطلب راحاً عنه ولا ميماً بعد ان ترى النسيح الا كبر نفسه وتسمع اقواله وتخبر كراماته .. انها كثيرة انما ... » وسكت كانه اراد ان يقول شيئاً وندم عليه

فقال عماد الدين « اراك تتردد في نصحي »

قال « معاد الله يا أخي . أنت تعلم اننا تحابنا وتصادقنا لغير عرض سوى تقارب القلوب . ولما كانت جماعتنا هذه تصم خيرة السجعان ودوي الدسالة رأيتك أهلاً للالتظام في سلوكها . وسوف يحمد مغفه بصحي . لكنني اتردد في أمر احبت ان اسمح به لك تخفيفاً من فلقك .. لكسه محظور عليّ . فسكت »

قال « اذا اطعني على شيء يحفف فلي صاعقت ففلك ولا يعلم به احد . اعاهدك على ذلك »

قال وهو يخفص صوته « متى رصيت الدحول فانهم بمتحموبك ناشيء لا يصبر عليها الا السجاع ثابت الخاش وانت كذلك . لكسي احبت ان اريدك اطمئناناً ان ما يظهر لك من تلاء التحارب خطراً او مستحيلاً ليس هو في الحقيقة الا ظاهرة لا طائل تحتها وانما يراد بها امتحان سجاعة الطالب فهما طاب منك ان تعمله عمله ولا تحب . لا أقدر ان افصح لك اكثر من ذلك .. »

فقال عماد الدين « بمتحموب سجاعي ، فليمتحنوا . لا انا الى وانت تعلم ذلك ولكني أحب أن أعرف شيئاً آخر . هل تطاعني على حقيقته ؟ » قال « ول ما تريد اهلي ام تطيع »

قال « كل ما اعرفه من امر هذه الطائفة ان زعيمها راشد الدين رحل حكيم ذو كرامات وان ائماعه بطاعته طاعة عماء يمدلون انفسهم في طاعته .

لكنني لا أعلم ما يناله اولئك الاتباع من المكافأة. وهل هم درجة واحدة او درجات فقد رأيت بعضهم كالخدم او الجند وآخرين كالأمراء وهذا دبوس كالملاك فما هو نظام هذه الطائفة او الدولة انما غريبة في بانها .. «
قال « صدقت ان نظامها غريب لم ينسج على مواله ولا نأس من ان اقض عليك خبر هذا النظام باختصار . اعلم يا عبد الحبار ان جماعة هذه التي ارعمت العالم بديبرها وبساله شامها مؤلفة من طمقين الفدائيس والمستنيرين وفوقهما الزعماء وانحباب الاسرار الحقيقية . وأول ما يدخل الاسماعيلي يكون فدائياً فاذا استحق الترقى صار مستنيراً .. الا لا ارال الى اليوم من الفدائيس (الفداوية) .. »

« مطلع عبد الحمار كلامه فائلاً « اذا دحلت انا سداً اكون مثلك ؟ »
وال نعم اكسب الآن مرشح لنيل العهد فاصبر مستنيراً عن قريب .. لان مهمتي التي ذهبت بها الى بيت المقدس كانت آخر بحرية في سبيل الترقى وقد حلت الى هذا الكي اقتسل البحر الحديدي في طبقة المستنيرين «

قال « بماذا اسحق هذا الترقى ؟ »

قال « استحقته بصدق الخدمة في مصالحة الجماعة وبدل النفس في سبيل الطاعة . ولا بد لك فدائي ان يفعل ذلك قبل ان يصير مستنيراً . واما اب فارحوا ان يسرع ترقيك لانك اهل لذلك بما وطرت عليه من المروءة وعلو الهمة . وليس في سلال الانتظام كثيرون مثلك ولذلك فارحوا ان ترتقى على عجل «

ما طرقت عماد المديس (او عبد الحمار) حياً يعلو في امرد وفي اصل ميمته وما خاله وراءه في مصر من الموعات التي تسمى « مرة عودنا ولا سيما سماعة الملك ما بها اصعبت مدد رحوب رسولنا من سندها لا تخرج من

بأله . لكنه اطمأن عليها وهي في كنف صلاح الدين . ولحظ عبد الرحيم تفكيره فقال له « لا حاجة الى التردد ان دخولك في هذا السلك اصبح امراً مقصياً ولا بأس عليك منه . لكنني احب ان تؤخره الى محبىء المرسوم من دممس بموت السلطان نور الدين . وتأتأ كد كرامة امامنا راستد الدين قبل الدخول في طاعته .. »

فجبل عماد الدين عند سماعه ذلك لانه كان يسكر فيه ويخشى ان يقوله لسلا يدل على ضعف الثقة فادر الى الجواب قائلاً « اني واثق بما سمعته رغم غرأته عندي »

قال « ليس هو عريياً عليا وسترى ما هو اعظم منه . والآن استرح وكن مطمئناً انك اذا عدلت عن الدحول لا يصيبك اذى ومولانا الشيخ الاكبر لا يقتل كل من بطلب الانصام وادا ثأئت ان تتحقق قولي تعال معي لاريك جماعة من اولئك الطلاب » قال ذلك فنهض . فتبعه عماد الدين والدهشة غالبة على عقله

فسارا في طريق صيق في شعب ذلك الجبل الى ماحة سمعا فيها الصوضاء قمل ان يصلوها . فوقفا واصاح عماد الدين بسمعه فسمع عربة وغوعاء بالعات محملة وغمات متعاقبة . ثم متى به حتى اطل من وراء حائط على بقعة اردحم فيها الرجال جماعات بين حلوس يتسامرون او وقوف يتحاصمون واكثرهم في حال الحسونة تدل ملامحهم ونيابهم على الوحشية . فقال عمد الرحيم « انظر يا احي هؤلاء هم طلاب الدحول وانت ترى الوحشية والعربة وسبك الدماء في ملامحهم . وقد استهبرت جماعةنا هذه بالفتك وكل من يهون عليه قتل الارباء ويضيق به الرق بأي الساء . ولكن عرصا اسمى من ذلك على ما اطل وان كمت الى الساعة

لم اطلع على سره الحقيقي . فهؤلاء يعدون بالعشرات كما ترى . وهم هنا منذ ابام لم يحفل التبيخ دبوس بهم ولا اظنه يحيب طالب غير القليلين منهم . اما انت فقد علم امتيازك عنهم ولهذا السبب ارجو ان لا يبطل في ترقيتك الى طبقة المستيرين »

وهما في ذلك رأيا رحلاً كرديا من اولئك وقف ويده جحمة صب فيها حمراً وتمايل عجباً ثم سرهما وهو يزدرى برفاقه ويهاخرهم ببساتنه وخشونته . فعضب واحد من رفاقه الا تراك ورأه واظلم تلك الجحمة فقفا يده فرماها وتناثر ما كان فيها من الحمر على الارض . فصحك الرفاق وقهقهوا وقد اعجبهم عمل ذلك التركي . لم يصبر الكردي على الالهاته فاستل حنجره وطمس التركي طعنة قضت عليه . بهم الآخرون ان يسموا له فصاح بهم عمد الرحيم واقفهم وهددهم واشاد الى بعض الحرس ان يعض على القاتل . ففعل دينا يرفع امره الى السيخ الاعظم

الفصل السابع والخمسون

راشد الدين

ولم يزدد عماد الدين بذلك الا دهشة مما رآه وسمعه . ورجع الى حجره وهب عمد الرحيم اسنانه وآذنه في الزماتلى وقد جاء المرسوم من صاحب السام ومات نور الدين الخاق في الموت الذي رواد سح الحمل وقرأه السيخ رئيس بل سمع من الامارية . وقر عماد الدين على الدخول في ذلك السلك . ولا بد ان ذلك اليوم لهجه الترحاء من احكاما وقد تعرض من يدي صلاح الدين دمل المدينين وبعثت سيدته المثل بمرسه فكيف بعد ذلك . بل ان هذا من ملام

الرجل وكراماته جعل مهمته شاقة لكنه صمم على القيام بها . وكان يتردد في الدخول اعله يستطيع تنفيذ المهمة وهو خارج تلك الطغمة فلم ير له بداً من الدخول لبستطيع الاقتراب من ذلك الشيخ الامام ويفرس خنجره فيه وفي اليوم التالي اصبح عماد الدين وهو على موعد من الدخول على الشيخ الاكبر ليصم الى جماعة الفدائيين . وكان كلما فكر في ذلك احتلج قلبه في صدره . وبعد قليل جاءه صديقه عبد الرحيم وهو يهش له تسجيماً وطمأنة فقال عماد الدين « هل اذهب الآن الى الشيخ الاكبرام الى الشيخ دبوس ؟ »

قال « لا بد من الذهاب الى الشيخ الاكبر بواسطة الشيخ دبوس .. فهل انت متأهب لذلك

قال « نعم » واكبر ان يطهر الوجه فقال عبد الرحيم « هلم بنا الى الشيخ دبوس »

فسيا حتى دخلا عايه واطلعه عبد الرحيم على الغرض . فوجه كلامه الى عماد الدين قائلاً « هل انت مصمم يا عبد الحمار على الانضمام اليها ؟ » قال « نعم يا سيدي »

فامرهم ان ينزع بياض التي عليه ويرتدي بثوب ابيض كالقميص الكبير دفعه اليه . فلبسه خلاءه الى عقبيه . ثم امره فخرج عمامه وحل شعره وكان طويلاً فارسله على كتفيه . واسار عبد الرحيم اليه ان يتقدم الى الشيخ دبوس ويقبل يده ففعل . ثم أوماً اليه ان يتبعه فمضى في دهاليز وطرقات والحرس وقوف في حواننها بالحرايب . حتى اطل على رواق يؤدي الى باب كبير عايه ستر ونحائيه حارسان عظيمي الهامة كانهما من الحان . فلما اقترب عبد الرحيم منهما أوماً اليهما بالاشارة (لانهما اخرسان) ان يادنا له بالدخول وهما يعرفاه فادما له واستبقيا عمدا الحمار خارجاً . فوقف وهو مطرق يتردد

بن الندم والعزيمة . واذا بصديقه قد عاد وقال له « ان الشيخ مشغول بمحاكمة الكردي القاتل لكنه اذن اما بالدخول »

ومشى فبعه عماد الدين مدحلاً قاعة مظلمة في صدرها كرسي كبير قد جالس عليه السيح الا كبر والى جانبيه رجال من خاصته جلوس وقد عطوا وحوهم وليس فيهم مكسوف الوحه غير راسد الدين . ولم يستطع عماد الدين أن يتعرف الوحوه هناك الا بعد قليل ريثما تعود نظره الظلمة . رأى ذلك الكردي واقفاً وهو موتى اليدين . وفي وسط القاعة حمة القتل ملطحة بالدماء . فاسار عبد الرحيم الى عماد الدين أن يقف معه في ناحية **معمل**

واخذ يتفكر براسد الدين فاذا هو مكسوم برداء أسود يعطيه كله الا وحده . وقد نانت السيحوحة في ذلك الوجه بتعبه وبياض لميته لكن عليه ترقان كالسراحيب يكاد السرر يطاير مدهما . وما علم ان صاح راسد الدين بذلك الكردي قائلاً « اتيسر يا هذا ان تعمل نفعا في حوارنا »

وصاح الرجل « اني لم أقتله يا مولاي وانما هم يهودوني زوراً »
 قل « وتكذب أيضاً ؟ » احسب ذلك يطل على عايبا . ألا تعلم اننا نفحص القلوب ونعرف أسرارها »

معاد الرجل الى الاسكار وقال « انهم يهودوني ياسيدي زوراً .. اذا سئلت أن آتي باليهود أو افسم لك براءتي فعلت »
 قال « لا حاجة بنا الى تهمة أو مسمم ان اسأل هذا القتل وهو ناشئ باحقته »

فلما قال ذلك انصرف راسد الدين وبطأ في أي راسد الدين قد وقف واتصفت كالمسح ثم حطاً حلقوه ثم واقتل وصاح به وهم يتدبر اليه باصمعه كأنه يهدده « ألم يقل لك هذا الكردي ؟ »

فكان السكوت مستمراً على الحضور وقبورهم تنهدوا بانها الى ما يكون

فسمعوا القميل يقول بصوت ضعيف « بلى هو قتلي »

فسأله ثانياً « بماذا قتلك ؟ »

فاجاب « بنحمره »

فلما سمع عماد الدين ذلك افسعر بدنه . . كيف لا وقد سمع الميت يتكلم وهو على تقه من تلك الحادثة لانه رآها بنفسه . اما راسد الدين ورجع الى مقعده واسار الى بعض الوقوف بين يديه من رجاله أن يذهبوا بالرجل الى السحن وان يدفعوا القميل ففعلوا . وقد استوات الدهشة على الحضور ولا سيما عماد الدين

وبعد قليل أسار راسد الدين الى الوقوف في محله بالانصراف ولم يبق غير بعض خاصته المسلمين . واوماً الى عبد الرحيم أن يقدم عبد الحماد فعاده بيده حتى أوقفه بين يديه فوقف وركبته ترتعدان من التهييب وقد عظم أمر راسد الدين في خاطره

فوجه هذا كلامه الى عماد الدين قائلاً « وانت يا عبد الجبار أرحو أن تصدقوا ولا تفعل كما فعل هذا الكردي . . أنت كردي أيضاً لكي اؤراً في وجهك الصدق — انت تطلب الانصاف الى رجالنا ؟ »

قال « نعم يا سيدي ؟ »

قال « وهل تعلم ما أنت مقدم عليه من الامر العظيم ؟ »

قال « نعم »

قال « لا تخدع نفسك . . اذا كنت متردداً أو خائفاً ارجع من حيث أتيت . ونحن انما نطلب رجالاً أهل بسالة وصدق . وهل تعرف الخطر الذي يحدف بك ؟ »

قال « نعم »

فتمسح ووال « ما الذي حملك علي هذا الامر ؟ »

قال « ان اتشرف بخدمة مولانا الشيخ الاعظم »

قال « من اين أتيت ؟ »

قال « من بيت المقدس » وخاف ان يسأله عن حقيقة غرضه فيسكتشف

امره ويقع في خطر الموت فارتعدت فرائضه لئلا يكتفه تجلده وصار

وقال له راشد الدين « انا اعلم انك فادم من بيت المقدس الآن ولكني

أحب ان تخبرنى عن المكان الذي حثت منه قبل بيت المقدس .. »

فتحير في الحواب وسكت وهو يكر في هل يصدقه أم لا . وخاف

أن تكون كرامة راشد الدين دلته على حقيقة غرضه الذى جاء من أجله

فقلعتم لسانه . فلم يصبر راشد الدين عليه فقال « يظهر انك حائف .. »

لا تخف يا بني .. انك ساء سهم واست من دابة اولئك الزنادقة الجهلاء ..

اما لا اكلمك أن تقول شيئاً وانما اسمعهم شعرة من شعرك وهى تمتدني »

واسار الى عبد الرحيم ان نأثنه شعرة من دواة عماد الدين فله بها فساوذا

من السبابة والابهام من يده وجعل يحايط الشعرة فقال « يا شعرة عبد الجبار

قولى لي اين كان صاحبك قبل بيت المقدس ؟ »

فسمع عماد الدين الحواب آتياً من راحية النمرة صعيهاً كله صادر

عن وتر رنان وهو « من القاهرة »

فقال « قولى لي اين كان صاحبك هناك ومن هم ؟ »

فقالت « كان عند يوسف صلاح الدين وهو من رجال خاصه »

فلم يسمع عماد الدين ذلك أوفاً أن يسلط على الارض من الانعام

واطرق لا يحير حوائجاً . وحاف أن يواصل لاسئله فالتفت الى يمينه ودوه

الى هناك ... مرت رايه ذبيبة ان هم الاول من سيرة من سيرة رايه الدين

ثم يد عند سبابة احمد صلاح الدين ورجل الشعرة من رايه وقال « صلاح الدين

يوسف ؟ انزال الله يارب »

فاستغرب عماد الدين قوله وانتعشت آماله لكنه ظل ساكناً . فقال
 راشد الدين « كيف فارقت صلاح الدين .. هل هو في صحة وسلامة ؟ »
 قال « نعم يا سيدي »

قال « الحمد لله على ذلك .. » ولخط عماد الدين تغيراً في وجه راشد الدين
 لم يفهم سببه . لكنه ما زال خائفاً من افتضاح امره حتى سمع راشد الدين
 يحاطبه قائلاً « أحمد الله على سلامة صلاح الدين .. والآن هل أنت مصمم
 على الانضمام الى رجاله ؟ »
 فقال « نعم يا مولاي »

قال « أتعلم ماذا يطلب منك ؟ »

قال « كلا . اكسا طوع أمر مولانا بما يريد »

فابسم راشد الدين انتسامة لم تغير شيئاً من اقباض سحمته وقال
 « اعجنني حوائك يا عبد الحبار . وانت اذا اتيج لك ان تكون من رجالنا
 كسبت الدنيا والآخرة . لكن ذلك ليس بالامر الهين ... » قال ذلك
 ووقف واسار اليه ان يبعه فتمعه وهو يسترق المطر الى عبد الرحيم استئناساً
 برأيه ولو بالاسارة . وراه يتبعه ويطمئنه . حتى وصل راشد الدين الى
 جانب من حواب تلك القاعة الواسعة المظلمة فوقف وقال لعماد الدين
 « انظر هما » وأوماً ناصحه الى حفرة بين يديه

فطر فاذا هو على شفا هوة لا قرار لها . فقال له « اذا كنت صادقاً في
 ما تقول الى نفسك في هذه الهوة »

فاعاد الخطر اليها فلم تسك أنه اذا اطاعه قتل لا محالة . فالتفت الى
 عبد الرحيم حاسمة فاذا هو يتبعه ويستير اليه بعييه ان يحطو . وهو واثق
 بصديق صديقه لكنه خاف ان يكون في الامر دسيسة وان راشد الدين
 اطلع على حقيقته . فانه اراد الانتقام منه على هذه الصورة . على انه تذكر

ما نبهه اليه عبد الرحيم من قبل وهو لم يتعود الخوف او التردد فسبقت قدمه الى الثوب نحو فوهة تلك الهوة مدفوعاً بوعده وسجاعته . فادا هو قد تلقتة عارضة برزت وغطت تلك الفوهة وفتح فوهة أخرى في المكان الذي كان واقفاً عليه . فلم يصدق انه لا يزال حياً
 اما راشد الدين فامسكه بيده وهو يقول « الآن نأكدت صدقك . ولو لم تصدقني لقتلت لان فوهة الهوة تحوات الى موقفك الاول » وأسار اليه ان يتحول نحو القاعة وهو يقول « فد استحققت المعمة التي تطادها .. انك مد الآن من ابنائى الصالحين »

وعاد راشد الدين الى محله وأسار الى واحد من الخدم الوقوف بين يديه بالاساءه ان يأسيه قناح ماتناه به فناول وصحب فيها سائلاً من الاساءه وقال « هذا ماء الحياك والريس النعيم اذا كمت سادفاً وعه سم قابل اذا كمت كادياً . ماذا كس على وعذك بالطاعة وصدق اليه اسره »
 فمالوه وتردد لحظة وهو يطر الى صديقه ساد الرحيم فراه يستجبه فسرب ما في الدج وأومأ اليه السج ان يقعد . فقعد واحسن عد هليل بالخدم ثم ساب رشده

الفصل الثامن والحشاشين

نعيم الحشاشين

ولا اسأل من دعه من طيحه اسفه وهج تيمه هرجه هسه
 في حديقته طلمية تاهمها ربه من الاثار والاشجار وسابوب
 الاطيار من صراح منيع ووالها من دهاد السيه من محبه
 ويد لسم حبيبه مصر والادار والادار والادار والادار

تحللها لـكنه لا يكسوها لشفافته . يمينها مروحة من ريش النعام تروح له بها . وقد وضعت يسراها على جبينه كأنها تمسح عرقه وظن نفسه لأول وهلة في حلم وخاف اذا نهض ان يفقد تلك المناظر البديعة فصبر قليلاً فاذا تلك الحورية تخاطبه بصوت رحيم قائلة « انهض يا حبيبي الى متى الزقاد ؟ » فهض ونظر الى نفسه فرأى عليه ثوبا يسبه اثواب الامراء لم ير على السلطان صلاح الدين أحسن منه . وعلى رأسه عمامة من نسيج مرر كس بالقصب . وقد جلس على بساط من أجمل أبسطة عصره عليه الصور المسوحة بالذهب — قصى برهة وقد أخذته الدهشة يطرارة لنفسه وطوراً لـلك الحورية وآونة لما بين يديه او لما يقع عليه بصره من الاسجار الارهار وما يسمعه من خرير الماء وتجاوب الاطيار وما يفوح من الروائح العطرية مما لم ير مثله ولا حطر بباله

وهو يفكر في ذلك تقدمت اليه تلك المرأة وقد أزاحت فباها عن رأسها وأرسلت شعرها الذهبي على كنفها وهي تنظر الى عماد الدين بعين تسكادان تنطقان بعبارات الحب وتسكيان لواعج العرام على أنه تجلد ونظر اليها وصبر لما يبدو منها فمدت يدها للمصافحة فناولها يده وهو لا يزال يحسب نفسه في رؤيا ففحصت على انامله وهي تقول « ما بالاك يا عبد الحبار ألا تزال تحسب نفسك في مدام ؟ أسيت انك نسرت ماء الحياة من يد مولانا الشيخ الاكبر ، انك في الخنة الان التي لا يدخلها الا المستحقون ؟ فتذكر القدح الذي نربيه من يد راشد الدين فقلت على اعتقاده صدق دعوى ذلك الرجل وأنه في الواقع انتقل الى الجنة بانهارها واسجارها واطمارها وان هذه المرأة حورية من حواريمها . ثم تذكر سيدة الملك فاجفل وتال في نفسه « ما لهذه المرأة بهم بفاى لتخنطفه وهو ليس لي . . ؟ »

فتباعد عنها فتباعدت وبان العتب في وجهها وتحولت عنه ثم غابت عن عييه

فتركها ومشى على ارض مكسوة بالعشب الاخضر الملون كالسجاد المزركش وقد فاحت منه الروائح المبعشة فوق بصره عن بعد على قاة يجري فيها الماء لامعاً كانه الرلال وعلى صفتيها اسجار الفاكة وقد وقعت اشعة الشمس من خلال الاغصان على ذلك الماء وهو يجري فتلون بالوان قوس قزح . ودنا من تلك القاة ووقف على صفتها ينظر الى الانعة الواقعة على الحصى في قاعها كيف تنكسر وتتلون . وهو في ذلك رأى في الجانب الآخر حورية بررت من بين الاسجار ومشى نحوه وهي تبسم له . فسره أن يلبس ويذهب قاة فتول دون وصولها اليه وتوقع ان تقع على الضفة الاخرى ونحاطبه . فاداهي تباورب الضمة ولم ترل . اسية اليه وهي سطح الماء ولم تبذل قدماها

وتعاطفت دهسته لما رآها وصلت اليه وقامها العاريان تناقلا فوق سطح الماء الحاري لا تقع فيه ولا تعكره أو تعيق سيره فتحقق لديه أنه في مكان غير الارض وأن أولئك الحواري من الملائكة . وصلت تلك الحورية اليه والهواء يعبب سعرها والاع أطراف رداءها وسطب بدنها نحوه كأنها استقبلت به بخارب هواه وينذك سيده تلك وحبا اياه وبهم الامعاد . ورأى في وجه تلك الحورية نورا يشبه ملامح حبيبته فذعر وهرس بها كأنه وحده فنه ان يكون من بعد وان يذهب الى امة من امة معمرات الدنيا الذين لم يرب رقا وصلب الماء به اليه ولم يدعها فنه قد يده وتحملا وهم يرسون وجهها وحدها كل ذلك منه بعد ان السابة يدها وبس ميادة ذلك الكية السادن باواس ان سادتها عما يرا . فالدات منه فادعت الحسة لطيب من وها فوسعت يدها على

كفنه فاقشعر بدنه فقال لها « من أنت يا هذه وأين أنا ؟ »
 قالت « ألا تعرف أين انت ألك في جبة شيخ الجبل مولانا الامام
 الا كبر »

قال « وهل هذا مقرر أتباعه اجمعين ؟ »
 قال « نعم . ولكن لا يمكنك فيها الا من أحسن الدلاء في طاعته »
 وامسكت يده ومشت فمشى وأومات اليه أن يتبعها فوق تلك الفتاة
 فتردد هيمية تخذبته يده وهي تقول « لا تخف امس » فمشى فادا هو يخطو
 على سيء صلب يفصل بين قدميه وبين الماء . وطن الماء جمد تحت قدميه .
 فاتصل الى الحجاب الآخر وسار مع الفتاة وهو شديد الرغبة في معرفة حقيقة
 ما يراه . فلما سمع قولها قل « فانا باق هنا ؟ »
 قالت « انت حذب العهد وانما حئت لتتري ما اعده المولى لاتباعه

ومر يديه اذا قاموا باوامره . وعسى ان نكون من المستحقين »
 فعلم أنه هناك الى أجل ولا يلبث أن يعود . فمضى لترويح النفس
 وعيناه تنقلان بين الاسحار والرياحين ويرى الاطيار تتماقر بين ايدي تلك
 الحورية وفيها المكراكي والطواويس بالوانها الجميلة . والبالابل والحساسين
 تتحاو بالتعريد أو الرققة والفتاة تماذيها فتأتيها وتقع على كتفها او على
 يدها وتنقل كما تأمرها كأنها تفهم لغتها

ثم سمع عباد الدين زنبيراً علم أنه رئيس الاسد وكان قد سمعه مراراً
 فاحمل وقال « أليس هذا رئيس الاسد ؟ »

فالت « بلى ... وهل حفته ؟ ان الاسود لا تؤذي اهل هذه الدار »
 ومشت حتى دبت من مرمى الاسد تحت سحرة . فاذا هو مقع وعياه
 برفان لكمة لم يسفل من مكانه فتقدمت الفتاة اليه ومدت يدها الى رأسه
 وعامت سحره كما تعبت لشعر الهز ولم يحرك ناستعرب عباد الدين ذلك أيضاً

وعادا الى التمسى فوق نظره في بعض جوانب المدينة على غرف مفردة تعطىها الازهار والاغصان فسألها عنها فقالت « هذه مساكن الذين استحقوا البقاء هنا يتمتعون بالمدات والنعم لا يعكر عليهم ذلك أحد » وبعد المسير ربه بين صعود وهبوط وقعت به الفتاة عند حائط وقال له « انظر الى هنا »

فنظر من كوة في الخائط تسرف على واد احرد لا شيء فيه من الماء ولا الخصرة . فاحمل لما رآه هناك من الثعابين والوحوش المفترمة تسرح بين حماحم البشرفال لها « أظن هذه هي الحميم »
قالت « .. نعم هذ هي . ولولم تلغ السيح الامام الكنت في عداد المعصوم علمهم هما »

فلم يشأ أن يفغ هناك طويلاً . فتجمل وعادت معه حوريتها وهي
تلامله وتقطف من الأثمار وتعطيه . وهم كائناته في الكار لا يدري ماذا
يرى . وإذا هو يسمع صوتاً اهتدت له حملاً حبه وحمل الدم في عروقه لانه
صوت سيدة المالك كماها استعيب . فاحد يتلفت يميناً وشمالاً وهو
يحسبها على مغربه منه والحورية تنظر اليه بهدشة فالت « ما ذاك ما الذي
أوقفك ؟ »

قال «ألا سمعتم نقاشاً؟»

قال « كلا . ماذا تسمع ؟ »

[illegible]

وكان قد شعر براحة لتلك الحورية لطول رفقتها وكثرة ما بذلته في سبيل استرضائه واجتذاب قلبه وهو شاب في مقتبل العمر . فغلب على اعتقاده أنه في حمة أو مكان يسبه الخنة جاءه بكرامة أو معجزة من معجزات راشد الدين وأوشك أن يستغل عن سيدة الملك . فلما سمع ذلك الصوت توهم أنه صوت صميره للباب في حب جيبته فلا يستغل عنها سواها فاحس بانقباض وود الخروج من ذلك العجم

وهو يسكر في ذلك لا يلتفت يمينا ولا شمالاً سمع وقع خطوات غير ططوات رفيقته فالتفت فرأى غلاماً كالبدرة طلعة وبهاء قد تمتدق بمنطقة من الحر أرسل قسماً منها الى الامام كالمئزر وأرسل شعره ضفائر ذهبية وعليه ثوب سماوي اللون لما دنا من عماد الدين انحنى انحناء الاحترام وقال بصوت رحيم « ألا يتفصل المولى اتماول العداء »

فالتفت الى رفيقته كأنه بستردها بيانا وابتمست له قائلة « تفصل

يا مولاي الى الطعام فقد آن وقت العداء »

وكان في شغل عن الطعام فلما دُكر له أحس بالجوع . فمضى في طريقة مسواة كلها فرشت بالزعفران يحف بها من الجانبين سياح من الازهار الحميلة ينهني في آخره باب كواب القصر الفخم . وقبل الوصول الى الباب فاحت روائح الطعام الشهى مما لم يعرف مثله الا في قصور الفاطميين في أساء الاعياد . ولما اقتربوا من ذلك الباب ففتح لهسه وتقدم غلامان آحران يرحبان بالقادم ومسا بين يديه من باب الى باب حتى وصل غرفة المائدة . وهو يتألف الى الحائنين وقد أدهته ما على جدران الدهليز من الستائر المصورة تمثل المساتين والقصير ومواقف البدح والرخاء تستلمت المطر وتحتاد القلب . وأما غرفة المائدة فقد دهت برسده وأوقفته موقف الحبرة وسى مكانه لان جدرانها الاربعة مكسوة بالاربابا على طول الحائط .

فتقدمت الفتاة أولاً وأشارت الى عماد الدين أن يتفضل بمقعد على مقعد مغتنى بالديباج المزركس وبين يديه مائدة مكسوة بملاذ من الحرير الوردي . ولم تمض دقائق قليلة حتى تواردت الاطلاق وعابها الالوان من اللحوم والمأكلة . وحلست تلك الحورية بجانب عماد الدين وهي تلاطمه وتقدم له الاقمة بعد الاقمة وتبالغ في اكرامه والاعلان وقوف بين يديهما القيام بالاوامر . فعاد عماد الدين الى اسيان سيدة الملك وقد سجدته تلك الفتاة نحالها واطفها . ولا سيما بعد ان دارت الافداح ومبا الجمور اللذيذة فاصبح لا يعرف من تلك الساعة وبدا في دفعه الى في النعيم الخندي

ولما رأته، تآلم العبد ميله ورضاه أحدث بالاعراض منه وهو يزداد شعفاً وقد رادته الحور اندفاع مني أصبح يعرف الدنيا وعادتها وهي تمنع .
فاما تيقنت امتنانه بها قالت « لا شيء عن ذلك فاستأجنت الى ههنا على سبيل التجسس . وليس الوصول الى ما تلمع ههنا . ان من دونه نذل النفس في طاعة الامام الا كثر »

مسمی علیہ هذا الاعراض الکذا، دامتا، وقر «قد کت مد مد»
تقریبن واما بعد کت تحدید

والله اعلم بالصواب

فاحص القلوب يطالع على خفايا السراير ولاكنني تأكيداً لعلائق المودة
 بيننا ادهن شعرك بطيب خاص لي » قالت ذلك واستخرحت حقاً من
 بين اثوابها فتحتته ففاحت منه رائحة لم ينسّم مثلها في حياته . فانخذت بعض
 الطيب ودهمت به يديه وشعره : فلذ له ذلك وطابت نفسه . ثم قالت
 « احفظ هذه الرائحة تذكيراً ييسا حتى نلتقي اللقاء الدائم ان شاء الله »
 وبان الالعاب بعينها فازداد هو تهيباً من ذلك السيخ العجيب فسكت
 وبعد الفراغ من الطعام والسراپ أحس عماد الدين بميل الى المعاس .
 فتوسد وراشاً من الحرير المحسوس بريش النعام وتلك الحورية الى جانبه
 تداعبه وتعرض عنه ولم تمض دقائق قليلة حتى غلب عليه النوم واستغرق
 في رقاده

الفصل التاسع والخمسون

اطال الله بقاء صلاح الدين

وأفاق في اليوم المالي فادا هو في قاعة راسد الدين كما كان من قبل
 وعليه الثوب الابيض وشعره محلول . فجعل ينلفت يميناً وشمالاً وينظر
 في ثوبه متبادر الى ذهنه لاول وهلة أنه رأى حلاً . ثم ما لفت ان سم
 رائحة الطيب في شعره وبديه فلم يمس عنه سلك أنه رأى ما رآه حقيقة .
 وانه قد قليل لنفسه رأى راسد الدين حلساً كما تركه ورأى صديقه
 عبد الرحيم يحابه . فمس له وصممه الى صدره فقل له عبد الرحيم « ان
 رائحة الحنة تدفع من شعرك . هدينا لك وعسى أن يتاح لك النعيم
 الدائم . هم وأحت عند قدمي ولانا وقبل ركنته وادع بطول هائه »
 فمهم وتراى على قدمي التبتخ عن اعتقاد صحيح بكرامته . وقبل

ركبته فتمعه ودفع اليه يده فقبلها ثم قال له الشيخ « أنت الآن من أبنائنا
 الفدائيين ويلوح لي أنك لا تلبث أن ترتقي الى مصاف المستنيرين . قم
 الى غرفتك وقد أوصيت السيح ديبوس بك خيراً . واسكنني أدب قبل
 خروحك ان ازودك بعهد مني » قال ذلك ونهض ونهض عماد الدين معه
 وهو يحدق في عيبيه وعماد الدين اسعر بقوة تنبعث من عيني ذلك الرجل
 وتوسك أن تعلمه على أمره . وقد قبض الشيخ على يدي عماد الدين بيديه
 قبضاً سديداً

مكت كذلك عدة دقائق ثم صاح به « افتح شك » ففتحه فتفل
 فيه وقال « كن فدائياً طيعاً » وتركه واسار الى عند الرحيم أن يذهب به
 الى غرفته

فشدنا الى غرفة الشيخ ديبوس وهما صامتان وقد اسماوات الدهسة على
 عماد الدين وأمسح كالمسحوق أو من اصابه السحر . فلما وصلا الى الشيخ
 ديبوس بدل راد الدين ثبانه وهما دنوس ثمانه من ريس السيح الاكبر
 وأعاد اليه حنجره وقوده وحواجره وأصبح واحداً منهم

من أنه حالمساعد من دار النعيم الى دار نسقاء عاد الى ذكرى
 صلاح الدين وسيدة الملك فاصبح همه أن يمه بعد الرحيم بسأله عن الأ
 سعل خاطره بالامس — وهو قول السيد الدين « أقال الله لقاء صلاح
 الدين » فانه لم يقاد على علمه وهو يعلم تعاده قادم مرة

أما عبد الرحيم واستأذن صديقه عند اعمار العباب تلك الليلة التي
 غيبتها آثره الى درجته السمر من ريس عماد الدين على حر من
 الحمر وقد تراكت عليه الفرواس وأدب العرايب . وتما تروست رائدة
 الطير من سعره نذكر لك السار والاقه بذلك من أسباب السعد

تأم تلك الليل نوماً متسلوا وما دمره طالع الجار وأراد صديقه

عبد الرحيم حاء والبشر يتجلى في عينيه . فنفض له عماد الدين وقبلة وقال
« قد أصبحت مدد الآن أرفى مني ولا يحق لي أن أناذك أخي كما كنت
أعمل »

وضحك عبد الرحيم وقال « ان صداقتنا امن من ذلك كثيراً كنا
عرييين وتحايبنا ونحن الآن أخوان من عهد واحد . ولا تلبت أنت ان
ترتقي الى مثل رتبتي . انمي ذلك لك قريباً بل أنا أتوقعه عن ثقة »
ولم يكن ذلك الشرف ليهمه وإنما أصبح همه استطلاع رأي راشد الدين
في صلاح الدين فادا علم أنه لا يزال يسوي قتله عاد الى مهمته الاولى . وأما
اذا تحقق صدق دعائه بطول العمر كان له رأي آخر فقال « أما أنا فلا أتوقع
قرب الترقى كما تظن . . . ويكفي ان تكون لي صديقاً . . . ولا أحب أن
احملك ثقله صداقتي انمي اطمع به على يدك . وإنما اتقدم اليك أن تفسر
لي كلاماً قد سمعته من السبع الاكبر بالامس فوقع عندي موقع الاستعراب
ولم أصدقه واعلمك سعرت مثل شعوري . . . »

فقال « أضحك تعي قوله : أطال الله بقاء صلاح الدين ؟ »
فال « نعم هذا الذي أغنى كيف ترى ؟ ألا تستعرب قوله ؟ وهل هو
يعني ما يقوله حقيقة ؟ وأنا أعلم أنه بعث أناساً لقتل صلاح الدين غير مرة
وكيف يفعل ذلك وهو يطلب بقاءه ؟ هذا هو الامر الذي أحب تفسيره »
فانتسم عبد الرحيم وهو ينظر الى عماد الدين ويهم بالكلام ويمسك
نفسه فلما رآه عماد الدين يردد قال له « اذا كنت تعرف الحقيقة أرحو
ان تحبرني بها لان ذلك يهمني كما تعلم . واعلمك من أعلم الناس بامري مع
هذا السلطان »

فاعتدل عبد الرحيم بمجلسه وأطهر الاهتمام وقال « اعلم يا صديقي عماد
الدين ان عبارة الشيخ الأمام التي ذكرتها كانت مغالطة علي الى مساء الامس

[illegible]

لا بد للثاني ان يتمتع في تلك السمة . . فهو لذلك حريص على حياة صلاح الدين حرصه على حياة نفسه . وهل عندك شك بصدق هذا السيح العظيم .
قد رأيت من معجزاته ما بكفي وان كان قليلا من كثير »

فاطرق عماد الدين واخذ يفكر في ما سمعه - وهو مصدق لما قاله راشد الدين بعد ما شاهدته بنفسه فاعتقد موت الرحلين في سعة واحدة واصبح من مصلحة صلاح الدين ان يطول عمر راشد الدين فتحولت مهمته الى المحافظة على حياة هذا الرجل لا قتله ^(١) واعتبر مهمة قد انقضت واصبح في ميل الى الخروج من داك الحصن والاسراع الى صلاح الدين لينقل اليه تلك الاسرى ويرى حميته سيدة الملك . واعتضت افكاره رائحة الطيب ومناظر تلك الحمة لكن الحقيقة تغامت على الوهم . واشتد ميله الى الخروج ولا سبيل الى ذلك الا ان يرسله راسد الدين بمهمة لقتل احد الملوك او الامراء . فالتفت الى صديقه عبد الرحيم والامتنان ناد في وجهه وقال « لا انسى صداقتك يا عبد الرحيم اني انسعر بصدق وودتك سعورًا يكاد يلهس باليد . ولذلك كانت بقتي بك عطية ولا يمانى لي ان احفي عنك شيئًا فهل تأذن لي ان -
استخدم تلك الثقة ؟ »

قال « قل ما بدالك فانت في موضع بقتك »
قال « لا حاجة بي الى بيان الاسباب التي تلحني الى سرعة الخروج من هذا الحصن فانت تعلم علاقتي بمصر واتقدم اليك ان تساعدني على ذلك »
قال « خروجك لا ييم الا اذا دروا لك مهمة تذهب في انفاذها لقتل كبير من الكبراء »

قال « فليكن داك وأنا فاعل ما يأمرؤن به »
قال « اناهي يومًا أو يومين لاعتنم حرصه يساعدني على داك . »

(١) ان راسد صلاح الدين ورا - الدين توفوا سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٢ م)

قال « اني في انتظار وعدك بارك الله فيك »
 قال « واسمح لي بالذهاب الآن فان علي واجبات تتعلق برتبتي الجديدة
 لا بد من انجازها وساعود اليك بما اوفى اليه »
 قال « اشكرك يا اخي »
 ونهض عبد الرحيم وانصرف

الفصل الستون

الفاق والشكوك

لما خلا عباد الدين بنفسه بعد ما انتابه من الاهوال وما مر به من
 العرائب أخذ يفكر في ما راه وسمعه فلم يرد الا استعراباً وراحع ما كان
 سمعه عن تدجيل ذلك الرقيم فاخذ اعتفاده اكراماته يضعف واكنه لم
 استطع اعامل ما ساعده من المعجزات تعليلاً معتولاً . . كيف «طالع على
 الوقائع قبل وصل اخبارها وكيف يكلم الميب فيحييه وشعرة فتطاعه على
 اسره وهذه الجنة بما فيها من الطيبات والخور اللواتي ينس على سطح
 الماء فلا ينمكر ويحاطس الاطيار مطيعين والاسر الاسود ما تؤذيه .
 فاذا تمت له هذه الطواهر لم ير مدوحه من الاتقاد بكرامة الشيخ
 راشد الان

وعب من القليل من الرقيم في ذلك الحين وما هو ثمه
 ما به له لانه اصبح من اشد فداص ومراعى لرضي الرقيم وما
 شيط به حلو من الثياب الاما
 منذ كان ما ساعده الامس من

استطلاع خبره واين يمكن ان تكون . فصعد الى بعض المرتفعات لعله يشرف منها على تلك الحديقة فلم يوفق الى شيء من ذلك . لكنه وقع نظره وهو يجيل بصره في السهل الذي نزل فيه يوم وصوله الى هناك على رك لم يستطع ان يتبين وجوههم لبعده المسافة . ولما اقتربوا وجدهم ملتئين وهم بصصة قوسان في ركبهم جماعة من المتساة كالخدم . فلم يهمهم امرهم وعاد الى التفكير بما هو فيه من الموحاش التماساً لسرعة الخروج من هناك

وحدثته نفسه ان يهر فوجد ذلك مستحيلاً عليه الا بالتعرض للخطر الشديد وهو في غنى عن ذلك اذا استعان بصديقه عبد الرحيم ولا شك عنده انه لا يدحر وسعاً في سبيل انقاده

واعاد نظره الى ذلك الرك وراهم دنوا من الحبل حتى حجبهم سمحه عن عينيه . فتهحج لديه انهم من اهل ذلك الحبل او النارلين في جواره . واحس بالجوع فمحول الى مجتمع الفدائيس فتناول الطعام معهم ولم يجد فيهم من يباع مبلعه من علو الدمس ورقة الاحساس . فازداد رغبة في الخروج من هناك ولبت ينتظر عوده عبد الرحيم وهو على مثل الحجر

قصى ذلك اليوم واليوم التالي ولم ير عبد الرحيم فاشتغل خاطره ولم يعرف سبب تحلجه . وراذ بلباله لما شاهد عياب الشيخ دوس ايضاً عن عرفته في أثناء ديك اليومين . وبلعه انه في شاعل مع السيج الا كبر للمباحة في أمور هامة حدثت بعد محيي اناس وصلوا بالامس . فتذكر الرك الذين راهم فادهم اول المارحة قال الى استطلاع حقيقةهم فلم يندمه منجى . لان هذه الاحرار لا يتاولوا الا الخاصة من المستيرين . فصبر نفسه حتى يأتي صديقه عبد الرحيم فلما استأظأه استمعهم بعض الرفاق عنه فقبل له أنه مع نجمه المستيرين في ساعل عبد الشيخ الا كبر

وراد سوقاً الى الاستطلاع لكنه لم يرداً من الانتظار ومضى نصف

قال « كلا . سوف يستقدمك المسيح الامام نفسه ويثبت فيك روح العزيمة والنبات ويأمرك بما يريد . اما انا فاطايطبك محاطبة الصديق سرّاً لعلمي انك في قلق »

مقطع كلامه وقال « اسمح لي يا اخي ان اقول لك انك زدتي بهذا الخبر قاطعاً »

قال « ستحمد عاقبة هذا القلق يا عبد الجبار . . » وابتنس كأنه يكتم سرّاً لا يريد ان يوح به

فقال « لم افهم مرادك . . الله الا حفت بعض ما بي ولو بالتلميح . انا اعلم وصيلة المحافظة على السر . ولا اطلب منك أن توح بسر مقدس او تمننت عليه ان كنتي ارجو تخفيف قاضي بعض الشيء . قل لي من هو الامير أو الكبير الذي سيعهد الى قتله وهو مقيم ههنا اني لا أعرف كهراء هذا الحبيب »

قال « هو ليس من كهرائنا وانما هو طارق حاءنا منذ يومس . . »
 مانته سعاد الدين للركب الدين رآهم قادمين في ذلك السهل فقال
 « رأيت ركبا فادما الى هذا الجبل منذ بضعة ايام أله كان فيه ؟ »
 قال « نعم هو جاء في ركب . . اعلم اني اسر اليك امراً خطيراً . . »
 وخصص صوتة

فقال سعاد الدين « علام ذلك ولكمي امنعرب قدوم هذا العدو
 لاني حياه من يدي مدود . وهو يعلم قدرته على قتله »
 قال « ليس بشو عدوا لانك ان هو من اصدق اصدقائه واخص اخصائه .
 معاوفا وشوا سعاد ان فعل ان تسير المسيحة الى مولانا راشد الدين . ولعلك نعلم
 ان مولانا سعاد ان سعاد الامامة كان يقيم في مكان اسمه عقر السدين
 وحدهم سبيع الامامات في الاموت والديلم وتفقته على يده بالعلم والدين ثم

انتقل الى سوريا ونزل حلب واخذ يعظ ويعلم واشتهر بالثقوى فنقاطر اليه الناس افواجا . وكان يجلس على صخر ويعظهم وهو حامد كاس صخر . وانما سحر الناس ببانيه فكثير اصحابه ومر يدوه . وكان شريح الاسماعيليه يومئذ رجلاً اسمه ابو محمد خافه على منسبيه فبعث اليه من يقتله . واحتفى في كهف قرب حلب وما زال محتفيا حتى ضعف امر ابى محمد فخلفه واسقل الى هذا المكان . هذه خلاصة سيرة مولانا . فضيف اليوم من اعر اصدقائه الذين جاهدوا في نصرته ورافقه الى الكهف ثم شعل عنه بالاسعار . وعاد الآن بمهمة لا أعلم ما هي ولاقاه مولانا احسن ملاقة واحتلى به عيد مرة لا ادري ما دار بينهما لكن السائح بين رحلانا ان مولانا فرح به كثيراً وأنه من اعر اصدقائه . ومع ذلك ما نهت ابى بالامس سرّاً واحبرني عن تقديره اساتيك حق قدرها وسألى اذا كنت تليس بمهمة خطيره . كدنت له اتمناك على ذلك وانك راغب في . به تعبد اليك . ولم اكبر احبه شعاعا داخل هذا الحصن . فرأيتك امدى اهتماما كثيرا ووضع من اتمه كبرى واسر اليك أنه يجب ان يتخلص من هذا الصواب القديم على يدك . ولا يخفى عليك انما ثقة عظيمة فيك وانت لم تطعم في سلك المدح من الامم بضعة ايام .

وكان عماد الدين في اثناء حديثه عبد الرحيم مسمعا فذكر في ذلك عمدا
الطائفة وكيف أنه عمد الى اقتك العديد من الآله رأى قائم حجر
عثره في طريقه -- فوضع اسماءه كرامته لانه لا يعرف ولاية أو كرامة
بأمر بخيانة الامانة. واحد له عار فيه. وانصح نجاهه على نفسه اذ قد
توهم خبراياته ان الله تعالى يقتل السكك احب السكك من هدايا
الحاد. ولم يحسم الى التضرع به فقال: انتم انما كنتم في الدنيا
واكن هنالك والى ايامنا انما اذ اليكم من الدنيا والى السبعين
قال: انما على هذا القول من سدي الله في الدنيا والى السبعين

تؤيد ذلك لا اقدر ان اقولها لك الآن .. ولكنك ستعلمها في حينها .
وقد يخطر لك ان تنتقد عمل مولانا الشيخ لانه عمد الى قتل صديقه ولكنك
ستحمد عمله بعد حين .. فالان ... »

فقطع كلامه قائلاً « ربما كان مصيباً بعمله من حيث دفاعه عن
سلطته واعدره عليه . لكنني اصحت منذ الان اخاف على حياتي
وحياتك » قال ذلك باحس التصريح عما في الصمير ولوث تحت الخطر

ووافى ذاك التصريح هوى من نفس عبد الرحيم فابتسم ابتسام
المصادقه وقال « لا ألومك على هذا النك لانه خطر لى ايضاً . وهماك
امور طرب لى بعد انتظاي في سالك المستنيرين ربما سحت الفرصة ببيانها
واما الآن فالمطلوب ان نعلم المهمة التي ستعهد اليك فلا تتردد بقولها
وسترى انى ناصح لك .. لم يلبث أن بأبك رسول الشيخ يدعوك اليه ...
انا داهب الان وسأبقى بعدئذ » قال ذلك وانصرف

الفصل الحادي والستون

الشيخ سليمان

ومك عماد الدين على مثل الحمر وهو يردد ما سمعه عن راشد الدين
وعلمت عليه السكوك في كراماته . لكنه ما زال مكرراً اقتداره . وهو في
ذلك حادام الشيخ لانه اكرمهم مثل سائر خدمه — وانما يقني الصم
المك المودة لملأ به هوا سبتاً ما يدور به وبين رحاله . فهم يحملون
الاوامر بالاسلحة . واما سائر ذلك الاوكم يضاهيه مسي في أثره حتى دخل به
سل راشد الدين معه و عرقه صميرة لئلا يها سواه . وقد تخفف بعمامة

صغيرة وجعل يتمشى ذهاباً وإياباً ويداه وراء ظهره وفيه عرج قليل
ولما وقع نظر عماد الدين عليه تهيب ووقف وقمة الاحترام . فاسار
راشد الدين الى الخرسى ان ينصرف . واقفل الباب وراءه ولم يبق سده
الا عماد الدين . فناداه اليه همشى فابتسم راشد الدين وقال له « انظر في
عيني »

ونظر فاذا هما تلعبان ويكاد الشرر يتطاير منهما
فقال راشد الدين « ماذا ترى فيهما »
فاستعرب سؤاله وقال « لا ارى فيهما شيئاً يامولاي غير المور والذكاء »
قال « اما انا فارى في عينيكي اسياء كثيرة . . انى أفرأ فيهما ما يكره
ضميرك »

خاف عماد الدين ان بطاع راشد الدين على ما خافه من السكوك
فيه فقال « لا غرابة في ذلك وقد شققتك من قلمي »
قال « ودمري انى سمعت صدق الناعم واحلامك ولذات رأيت
ان أسرع في مكائلك وعدا لا تكن لا تهمة تمضيها . ورغبة في التعجيل
جمعت ذات قريباً في هذا الخوص . مهمت ؟ »
قال « انى الناعم ثمرت يامولاي »

قال « ان في هذا الباب المنفرد حل سهو غذا حص أم . . كبيراً
نبي . ان يدرك من عداك لم لا سمعهم ولا سمعهم وان يدرك من عداك على
مدا . . شاوراً ان . . »

« انى الناعم انى الناعم »
« انى الناعم »

« انى الناعم »

له «أريد يا عبد الجبار أن تقتل الشيخ سليمان اللعين . تقتله وتخذأ نفاسه .
هكذا أريد . . .»

فاحس عماد الدين عند سماع ذلك الصوت على هذا الشكل بقشعريرة
جرت في عروقه وكأن شرارة كهربائية تطايرت أمام بصره . فغمض
-غفيه رغم ارادته فقال رائد الدين « قد احسنت يا عبد الجبار انك فاعل
ما أريد وسوف تنال جزاء أمانك . . واعلم انك منذ الآن حادم لسليمان
أو الشيخ سليمان كما يسمونه نخدمه في حاجياته — فالنس لباس الخدم وغير
قبائلك وابدل حديدك في ارضائه حتى تعتم من غرة تقتله فيها ولا يشعر أحد
بك . واحب أن يكون ذلك خارج القلعة . وانت عند ذلك من طبقة
المستنبرين . ثم أدنى سفينة من أدبه وقال له ومع الرجل امرأة بارعة في
الحال ستكون غنيمة لك مع سائر ما يمتلكه من أواب وعبيد ويمكنك
العويل على صديقتك ولدنا عبد الرحيم في بعض التفصيل . وهذا يكفي . .
أمص الآن الى نائما الشيخ دبوس وهو يرم جبارك بما يلزم » قال ذلك
وترك أمامه مودعه وخرج وهو يرتصف من عظم التأثر واخذ يفكر فيمن عساه
أن يكون سليمان هذا . ولم يهيمه أن تكون امرأته جميلة وهو لا يرضى من
سيدة الملك بدلا

سار توا الى الشيخ دبوس ولم يحتاج في تهيمه الى كلام لانه كان
على نائمة مما يطلب منه حال دخوله عليه قال له « أدخل يا عبد الجبار
واقفل الباب »

مدخل ومهبط « شيخ دبوس دهسه اعطاه لباس الخدم واصلح شعره
وفيما ذهبت تغمر سكة كبراً ردهم اليه كتابا وقال له « تأخذ هذا الكتاب
الى ذلك المسير وتكون حادساً لصاحبه كما أمرك مولانا الشيخ الاكبر
أفهم . . .»

فأشار مطيعاً وأخرج وهو كالخادم تماماً . وقبل خروجه نظر الى وجهه
في المرأة فانكر نفسه . وفي يده بطاقة السيج دبوس الى سايان وهو يردد في
دهابه ويقول في نفسه « كيف أقتل هذا الرجل ولا تأثر باني وبسه » ثم
خطر له قول عبد الرحيم انه سيجد في فتاه راحة موقع في حيرة

وما عثم ان وصلا الى المنزل الذي ذكره له فوجد الباب مقفلاً . فاحذ
في البحت عن النسخ سايان في ذلك الحوار فلم ينف له على حجر فمعد على
صحري ظل البيت ينتظر قدومه اعلمه ذهب في حاجة لا بليت ان يعود
مباشراً . واستغرق في هواحه وتفتت الحجر الذي حبس به تحت أبوابه عند
سوح الفرصة . لكنه ما زال يتردد في أمر القفل

وهو في ذلك رأى رجلاً قادماً عن بعد وعلى رأسه عمامة خضراء
اللون كمرة الحجم وفاء أرسل سحر . شربها حول رأسه الى كتفيه ونزل شمة
طوله وعاف في صدره شمة . او دلة وحمل شمة أخرى معه يعاد حماها
ويتم كانه يصلي أو ينسج كما يفعل المقاتلون على العالم الى السموات والدعوات
وحقق أنه النسيج سايان لا محالة . عمل براف حركته وهو قادم حتى دنا
منه فتقدم اليه وهم تقميل يديه ودفع اليه بطاقة السيج دبوساً لها ووضعها
وفراها وهو لم ينظر الى عماد الدين بعد . وما تم فرائضها رفع يده اليه
وقال « يقول اخونا النسيج دبوس ان ههنا النسيج لا كره بك لحديثنا »
قال « نعم السيد . وهل يبع الى هذا الحديث »

قال « كنت قد سأل من ألتزم لأن سحر الحلة من «السلامة والدعاء
وطعامنا» انما سحر الحلة . ما نرى الحلة الى الحلة »

وكان عماد الدين قد سمع من سحر الحلة في سحر الحلة . رأى ذلك
الشيء . وسبح ذلك الصفة . سحر الحلة . سحر الحلة . سحر الحلة . سحر الحلة .
سحر الحلة . سحر الحلة . سحر الحلة . سحر الحلة . سحر الحلة . سحر الحلة .

يحتاج اليه فان كان في شاغل بالصلاة او غيرها فلا شأن لي به وانما الي امره اذا أمرني فاجلب له الطعام او ما يحتاج اليه من الامور
قال « حسناً . ما هو اسمك »

قال « عبد الجبار »

قال « طيب اقعد ههنا واني شاكر لاختينا الشيخ على فضله . وعلى كل حال لاحاجة لي بك في الليل فاذا غابت الشمس انصرف الى مكانك »
ومضى نحو الباب وتناول المفتاح ليفتحه وعما الدین يراقب حركاته ويبحث في ذاكرته عما يعرفه عن ذلك الرجل وابن رآه في دمشق او القدس او مصر فلم يخطر له سبيح يعرفه بهذا الاسم

دخل الشيخ سليمان المنزل وظل عماد الدين حالساً على حجر وقد شغل خاطره بامر هذا الرجل . ولم يذكر اين رآه قط نفسه واهما في تصويره وصرف فكره عنه وعاد الى التفكير في صلاح الدين والخروج من ذلك الحصن ليخبره بما علمه ويرى سيدة الملك على فراخ واطمئنان

وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فذهب ليأتيه العشاء وكانوا قد اعدوه له في اطباق خملها فوق رأسه حتى أتى الباب وقرعه وطال انتظاره قبل ان فتحه له . ولما فتحه تناول الطعام منه وادخله بيده ودفعه الى دياراً وقال له « قد جاء الغروب وانصرف وسألك يا عبد الجبار »

فتناول الدينار واطهر الامتنان وانصرف وهو يفكر في امر هذا الرجل وحرصه الشديد على منزله حتى لا يأذن لحاده بالدخول اليه . وهو في الطريق لقيه عبد الرحيم فسلم عليه وسأله عما جرى فاخبره بما شاهدته وما استعربه من حال الشيخ سليمان فضحك عبد الرحيم وقال « لم يسمح لك بالدخول لا بأس . . . ألم تذكر انك تعرفه من قبل »

قال « تصوبت لأول وهما اني رأيت ذلك الوجه او على الاقل سمعت

ذات الصوت . لكنني غيرت فكري لاني وجدت نفسي واهماً »
 فقال وهو يحك عثونه ويحفي ضحكه « قد تكون واهماً وتستبدواك
 الحمية بعد قليل . انك كيف أشاء ، باصرافك الآن وهو قد يحتاج اليك في
 الأيام »

قال « لا أدري وبطهر لي انه يكتم اشياء لا يحب ان اطلع عليها .
 أظنك عرفت عنه شيئاً لم تقصه عليّ »

قال عبد الرحيم « عرفت عنه اشياء كثيرة لا اقدر ان ابوح بها كما تعلم
 لكنني اقدر ان اقول لك بانه من أصحاب المطامع السياسية وهي التي ستجر
 اليه خنقه . ويظهر لي انه أراد ان يسارك شيخنا سلطانة او انه طالب منه
 أمراً لا يرامه عليها . وهو دبره صعباً شاف اذا اعصمه ان يبيع عنه
 امراً تغلب هممه صاحب المخلص من حياته . هذا الذي خطمه الى الآن
 وسيرى الحمية وانت أول مني تكلم بها »

فقال « هذا أول يوم . أنه فيه وعد صديقي بانه العرب وسأعود
 اليه في صباح الغد »

قال « هل انه صديقك ميالك ان تتي . يياً من منزله لعله يخضاح
 الملك أو امالك ترى فرد . مناسبة لقيام بمراك »

الفصل الثاني والستون

في الخريف

و كانا نسير وقد احسب اننا ان مكلف واملك الخادم ان
 احسن نعاله . فقال عماد الدين « اني اريد ان يكون دليلاً لاني
 فقال « اني سمعنا »

قال «أحب أن احادثك ببعض الامور»

قال « تعال الى غرفتي انها على مقربة من هذا المكان » ومنى حتى دخل الغرفة وفيها مصباح ضعيف اضاء له بعض الخدم . فقال عماد الدين « احب ان نكون في خلوة »

فأوماً عبـد الرحيم الى خادمه بالانصراف وقعد و اشار الى صديقه ان يقعد وقعد وهو يتنهد فقال له عبد الرحيم « ما نالك يا صاحبي لماذا تنهد؟ » قال اتنهد يا اخي لاني اشعر كاني في قصص لا أرى لي منه محرراً وقد أظعتك في كل شيء كما رأيت ولا يمكنني أن انكر صدق نصيحتك لي كل مرة . لكذلك تعلم أيضاً اني لا أقدر على النقاء هنا طويلاً ولى في مصر اناس يبتغون رجوعى و . . . » وسكت

فادرك عبد الرحيم ما يعنيه فقال « أنريد ان يخرج من هذا الحصن ؟ »
وال « نعم أريد ذاك . ارحوا ساعدى عليه »

قال « وعدت انى واعد ما تريد واكمل أحل كتاب . اني مدبر طريفة لخروجا كلنا »

ففرح عماد الدين بهذه السرى وقال « وانت أيضاً عازم على الخروج ؟ »

قال « نعم وربما انى خروجا معا »

قال « هذا هو الافضل . قد اطمأن الى الان — وان كنت لأعرف سبب رغبتك في الخروج بعد أن صرت من حاسة الاسماءلية واطاعت على اسرارها . . . »

فأشار اليه بساكنة على أنه ان سكت وقال « سوف تكلم عن ذلك في فرصة أخرى . اما من حمى ردتك في الخروج فندبيره على حالما تفرع من مهنك . تعال الى محادثتي هما في اكثر الاوقات واما يطلب منك ان

يسهر على مهمتك المعالومة »

قال « حسناً .. اني ذاهب كما قلت . » وأشار الى خصره وقال « وهذا هو الخنجر الذي سأغمده في صدر هذا الشيخ لغير دأ له عدى » ثم استأنف الكلام قائلاً : ولكن الشيخ راشد الدين قال لي ان الرجل راحة ستكون لي غيمة فهل هي معه في هذا المنزل . وقد اوعز الى الشيخ أن اعول عليك ببعض التفاصيل فما هو رأيك ؟ »

قال « رأيي ان تقتلك بهذا الضيف باول فرصة . أما امرأته التي أشار اليها سمخا واسمها . وإنما هي في منزل خارج الحصن بجوار القرية القريبة منه مع سائر أهله وحده »

قال « وسمعت من سبجما انه يعمل ان اقبله خارج الحصن . وهل هم يذهب الى هناك ؟ »

قال « قد أدن له بالذهاب معي . وهو يذهب كل ايامه تقريباً . هالما مضى ان نعيم بحوده سارحاً ونقسي عليه ومن قتله اسبب امرأته وسائر ما يملكه حلالاً لك »

وقال عماد الدين : سمعت لي ان استشيرك بامر آخر . ما فوائك اذا قصيت مهمتي هذه وأنا خارج هذا الحصن ان اتي سارحاً وانصرف في طريقتي »

قال « نعم الرأي هو . وأنا تتبعك على طول »

فقال « وكيف تعلم ان فرغت من مهمتي »

قال « من سارحاً في آخر هذا الدبل اوفد مسعلاً . وجا وحاملاً أرى المسعال من هذا الخرج الماء ونذهب معاً »

فانسلخت من ساد الدبل فارتاد رأسه وشبه لا يعرف انه سكة عبيد الزمر . فحذبه اليه وقال : « ان تعاد اليك سكة من الزمر »

أن تقرّ بدون أن تقتل الشيخ سليمان . بل يجب أن تقتله ولو لم تستطع الفرار .. اسمع نصيحتي هذه المرة أيضاً .. »

قال « حسناً سأفعل ما تقول .. واسكن هل أقدر على الخروج من باب الحصن بلا إذن ؟ »

قال « إذا داهمك الوقت قبل أن استأذن لك يكفي أن تقول للبواب شعاع الخروج فيفتح لك الباب »
قال « وما هو ذلك الشعاع »

قال « قل له . حسن بن الصباح في لاموت . فيطلق سراحك »
قال « بارك الله منك . - قد اندرح صدري الآن وسأذكر لك هذا الفضل في جملة أفضالك » قال ذلك ومضى نحو منزل الشيخ سليمان وقد استند الطلام . فلما دنا من المنزل رأى ذلك الشيخ خارجاً منه ويده مصباح

فتقدم كأنه رآه بالصدمة وحياء واكب على يده يقبلها وقال « كيف تحمل المصباح لمسك وأنا حادك قد أمرني مولانا الشيخ بخدمتك » قال ذلك وتناول المصباح منه ومضى بين يديه حتى دنا من الباب ففتحوه له . فأحب الشيخ أن يسترجع المصباح منه فإني أن بعطيه إياه تحفيهاً للنقلة عنه وقال « ادا علم مولانا الشيخ الاكبر اني لم أقم بحق خدمتك غضب عليّ وعمقي »

وأطاعه ومضى ولم يعرضه احد لانه أسرّ الشعاع الى البواب . مشى بين يدي الشيخ والطريقين الاكبره محدري حتى اذا فرع من الانحدار وقف الراجح وقال « بارك الله عليك هاب الصباح . اني على مقربة من منزلي »
قال « اني أسير بين يديك الى باب المارل »

قال « لا حاجة الى تعبك .. هذا هو المنزل » وأشار باصبعه الى نور
ضعيف لا يظهر سواه في ذلك السهل

فقال « بل أسير معك حسب امر مولاي »

موقف السحر ومد يده ليتناول المصباح منه فامتنع عماد الدين عن
ان يباوله اياه فعضب الشيخ وفل بانتهاء « هات المصباح يا عمال . واصرف
لسيالك . . »

فقال عماد الدين « أهذا حراء من يريد القيام بخدمتك » قال ذلك
واستل خنجره واعمده في قلبه . فوضع الشيخ كفه على موقع الضرورة
وصاح « آه . فقلبي بالعين . ويلاه آه .. ماذا فعلت معك ؟ .. »

وهو عماد الدين ان ياتي الضرورة فاستكبر بيده الأخرى وهي ترتعد
وقال « هـ ليه الطعنه تكفى القليل . . فاعمد اليايه صدى تلك . .
الحائثة . . . انظر . . انى مرأيتك على فولي . لانى أسمعى القتل . .
واسكن هالك امرأه .. هالك . . فى هذا المهرل حبيب نرى . . .
امراته . . . أحى بالمال مـى .. بالمال أله دهب اليا . . وقماتها وحده ما يـ
فى حبي من القود والمواهر مكافأة الله . . . قال ذلك وسقط وحماد الدين
استغرب قوله فأكب عليه وقاش وقفاً وتوداً وجواهر
استمحرحها وتركه يستبط يده

مضى وهو يفكر فى هذا الحادث
القود
ما يعينه عن
ويهد ذن فى ربه أن
عاماته وهو لا يعلم

الفصل الثالث والستون

المنزل

فلما رجح الفرار وقف يفكر في الطريق المؤدي الى مصر وقد اشتد الظلام وهو لا يميز الطرق ولا يعرف الجهات. وتذكر وصية القتييل وعرايتها واستدل منها انه ناظم على امرأة يريد قتلها. فرأى ان يذهب الى المنزل ويستدل من هناك على الطريق. فمسح خصره واغمده وأصلح من سائه واطفا المصباح حتى لا يراه أحد ومضى نحو الور. ولما اقترب من المنزل جعل خطاه خفيفة كأنه يتلمس الطريق وأصغى سمعه وتطاول بعينه. وخطا خطوات قليلة حتى أوشك ان يندق الباب. مسمع رجلا يخاطب رفيقاً له في ذلك البيت قائلاً « ألم تر مصباح السيج ؟ »

فجابه الآخر « رأيت مصباحاً منذ هزيمة على بعد يشبه مصباحه »

قال « بل هو هو بعينه ثم انطفأ ... ماذا جرى له ما ترى ؟ »

قال « لا تخف عليه .. انه طويل العمر . »

قال « أراك تسده على حياته وهو من أسقى حاق الله .. »

قال « صدقت لم أر أسقى حياة .. »

فقطع الآخر كلامه واثلاً « بل أسقى منه هذه المسكينة التي لا يرح

يعدها وبصر بها و .. »

فقال صدقت .. مسكينة . ان قايي بهطع عليها احياناً . وك

حدثني نفسي ان انصبر لها .. »

فقال ذلك « ما لا ولما . اما نحن دامت الى مصلحتنا فادري لما

ما وعدنا به . حرارنا المعادة الخ ممة . الله كما لك ان

من كبار الامراء ... »

فقال الآخر « هل تعتقد كل ما يقوله الشيخ صحيحاً ؟ »

فقال « اذا لم يصحح الا بعضه فاننا نكون سعداء .. يظهر انك لم تفهم

حقيقة مهمته عند شيخ الاسماعيلية »

قال « فجهتها . كيف لا ؟ »

قال « لا . لم تفهمها كما هي .. اعلم ان مولانا الشيخ هذا كان صديقاً

للشيخ راشد الدين سان رئيس الاسماعيلية الآن قبل ان صار رئيساً وفد

أعانه وارتكب معه أموراً كثيرة حتى تمكن راشد الدين من هذه الرئاسة .

فحسده صاحبنا فاراد أن يعمل عملاً يفوق به على صاحبه فذهب الى مصر

وطمع بالخلافة . »

فصحك الآخر وقال « بالخلافة »

قال « نعم طمع أن يكون خليفة وسمى نفسه ابا الحسن وادعى النسب

الفاطمي وصدقه الناس . ولما مات خليفة مصر العاصم تابعه حماسه من

المصريين . ثم انكسرت امره اصلاح الدين وفض على رفاقه ونجا هو بنفسه

وجاء السام .. وانت تعلم ما جرى بعد ذلك . كيف كانت بعض الفدائين

الذين يقتلون القتل بدرهمين فاحتطموا له هذه المرأة من بيننا وهي تكبره

ولا تظن أن تراه .. »

فقطع الآخر كلامه وقال همساً « احذروا تدرك الفدائين اسوء

واذا في دارهم . أما هذه المرأة فانت لا تعرف من هي . مسكبه كم فاست

منه .. هجه ال .. لا تظن انك لا تعرفه .. »

فصحك ذلك وقال « من هو من لا يعرف سايه لاسيما اذا

نحج بمهمته عند راشد الدين . والحق ما راى . تحب هذه المرأة ويدها

تكني حارثاً احبه . لك انك لا تعلمه هو بالسر .. »

ففهم عماد الدين من هذا الحديث انه قتل ابا الحسن لكنه لا يعرف
علاقته بسيدة الملك وإنما يعرف انه من المفضل على صلاح الدين وانه
نجا من القتل . فرقص قلبه فرحاً لانه سيذهب الى صلاح الدين بنجرين
معه . الاول ذهاب الخطر عن حياته من راشد الدين والباقي انه نجا من
ابي الحسن . لكنه سمع في أثناء الحديث انه يعذب امرأته حتى أتمتق
عليها الخدم . وتذكر ان ابا الحسن أمره بقتلها وأحارزه عليه سلفاً . وكان
عماد الدين قد أصبح عدو تعاقبه بسيدة الملك يسبق على كل ابي لاحقاً .
فاحس بميل الى انقاد هذه المسكنة . ورأى الخدم مشعرين بظلامتها
فتقدم الى الباب وطرقه فاحفل الرجلان وصاح أحدهما « من الطابق ؟ »
وقال لرفيقه « لعله مولانا السيد سامان ألم أول لك اني رأيت مباحه »
فقال عماد الدين « افتح اني رسول من السيد سامان »

فتفتح أحدهما الباب ودخل الآخر فأتى بالمرء وأداه من وجه
عماد الدين ورأاه ورأها فلم يذكر انه يعرف أحدهما لكنه عرف من
رهبما انهما من أهل دمشق . وكان قد لحظ ذلك من لحيتهما وكلامهما
في حدود الكهولة فتقدم أحدهما وقال لعماد الدين « ماذا تريد ؟ »

قال « بعثني الشيخ سليمان بمهمة ومعه هذا الصناديق من يدق
الرسالة فاطفاً في أثناء الطريق »

قال « صدقت وما الذي تريد به ؟ »

قال « أمرني أن آتيه «امراته على علمها وهو في انتظارها ما . حسن ،
ما دمت الجلال أحدهما الى الآخر لهمة الاستعراب ولسان حاد
يقول « كيف يبعث الرجل يطالب امرأته على عاتقها الى الحسين وه الذي
يربده منها هذان » فقال أحدهما « وهل يسأل امرأته وحدها ؟ »

قال « بظلمها مع ما تريد حمله من مباحها وبيعها »

قال « علينا أن نبلغها الرسالة » ودخل الرجل والدور بيده وظل عماد الدين واقفاً وقد أصاح بسمعه . وأول نبي سمعه قبل وصول الرسول أنبيء وتأوه وصوت ضعيف يقول : « ويلك من الله يا خائن .. ألا تحاف العقاب يوم الدين ؟ . أين انت يا موت .. متى تأتي ساعتى وأتخلص من هذه الحماة .. آه .. ما نالهم يآ مرون على ؟ . »

ولما سمع عماد الدين ذلك الصوت اقتصر بدنه لأنه كثير الشبه بصوت سيدة الملك . وحدته نفسه أن بتقدم ليراها ولكمه صبر ليسمع ما يدور بينها وبين الخادم . فإذا هو يقول لها « ان سيدي السبح بعث بطلب مولاتي اليه في هذا الحصن »

وصاحت فيه « الى اين ؟ من هو سمدك هذا . ما بالك تمزعوني بالاستله . دعوني اعلم امام لحظة أنس منها مصائبي »

قال « لا تعضي اسيدتي .. ان مولاي بعث رسولاً خصيصاً من خدمه السبح راسد الدين أن يحملك اليه بما يريد من حمله من متاعك وثيابك و .. »

فقلت « لا .. لا أذهب اليه الا بمعه على حصة . دعوني به . لعنة الله عليه . ويا ويل من الله .. ومن يوم الدين .. آه .. آه .. آه .. حماني الى بلاد ليس فيها من يعرفني ولم يهوى على قلبي .. آه ... كل ما في من هذا القلب . »

واسمح عماد الدين بعود من خطبة الترانيم فمضت سيدة الملك . وله كان المأوى في الدار . ولما هي اكملت اسبوعاً وصولها الى هناك وهي تحت الحارس الذي راح الدين . ولما اراد ان يمشي في ضلوة اكراماً لحبيته لاها من حارسا ورسد « منة الله » ودمها لدمها ودمها . ثم سمع الرجل خطبة اقالالا « و .. »

لا بد لنا من أخذك اليه حسب أمره وهذا رسوله واقف بالباب . وهل
في الامكان رد طلبه . . ؟ فالأومى أن تنهضي راضية . . »

فلما سمعت تهديده صاحت صيحة وم لها شعر عماد الدين قائلة
« اتهددوني بالاحدة رآ ؟ يريد هذا النسق ان يحملي على ايدى اللصوص
كما فعل قبل الآن . . » ثم احضمت صومها وغصت بدموعها وقالت
« ولكن الله نعت الي في تلك المرة ملاكاً شجاعاً أقدنى من محال
الموت وانقد سرى وحياتي » ثم سهدت وقالت « آه اين أنت
يا عماد الدين ؟ . . »

« اما سمع عماد الدين نداها لم يمالك عن الوثوب كالاسد الكاسر
وقد تحمق ان تلك المظلومه حبيته سيدة المالك واجابها « ليك . . ليك . .
يا سيدتى . . »

وما لبثت ان سمعت صوته حتى رأتته من يديها وقد اراح الخادم
بيده وتهدم نحوها وهو يقول « مولاي سيدة المالك أنت هما في هذا
العذاب ؟ »

فشخصت اليه نحوص الاله كئيبا أصيدت بحبه وود جحدت عماها
وعقد اسامها ولم بعد يستطيع المطاق اكها تماسكت وتوهجت نفسها في
حلم فحالت وصوتها تنقطع وهو محمى « عماد الدين ، عماد . . الدين ،
آه . . يا ليت لك كن في نقطة » وعطت وجهها بكفها وأخذت
في الماء

فقدم عماد الدين نحوها فطع قلبه لرؤيتها من شدة الضعف
وله ساهدها بدون أن تباديه السر بها فملك يدها وقال « انت في
يمنية يا سيدتى اما عماد الدين انت في بعله روجي فداك
له تساهب . . »

الفصل الرابع والستون

الحقبة

فلما سمعت صوته ثانية فتحت عينيها والدمع يغشاها ونظرت اليه وهو في ري غير زيه . لكنها عرفت صوته وتفرست في وجهه وهي لا ترى شيئاً من الدمع فمسحت عينيها بكمها فعرفت عينيه فصاحت « عماد الدين ! انت عماد الدين ؟ من أرسلك الي ؟ لا . لا . انت عماد الدين . انت خادم ذلك الخائن حثت لتأخذني اليه . . بالله قل لي . هل انت عماد الدين ؟ » وصحكت كاللله المعبود وقال « أنت عماد الدين . . ان المعجرات لا تكرر . . نعم أتى عماد الدين لانتقادي في مثل هذا الضيف وفياليتي بأني الآر » ثم سكنت كأنها استرحمت رسدها ومسحت عينيها ثانية ونظرت الى عماد الدين نظراً متفرساً وهو حاث بين يديها وعيناه ساحصيان في عينيها ومابه يتقطر . فلما لبثت ان تحققت انها ترى عماد الدين فصاحت مرة فيها « عماد الدين ! عماد الدين ! » وترامت عليه وقد اعطى ملياً . فامضها وترا كص الخدم بالماء في يديها وهو يمسح وجهها وعينيها ثمادها . وسماها حرة من الماء . فارتعبت واعادت النظر الى عماد الدين وهي تضحك ضحكاً لاهل استرحع شيئاً كان يمكن ان يراه

لكن تلك الضحكة ابدت في عينيها ودس في قلبه أن يرى تلك المأساة أحسن الحيات قد دس في قلبها وسارت أيتها وحيدة دباح الدين ثم سبقت كرها مع ذلك السريح المملوكية حياءاً تذكر اننا منذ سرتي عنه وعاد الى تلمذ سيدنا الملاك وقال « حياءاً اني ناسد مدى عبدك عماد الدين »

سوال: اندس وک اٹھ ایشیہ

قال « نعم . وكنت اود اني عرفته قبل قتله لاسبعه قتلاً واخبره وهو في حشركة الموت اني قتلته في سبيل طاعتك انتقاماً لفضاعته »
فقلت « ولماذا قتلته وكيف ؟ »

قال « فعلت ذلك بامر رجل يظهر انه كان عارفاً تقمّي عليه فألح عليّ ان اقتله وقال اني سأحمد مغبة عملي وقد اصاب » -- ثم تذكر وصية ابي الحسن قبل موته وقال « لعمرة الله عليه .. لم أسمع برجل اعظم شراً منه أتعلمون ماذا قال لي ؟ قال انه يستحق الموت ودفع اليّ هذه المقود وقال اطلب اليك ان تقتل امرأتني التي في منزلي لامها احق بالقتل مني . انظروا ماذا قال وهو في آخر لحظة من لحظات الحياة وقد اشرف على الآخرة . انه يريد أن ينتقم من هذا الملاك ودفع اجراً على ذلك قد اخذتموه فانتم اولى به »

ثم التفت الى الرحلس وقال لها « هل تحبان البقاء معنا ؟ »
قالا « نعم .. نحن في خدمتكما كما نساء ان »
قل « فاقدم اليكما ان تنأهبا للمسير الساعة .. هيا آ الاحمال وللسافر الآن »

واخذنا في الاستعداد وحلّس عماد الدين بين يدي سدة الملك يسألها عن سبب وصولها الى هناك .. واخبرته ان ذلك التبعس احتال في اختطافها على يد فدائي جعل نفسه حادماً ورافياً حتى حرّحت من التضرع الى بعض السائس ومعهما حارسها ياقوته وقد كنّ لها جماعة دسّم ابو الحسن وجمّوا عليها ودافعت ياقوته دفاعاً شاملاً .. ثم ربحوا حتى سنطفت لا تمدي حراكاً . وان اولئك الاسماء حملوها وحدها وخرجوا بها وهي مكومته العم معلولة الايمان . وكان ابو الحسن انظرهم في ضواحي القاهرة واحداً بعد اياً انتقاماً منها لانها كانت سبب شقائه ومسلته ثم انقل بها الى السام وهناك

استخدام هذين الحقيقتين ونمحرهما بالمال . ثم جاء بهم جميعاً الى هذا الحصن فتركها معها في ذلك المنزل ودخل على راسد الدين ليستعين به على الانتقام من صلاح الدين اعلً بعض الفدائيين يقتله

هذه خلاصة ما قصته سيده الملك على عماد الدين وهو حالس بين يديها يصغي اليها بكل جوارحه . وهي لم يمر عليها يوم في حياتها شعرت فيه بلذة الحياة مثل شعورها في تلك الساعة مع أنها في برية مقفرة وقد اضناها الضعف -- ولكن الحب مصدر السعادة كما هو مصدر الشقاء ولولاه لكانت الحياة لمدة باردة لا لذة لها ولا معنى فيها

وقص عليها عماد الدين مهمته في مصلحة صلاح الدين وما قاساه من العناء وكيف انتهت بالعمور واصبح صلاح الدين في مأمن من الفدائيين . فلما سمعت اسم صلاح الدين انبرق وجهها وقالت « بارك الله في صلاح الدين انه نادر النال »

ومضت وقالت لها « ألم اقل لك ذلك في آخر ليلة رأيتك فيها وأنت نائمة عليه ؟ »

قالت « لم اكن اعلمه . وفي كل حال فاني امتدح مروءته وعلو همته . وأما انت فكنت تمتدحه في معرض آخر . وبوب ذلك المعرض لا يزال حكيم عليه كما كان . ولا سيما اذا فاهاته بعاد الدين . » وضحكت وكادت تتكلم وحياتها ساحصتان معه تكاد تتلفه بهما

ثم جاء الخدمان وقد ساءت أحوالهم وشدهم الالام فركبوا جميعاً وقدموا الى البعلبعل وساروا من وادي النصارى الى وادي النصارى فوجدوا عماد الدين صديقه عند الرحيم وما اوصاه به وما معنى ذلك من ان يترك الرحيل ان يوقد مسعلاً مردوحاً ففعل

وسار الركبان معه سيرة نهار الى وادي النصارى وهما يقصان

ما جرى لهما في تلك المدة الطويلة -- والمحـب اذا غاب عن حبيبته ساعة عاد ومعه عدة حكايات يرويها وهو يرى في ذلك لذة خصوصية لا يشعر بها غير المحبين . والغريب ان المحب لا يصبر على كتمان سيرة حبيبته كما انه يرى في كتمان خيانة او كان قلبها يطالبان المكسفة في كل شيء فكما يتساكبان وينعتمان وهما ايضاً يلد لهما نقل ما في قلب الواحد الى قلب الآخر من حب او عتب او سكاية او حديث

الفصل الخامس والستون

عبد الرحيم

وهم في ذلك وقد عدوا عن حمل السلاح سمعوا وقع حوافر حواد ورائهم وكان سواد الدرس لا يدرى قرب سماع ذلك انما سأل الجني صديقه عبد الرحيم ومد أذنيه في سمع أذنيه استطاع منه ما لم يح اليه به وهما في الحصن

«انا سمع وقع حوافر الفرس تلاحق في المسير ووقف معه سيد الملك . فستار الدخان تبقي سائرة والحادة ان يتعاما همت وتآخر هو خبطة فوجد صديقه عبد الرحيم يدق راسه بيده اليسرى انسا يطارد به فاداه «عبد الرحيم»

عبد الرحيم الدين

«ان ما وراءك من الدخان ما يدرى ما هو»

«لا سكاية لكمني حمة تسمع»

«ان ما وراءك من الدخان ما يدرى ما هو»

«لا سكاية لكمني حمة تسمع»

وتربصت بعد ذلك وأنا اراقب حركاتك حتى علمت انك دخلت منزله ثم طال انتظاري ولم أشاهد منعا لك خفت أن تكون قد أصبت بسوء مركبت نحو المنزل من طريق آخر فلم أجد هناك أحداً ثم رأيت المنعال فهرعت اليك .. هل عليكم بأس ؟ »

قال « لا بأس علينا والحمد لله بل نحن في خير وبركة »

قال « هل علمت من هو الشيخ سليمان الذي قتلته ؟ »

قال « نعم علمت انه أبو الحسن صاحب ثورة القاهرة التي ذهبت بسببها الى مصر تلك الرسالة المباركة وحتتني بذلك الحواب الثمين .. وقد طهر لي من الحاحك على قتله ان في الامر سرّاً وقد طهر الآن لك أعيتي على التخلص من هذا السرير وهذه أسرى سنزفها الى مولاي صلاح الدين ولك الفضل فيها »

قال « وسترف اليه بشرى اخرى ان حياته في مأمن من عائلة الاسماعيلين »

قال « طبعاً . وسأرف اليه واليك بسرى هي في نظري أهم مما تقدم » فقال « وما هي ؟ »

قال « لم تسألني عن هؤلاء الرفاق من هم »

قال « كنت عازماً على سؤالك لكنني تفتأت أنهم روعة ذلك السرير وخادماها وهي الآن . وحك طبعاً »

قال « لا . لا . لم تكن زوجاً له قط »

قال « من هي ؟ »

قال « أتذكر الرسالة التي جئتني بها من القاهرة والسيدة التي حاطبتك ود كرت لي اعجابك باذلفتها وكلمها ؟ »

قال دهشه « سيدت المالك .. احب الحليفة ؟ »

« هذه الراكبة على البعلة سيده الملك ؟ »

قال « كيف لا .. واكن مهمل قليلا رثما نصل الى مكان نزل فيه
عبد الفجر . ادلا يد لها من الراحة »

فہال « ادا کرتے تھیلوئی »

والسرع في الخواب لهمة قاتلاً » ان ذلك يكون من حسن طالعي .
كم أحب أن تكون معي فعيش سوية على أقدر على مكافأتك وسأزير
السلطان صلاح الدرس ما كان من مضائك في أيام هذه المهجة وهي بشرى
رابعة أرفها اليه . وإيكن كيف تركت المائدة الاسماعيلية بعد أن صرت من
كدار رحاها وصارت لك هذه الدالة على وثبها العجيب الغريب . اي
لا أنسى ما شاهدته من المدهشات في هذين اليومين . . »

متهد وقال « ولم اتى الى درجة المستنيرين لم يحظر على أن اعتزل هذه الطائفة . ألم يسمه الى تعبيرى بعد ذلك الارتقاء . لو بقيت هذائياً لطلت . متاقا الى الارتقاء والاطلاع على الاسرار . ولما أطلعت عليها رأيتى كنت مستهزئاً وبدت على دخلى »

فقال له المذبح: يا ابن المذبح! ان ترفع الي مثل هذه الدرجة

واللأنهم يريدون قتلهم ما ساد معظمهم من المذات وأسباب
العبادة "لأنهم أنزلوا إلى الدنيا في جهنم" "لأنهم

أمثالك . أما أنا فلا أحب هذه العيشة بما فيها من الغدر
فاطرق عماد الدين ونساغل بمشيط عرف فرسه بانامله وهو يعجب
بكمال ذلك الصديق . ثم قال « ألا تزال تعتقد كرامة الشيخ راشد الدين
ومعجزاته ؟ »

قال « كمت أعقدها حتى ارتقيت وعرفت سرّها فانكرتها . . وفي
الدنيا كثير من الظواهر المدهشة اذا عرفت سرّها احقرتها »

قال « اني شديد الرغبة في معرفة سر ما شاهدته من معجزات الرجل
مثل اطلاعه على الاخبار قبل وصولها ومحاطة الاموات والاحجار وسماع
جوابها ونهايك بحته التي يسمي حورها على سطح الماء وتحاطب الاطيوار
وغير ذلك . انها من المعجزات المدهشة »

قال « صدقت انها مدهشة وكمت أود ان اكسبك سرها لولا اني
أقسمت على الاحتفاظ بها الايمان المعلطة وأنت لا ترضى لي الخبز باليمين .
لاني وان تركت الجمعية وتخلبت عنها فلم أنحلّ عن سرّي وضميري . اكفي
أقول لك ان هذه المعجزات ليس فيها شيء من الخوارق التي لا يقدر عليها
الناس وليست من قبيل الوحي الالهي او المقدرة الخصوصية كما كما نظن .
والآن قد دنونا من محطه فيها عس ماء وخان أعرف صاحبه فأرى ان ننزل
هنا ريثما نستريح ثم استأنف المسير كما تستأون »

فاصرع عماد الدين الى سيده الملك وأخبرها برأي رفيقه عبد الرحيم
فوافقت عليه وكان الفجر قد لاح وهزلوا . وتقدم عماد الدين ومعه
عبد الرحيم الى سيده الملك فقدمه لها وأخبرها عن فصله في بحاح مهمته
فأثنت عليه كثيراً

الفصل السادس والستون

الالفاء

فلتركهم ريثما يستريحون ولنعهد الى الفاهر . فذد مال سكونا من
أهلها تركناهم بعد صلب عمارة واصحابه المناشرين وحروج رسول عدالدين
(عبد الرحيم) بالكتاب والجواهر الى بيت المقدس . وقد اطمان ال
سيدة الملك وسرّها انها خطرت ببال حبيبها وقد ذكرنا ما كان من نعمة
ابي الحسن بعد قتله في دمشق . وانه أصبح معه الانتقام من سيد الملك
باني وجه كان قاضي بعض الاسمية من الدلائل . على الاحتيال باختطافها
ودهب هو الى مصر . فاسموا حرو وجها مع حاصنها الى الساتين على مفرقة
من قصر صلاح الدين واسموا كل تقدم وسقطت بالقوة وقد اعين مايا
ولم تنفق الا بعد ساعات . وكان له من مد نحو بغنيهم . فاجبر
قراقوش بذلك فالتص صلاح الدين ما به بعد وأمر بالمعاش عن
سيدة الملك في كل مكان ومن الحواسيس في الاراف لم يبق لها على خبر
وسم ذلك عليه كثيراً وراد صممه لانتقام اخبار عماد الدين وندم
على الاذن له في الذهاب لئلا أحسن عيشة منته بعد ما رآه من مات
عرمه في حادثة . وكان يود أن يعاد له من سيدة الملك و يرح به فكان
سيماها سائماً عيشة ولا يعمل حلاً من حرويه مع الصاينين
وهي على ما ساء ذلك اليها من الخشاشين . فانتقام
وعوهم ذلك حارسه وادبره . فالتص صلاح الدين الذي ساء
في المرز الماسية ان معه من الخشاشين . فالتص صلاح الدين الذي ساء
مأذبا مال له . ما واما . فالتص صلاح الدين الذي ساء

قال « ان ذلك بتوفيق الله وبركة مولانا السلطان . اخبر مولاي ان عبده عماد الدين عاد من مهمته سالماً طافراً وكان يود ان يحمل هذه البسرى بنفسه لكنه شغل لسيدة الملك فاسأدنته ان احمل هذه البسرى اليك قبل وصوله »

فصاح فيه صلاح الدين « وسيدة الملك معه ؟ »

قال « نعم يا مولاي ؟ »

فالتفت الى مهاء الدين ياتمس . شاركته في الاستعراب فقال بهاء الدين « ان ذلك عريب .. هذه المرة انقدها ايضاً من الخطر ؟ — اليس ذلك دليلاً على انها حلقا ايسترا ؟ »

قال لا شأن في ذلك وهذا عاية ما أعماه فابتعت من يستقبلها في موكب يابق بمقامها »

واعد قراقوس موكباً حاداً استقبل القادمين في الحانقاء بجوار القاهرة ومعه هودح لسيدة الملك . ولما دنا الموكب من قصر صلاح لدين حولوا الهودح الى قصر سيدة الملك وكانت ياقوتة قد علمت بقدومها فاستقبلتها وترامت على يديها قبلها وشكرت الله على هذه النعمة . ورأت الضعف لا يزال طاهراً في وجهها فاخذت تداعبها بذكر عماد الدين وانه لا يلبث ان يصير زوجها فقالت لها « هل رأيت يا ياقوتة ان هذا الشاب يستحق فلي ؟ » . انه انقذني من الموت والعار مرة اخرى » وقصت عليها خبرها ماحصار

اما اراد الدين وترحل قبل الوصول الى قصر السلطان وشي حتى دخل عليه واك على ركبته يقبها ويقول « اسكر الله لانه اراني وحاً مولاي السلطان في حير » وتقدم اليه الورراء والمواد وسلموا عليه وهم لا يعرفون

الغرض من مهمته ولكنهم جاوروا السلطان باكرامه
ثم أمر السلطان بخلوة لم يشهداها غير بهاء الدين وعماد الدين . وسأله
عن نتيجة مهمته فقص عليه ما جرى من أوله الى آخره فاعجب بهمته وما
أظهره من الصبر وما لاقاه من المصاعب والمستأكل وتعلب عليها جميعاً .
وكان أغرب ما سمعه قتله انا الحسن وانقاده سيده الملك . « انا وصل الى
هما انتسم السلطان وقال « بارك الله فيك . هذه همة عالية . رحم الله
والدي انه كان صادق النظري الرجال . توسم فيك مناقب كمار القواد
وقد صدق توسمه لانك أثبت ما لم يستطعه سواك من رحالنا . فاب الآن
من كمار قوادنا وحال خاصتنا »

والتفت الى بهاء الدين وقال « يا بهاء الدين هذا هو الشاب الذي مر
من بين يديك من قصر النساء وشكوته الى - ألا تراه يستحق أن يكن
روحاً لسيدة الملك وقد انقذنا من أبي الحسن كما سمعت »
قال « انه أهل لكل المات ويكفي أن يكن مهلاً لنا نهم الدين قد
توسم فيه ذلك . »

قال « قد آن له الآن ان يستريح من وعثاء السفر -- وادب أن
تحتفلوا بزواجه احتمالاً يا ابن المملوك وكمار القواد »

فاك عماد الدين على يدي صلاح الدين يقلها فقل صلاح الدين
رأسه ثم قال عماد الدين « استأذن مولاي كلمة عن صديقي عبد الرحمن
سمعت انه في حدمته وسيكون عوناً لنا في حروب الافرنج لانه يعرف
بيت المقدس جيداً »

فلم يصبر صلاح الدين حتى يتم حديثه فقال « انه أهل ليكون من
خدمتنا وعملنا بهاء الدين يعرف له قدره وبهرته في منزلته . وحب لأن
ان أرى سيماءك وأهله بالسلامة »

فهرع بهاء الدين الى قصر النساء يدشر سيدة الملك بزيارة السلطان .
فاستعدت لاستقباله فلما أقبل عليها حياها وقال « قد أصبت لانك فضلت
عماد الدين عليّ فإنه أنفذك من الموت مرتين وخلصنا من أشر الاعداء .
فهو حدير بك ونعقد له عليك بما يقتضيه مقامك »

فحلت سيدة الملك حجاباً يمازجه الفرح والاعجاب واطرقت حياء
ثم رفعت بصرها الية وقالت « لم أفصل عماد الدين المناقب تعجب السلطان
صلاح الدين وقد رفعه سنبها من عامة الناس الى خاصتهم وجعله جليسه .
وهب ابي قلت بتفضيله من بعض الوجوه لكنني انا وهو لا نفضل أحداً
على صلاح الدين . ونحن في رعايته ونحت طله »

واعجبه حواها فقال « كنت في رعايتي ولكنك الان في رعاية البطل
عماد الدين ويحق لك أن تفتخري به كما يحق له الافتخار بك فاهناً »
قال ذلك وخرج وعادر سيدة الملك وقلبها يرقص فرحاً وقد سبت كل
مصائبها الماضية

واحتفلت مصر بزواف سيدة الملك الى عماد الدين احتفالهم بزواج

الملوك

﴿ تمت الرواية ﴾